شرح كتاب

ثلاثة الأصول وأدلتها

لشيخ الإسلام الإمام المجدد

محمد بن عبد الوهاب المشرفي التميمي

١١١٥هـ - ١٢٠٦هـ

-رحمه الله تعالى-

شرحها فضيلة الشيخ

صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

[٠٩دروس-٠٦أشرطة]

أعدّ هذه المادة

سالم بن محمد الجزائري

النسخة الإلكترونية الأولى

www.ajurry.com

بسم الله الرحمن الرحيم

...أما بعد:

نسأل الله جل وعلا أن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح وأن يجعلنا من الذين يتعلمون العلم لوجهه لا يريدون به عرَضًا من الدنيا، ونسأل الله جل وعلا أن يبصّرنا بالحق وأن يمنّ علينا بالالتزام به، وبالثبات عليه، حتى يتوفّانا وهو راضٍ عنّا.

هٰذه الدروس متنوّعة:

فمنها درسٌ في ثلاثة الأصول وهي رسالة لإمام هٰذه الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تَعَالَىٰ.

وبعدها درس في الورقات للجويني في أصول الفقه.

وهٰذا بعد العصر.

وبعد المغرب إن شاء الله تَعَالَىٰ، يكون ثَم درسان.

الأول في التفسير؛ وسنفسر إن شاء الله تَعَالَىٰ سورة ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾؛ المسماة سورة الملك.

وبعدها درس في الحديث؛ نشرح فيه إن شاء الله تعالى، ما نتمكن من شرحه من الأربعين النووية، على وجه الاختصار والإيضاح إن شاء الله تعالى.

سبب الاختيار، أن هٰذه الدروس مدتها وجيزة أولا من حيث الزمن؛ لأنها مُقْتَطَعة من هٰذه العطلة، وبالتالي هي غير متّصلة، فلهٰذا يناسب أنّ يشرح فيها أشياء تُنبِّه طلاب العلم إلى ما يجب أن يسلكوه في طلب العلم؛ لأن الكثير من الشباب يحب العلم، ويروم طلَبَه، لكنه لا يُوَفَّق إلى الطريق الصحيح لطلب العلم، فمنهم من مضى عليه سِنُون عددا يقرأ وربما يبحث، لكن لو فتّش في نفسه لوجد أنه لم يحصّل من العلم ما به يكون على أرضٍ يُمْكنه المشي عليها في طريق العلم اللاّحِبِ الطويل، وسبب ذلك أنه فقد التأصيل العلمي الذي كان يعتني به العلماء منذ قرون كثيرة.

رسالة **ثلاثة الأصول**، رسالة مهمّة لكلِّ مسلم، وكان العلماءُ –أعني علماءَنا– يعتنون بها شرحا، في أول ما يشرحون من كتب أهل العلم، ذلك؛ لأن فيها الجواب عن أسئلة القبر الثلاث؛ ألا وهي سؤال الملكين العبدَ عن ربه وعن دينه وعن نبيه، وهي ثلاثة الأصول؛ يعني معرفة العبد ربه؛ وهو معبوده، ومعرفة العبدِ دينه؛ دين الإسلام بالأدلة، ومعرفة العبد نبيَّه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، فمن هٰهنا جاءت أهمية هٰذه الرسالة؛ لأن فيها من أصول التوحيد والدين الشيء الكثير.

وأصول الفقه مهمة أيضا والعناية بها ضعيفة –فيما أحسَب وأسمع–، وتأتي أهميتها لأنه كثُر المجتهدون دون معرفةٍ لأصول الاستنباط، والاستنباط له أصوله؛ أصول الاستنباط هي أصول الفقه، فكم سمعنا من متكلم في المسائل الشرعية لم يحسن الكلام عليها تأصيلا و لا استنباطا، ويظن أنه محسن مصيب في استدلاله، لم؟ من أين أتاه الغَلَط؟ أتاه من ضعفه بأصول الفقه.

نعم، إنّ هٰذه الورقات مقدمة في أصول الفقه، لم تشتمل من أصول الفقه إلا على أشياء يسيرة، فلا تهيِّئ تلك الرسالةُ طالبَ العلم إلى أن يفهم الأصول كما ينبغي، ولكنها تعطيه مفاتيح يدخل بها بيت أصول الفقه.

وأما التفسير، تأملتُ فترة فيما أختاره في التّفسير، هل أختار تفسير سورة الفاتحة؟ أم أختار تفسير جزء عمّ؟ باعتبار أنه كثيرا ما يُقرأ في المساجد في الصلوات الجهرية، وربما قرأه أكثر المسلمين، بلْه طلاب العلم، في صلاقم، وربما لم يدركوا، أو لم يعلموا كثيرا من معاني التي يتلوها كثيرا ويسمعوها كثيرا، لكن لقصر الوقت نظرتُ في أن سورة تبارك اشتملت على أصول عظيمة، ويمكن ببيان وتفسير آياها ما يُنبَّه طلاب العلم على ضرورة الاعتناء بالتفسير، خاصة تفسير الآيات التي تحفظُها، والتي تقرأُها في صلاتك والتي تسمعُها، فكم يُعاب المرء أن يَسمع كلاما يردد عليه وهو يجهل معناه، تُردد عليه قصار السور وربما جهِل بعض تلك المعاني ليس الجهل عيْبا، لكن الإصرار على الجهل هو العيب، وما أحسن قول أبي الطيِّب المتنبي حيث قال:

وَلَم أَرَ في عُيوبِ الناسِ شَيئاً كَنَقصِ القادِرينَ عَلى التَمامِ

وأنتم أيها الشّبَبَة قادرون -بلا شك- على التعلم قادرون على الفهم، قادرون على الفقه، لكن العيبُ يأتي من إضاعة الوقت في غير ما ينفع، التّفسير مهم ومعرفة معاني الآيات وسيلة -لاشك- من وسائل الثبات على الإيمان، وتحصيل العلم النافع.

بعد التفسير الأربعون النووية، وهٰذه الأربعون النووية جمعت أحاديث، شهد العلماء بعد محي الدين يحيى بن زكريا النووي -رحمه الله تَعَالىٰ رحمة واسعة- على حسن اختياره لها، وعلى أنها جمعت الأحاديث التي عليها مدار الإسلام، لهٰذا اعتنى العلماءُ بشرحها، هٰذه الأربعون ينبغي لنا أن نحفَظَها، وينبغي أن نفهم معانِيَها، وأن نقرأَ ما قاله العلماء في شرحها.

هٰذه مقدمات لهٰذه الدّروس، هٰذه المقدمات التي قدمتُ بها، أردتُّ منها أن أرشدك إلى أن العلم لا يُنال مرة واحدة، وإنما يُنال العلم على مرّ الأيام والليالي، كما قال ابن شهاب الزهري رحمه الله تَعَالىٰ، فيما رواه ابن عبد البر في كتاب الجامع قال: "**من رام العلمَ جملة ذهب عنه جملة، إنما يُطلب العلم على مرِّ الأيام والليالي.**" وهٰذا حق، العلم يبدأ بتحصيل صغاره قبل كباره، إذا حصّلت صغار المسائل قبل الكبار فأنت على طريق العلم، وأما إذا ابتدأت بالكبار دون معرفة الصغار؛ صغار المسائل؛ واضحات المسائل، وابتدأت بالكبار التي فيها خلاف، تحتاج إلى بحث، تحتاج إلى ترتيب، تنازع العلماء فيها، كما هو ديْدن بعض طلبة العلم، أو بعض المبتدئين في العلم، فإنه يذهب عنك العلم، لهٰذا أأكد على ضرورة تأصيل العلم والسير فيه خَطوة فخَطوة، وإنما يُطلب العلم على مر الأيام والليالي:

اليوم علم وغدا مثلُه من نُخب العلم التي تُلتقط
يُحصِّل المرء بها حكمة وإنما السيل اجتماع النُّقط

وهٰذا واقع.

وقد ذكر الخطيب البغدادي بإسناده في كتاب **الجامع ببيان أدب السامع**،(١) ذكر حكاية عن أحد رواة الأحاديث، بأنه طلب العلم، وحرِص على لقاء الشيوخ، وأخذ عنهم، لكنه لم يحفظ، مرّت عليه الأيام و لم يحفظ، لم يفهم، ومضى الوقت وهو على هٰذا، فظن أنه لا يصلح للعلم فترك العلم، فبينما هو يسير مرة إذا بماء يتقاطر على صخرة، وهٰذا الماءُ قد

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي.

أثّر في الصخرة، فحَفَرَ فيها حفرة، فنظر متأملا فقال: هٰذا الماءُ على لطافته أثّر في هٰذا الصخر على كثافته، فليس العلم بألطفَ من الماء، يعني بأخف من الماء، وليس قلبي وعقلي بأكثف من الصخر. ورجع يطلب العلم من جديد، وحصَّل وأصبح من رواة الحديث الذين لهم شُهرة.

إذن فالعلم يحتاج إلى مواصلة ما نيأس نواصل، نواصل، نحفظ، ندارس،؛ لكن ينبغي؛ بل يجب أن يكون على أصوله خطوة فخطوة، ومن بدأ بالأهم ثم أعقبه بالمهم، فإنه يحصل إن شاء الله تَعَالىٰ.

نبدأ بثلاثة الأصول نفعني الله جل وعلا وإياكم بها:

[هٰذا سؤال لطيف يقول ما إعراب ثلاثة الأصول وأدلتها ولماذا لم يقل المصنف: الأصول الثلاثة وأدلتها وما هي العبارة الأصح؟

الشيخ رحمه الله تعالى له رسالة أخرى بعنوان الأصول الثلاثة رسالة صغيرة أقل من هٰذه علمًا؛ ليعلمها الصبيان والصغار تلك يقال لها الأصول الثلاثة، وأما ثلاثة الأصول فهي هٰذه التي نقرأها، ويكثر الخلط بين التسميتين، ربما قيل لهٰذه ثلاثة الأصول، أو الأصول الثلاثة، لكن تسميتها المعروفة أنها ثلاثة الأصول وأدلتها.

إعراب ثلاثة الأصول وأدلتها:

ثلاثة: خبر لمبتدأ محذوف تقديره هٰذه (هٰذه ثلاثة) خبر مرفوع بالابتداء وعلامة رفعه الضمّة الظاهرة على آخره وهو مضاف.

الأصول: مضاف إليه مجرور بالتبعية وعلامة جره الكسرة الظاهرة على آخره.

الواو: عاطفة.

أدلةُ: معطوف على ثلاثة مرفوع بالتبعية، تبعية العطف وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره وهو مضاف.

ها: ضمير متصل مبني على السكون في محل جر بالإضافة.][(١)]

⁂

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى:

[المتن]

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلمْ –رحمكَ اللهُ– أنَّهُ يجبُ علينَا تَعَلُّمُ أربعِ مسائلَ؛

الأُولى: **العِلْمُ؛ وهوَ معرفةُ اللهِ، ومعرفةُ نبيِّهِ، ومعرفةُ دينِ الإسلامِ بالأدلةِ.**

الثانيةُ: **العملُ بهِ.**

الثالثةُ: **الدعوةُ إليهِ.**

الرابعةُ: **الصبرُ علَى الأذى فيهِ.**

(١) مابين المعقوفتين مأخوذ من الوجه الأول من الشريط الأول لشرح متن الورقات للشيخ صالح آل الشيخ.

والدليلُ قولُه تعالَى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾[العصر]**، قالَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ تعالَى: لوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِه إلاَّ هٰذه السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ.**

وقال البخاريُّ رحمَهُ اللهُ تعالى: بابٌ العلمُ قبلَ القولِ والعملِ، والدليلُ قولُه تعالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾[محمد:١٩]**. فبدأَ بالعلمِ قبلَ القولِ والعملِ.**

[الشرح]

الحمد لله رب العالمين، قال الشيخ رحمه الله تَعَالَىٰ في أول هٰذه الرسالة: (**اعلمْ –رحمكَ اللهُ–**)، أو (**اعلم رحمني الله وإياك**) وهٰذا فيه التلطّف، وفيه تنبيه إلى أن مبْنى هٰذا العلم على التلطّف، وعلى الرّحمة بالمتعلمين، لأنه دعا له بالرّحمة.

وكان العلماء يَروُون ويُروُّون لمن بعدهم فيمن طلب الإجازة في الحديث، رواية حديث «**الرّاحمون يرحمهم الرحمن**»، وهٰذا الحديث هو المعروف عند أهل العلم بالحديث بالمسلسل بالأوّلية، لِمَ؟ لأن كل راوٍ يقول لمن بعده "وهو أول حديث سمعته منه"، فعلماء الحديث يروون هٰذا الحديث لتلامذتهم ويكون أوّل حديث فيما يروون ألا وهو حديث «**الراحمون يرحمهم الرحمٰن**»، ففي الإجازات ترى أن كل شيخ يقول عن شيخه: حدثني فلان وهو أول حديث سمعتُه منه، قال: حدثني شيخي فلان وهو أول حديث سمعته منه، إلى أن يصل إلى منتهاه قال الرسول ﷺ «**الراحمون يرحمهم الرحمٰن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»،[1] قال العلماء سبب ذلك أنّ مبنى هٰذا العلم الرحمة، ونتيجته الرحمة في الدنيا، وغايته الرحمة في الآخرة.

لهٰذا الشّيخ رحمه الله نبّه على ذلك تنبيها لطيفا دقيقا حيث قال: (**اعلمْ –رحمكَ اللهُ–**)؛ دعاء للمتعلّم بالرحمة، ذلك لأنّ مبنى التعلم بين المعلم والمتعلم هو التراحم كلٌّ بما يناسبه.

(**يجبُ علينَا تَعَلُّمُ أربعِ مسائلَ**) الوجوب هٰهنا المقصود به: ما يشمل الوجوب العيني والوجوب الكفائي.

أما بالنسبة للأول ألا وهو **العلم**، فما ذكره واجب علينا أن نتعلمه وجوبا عينيا، ألا وهو معرفة ثلاثة الأصول؛ معرفة العبد ربه، ومعرفة العبد دينه، ومعرفة العبد نبيه، هٰذا واجب.

فمثْل هٰذا العلم لا ينفع فيه التقليد، واجب فيه أن يحصله العبدُ بدليله، والعبارة المشهورة عند أهل العلم: **أن التقليد لا ينفع في العقائد.** بل لابد من معرفة المسائل التي يجب اعتقادها بدليلها، هٰذا الدّليل أعم من كونه نصا من القرآن، أو من سنة، أو من قول صاحب، أو من إجماع، أو قياس، وسيأتي تفصيل الدليل إن شاء الله تَعَالَىٰ في موضعه.

التقليد هٰذا لا يجوز في العقائد عند أهل السنة والجماعة، وكذلك لا يجوز عند المبتدعة من الأشاعرة والماتريدية والمتكلّمة.

لكن تنتبه إلى أن الوجوب عند أهل السنة يختلف عن الوجوب عند أولئك في هٰذه المسألة، والتقليد عند أهل السّنة يختلف عن التقليد عند أولئك.

---

[1] سنن الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة الناس، برقم (١٩٢٤)، قال الترمذي: حسن صحيح، قال الشيخ الألباني: صحيح.

فأولئك يرون أن أول واجب هو النَّظر، فلا يصح الإيمان إلا إذا نَظَرَ، ويقصدون بالنظر؛ النظر في الآيات المرْئيــة؛ في الآيات الكونية، ينظر إلى السماء، يستدل على وجود الله جل وعلا بنظره، أما أهل السنة فيقولون يجب أن يأخذ الحــق بالدّليل، وهذا الدليل يكون بالآيات المتلوَّة، أولئك يحيلون على الآيات الكونية المرئية بنظرهم، بنظر البالغ.

وأما أهل السنة فيقولون: لابد من النظر في الدليل، لا لأجل الاستنباط؛ ولكن لأجل معرفة أن هذا قد جاء عليه دليل، في أي المسائل؟ في ما لا يصح إسلام العبد إلا به؛ مثل معرفة المسلم أن الله جل وعلا هو المستحق للعبادة وحــده دونمــا سواه، هذا لابد أن يكون عنده برهان عليه، يعلمه في حياته، ولو مرة، يكون قد دخل في هذا الدين بعد معرفةٍ للــدليل، ولهذا كان علماؤنا يعلمون العامة في المساجد، ويحفِّظونهم هذه الرِّسالة ثلاثة الأصول لأجل عظم شأن الأمر.

أول المسائل الأربع التي يجب علينا تعلُّمها **العلم**: والعلم أجمله هٰهنا لما سيأتي تفصــيله في الرســالة –رســالة ثلاثــة الأصول– شرح لهذا الواجب الأول.

الثاني **العمل**: العمل بالعلم، والعمل بالعلم منه ما ترْكه كفر، ومنه ما تركه معصية، ومنه ما تركه مكروه، ومنــه مــا تركه مباح، كيف يكون ذلك؟

العلم ينقسم، فالعلم بالتوحيد؛ بأن الله جل وعلا هو المستحق للعبادة وحده، إذا علمه العبد و لم يعمل بهذا العلم بــأن أشرك بالله جل وعلا لم ينفعه علمه، فكان ترك العمل بالعلم في حقّه كفرا.

وقد يكون معصية بأنْ علم مثلا أن الخمر حرام شُرْبها، حرام بيعها، حرام شراؤها، حرام سقيها، حرام استســقاؤها، ونحو ذلك، وخالف العلم الذي عنده، عَلِمَ أنه حرام فخالف، فتكون مخالفته معصية، يعني ارتكب كــبيرة مــن كبــائر الذنوب في هذه المسألة.

منه ما هو مكروه؛ إذا علِم أنّ النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ كان يصلي على هيئة وصفة معينة، فخالفه في سنة من السّنن بعد علِمه بها، فترْك العمل بالعلم الذي عنده هذا مكروه؛ لأنه ترك العمل بسنة –ليس بواجب– فيكون ترْكه مكــروه، ويكون العمل بذلك مستحبا.

وقد يكون العمل بالعلم مباحا، وتركه مباح أيضا، بمثل المباحات، والعادات ونحو ذلك، كأن بلغنا من العلم أن الــنبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ كان من هيئته في لباسه كذا وكذا، كانت مشيته على نحو ما، هذه الأمور الجبلِّية الطبيعيــة، فيمــا نتعلمه، مما لم نخاطب فيها بالإقتداء، إذا ترك العمل بها، كان ترْكه مباحا له؛ لأنه لم يخاطَب المسلم أن يقتدي بمثل هــذه الأمور، في نحو سير النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، في صوته، في الأمور الجبلّيّة التي كان عليها عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، فيكون العمل بذلك مباح، وقد يُؤجر عليه إذا نوى الإقتداء بنية الإقتداء، فيكون ترك العمل أيضا مباحا. [1]

العمل هذا أخذه من قوله جل وعلا: ﴿**إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾[2] [العصر:٣] كما سيأتي.

---

[1] انتهى الوجه الأول من الشريط الأول (لاحظ اختلاف التسجيلات)

[2] وهي موجودة أيضا في السور التالية: الشعراء: الآية (٢٢٧)، ص: الآية (٢٤)، الانشقاق: الآية (٢٥)، التين: الآية (٦).

الثالث **الدعوة إليه**: إذا علم وعمل فإنه يدعو إلى ذلك، والدعوة قد تكون بالمقال وقد تكون بالفعال؛ لأن الامتثال بالفعل دعوة، فإذا امتثل المسلم لما أُمر به، فإنّ هٰذا يَجعله يرشد غيره إرشادا صامتا بالفعل إلى أن هٰذا مطلوب، والثاني الدعوة بالقول؛ باللسان، والدعوة باللسان قد تكون واجبة، وقد تكون مستحبّة، فيتفرّع عن الدعوة باللسان أنواع من الدعوة: منها الدعوة بالكتابة بالقلم؛ في تأليف، أو في رسائل أو نحو ذلك، منها النصائح المختلفة، والمواعظ، ونحو ذلك.

بعد الدعوة الواجب الرابع أن يتعلم الداعية الذي: علم، ثم عمل، ثم دعا، أنه **يجب عليه أن يصبر**: لأنّ سنة الله جل وعلا في خلقه لم يجعل القَبول حاصلا للنبيين والمرسلين الذين هم أفضل الخلق وأعلاهم درجة، لم يجعل القَبول لهم، وإنما عُورضوا، و أوذوا، وحصل لهم ما حصل، فالداعية يحتاج إلى أن يصبر كما صبر المرسلون؛ بل إن النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ أُمر بأن يحتذي حذو الصابرين بقول الله جل وعلا: ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ**﴾[الأحقاف:٣٥].

فالصبر، الصبر في غاية المهمات لمن علِم، فعمل، فدعا، يحتاج إلى أن يصبر، فإن لم يصبر، كان من الذين يستخفُّهم الذين لا يوقنون، قال جل وعلا: ﴿**فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ**﴾[الروم:٦٠]؛ فقد حذّر النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ أصحابه من العجلة قال: «**ولكنّكم قوم تستعجلون**».[1]

هٰذه المسائل الأربع واجبٌ تعلُّمَها، والعمل بها؛ العلم، والعمل، والدعوة، والصبر، ودليل ذلك قول الله جل وعلا: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ(٣)**﴾[العصر]، قال جل وعلا: ﴿**وَالْعَصْرِ**﴾، العصر هو الزمان، أقسم الله جل وعلا به لشرفه؛ الزمان المطلق، ﴿**وَالْعَصْرِ**﴾ يعني: والزمن، والعمر، والوقت؛ لأنه أشرف شيء أُعطيه الإنسان، أنْ أعطي عُمُرا فيه يعبد الله جل وعلا، ويطيعه، فبسبب العُمُر عبَدَ الله، وبسبب العُمُر شرُف، إن كتب الله جل وعلا له الجنة أن يكون من أهل الجنة، فهو شريف القدر، عظيم القدر، ﴿**وَالْعَصْرِ**﴾ جواب القسم، ما معنى جواب القسم؟ يعني لأي شيء جاء القسم؟ لم أقسم الله جل وعلا بالعصر؟ قال جل وعلا: ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾، فجواب القسم هو: ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾، وأكّد ذلك، بـ﴿**إِنَّ**﴾ وباللام في قوله: ﴿**لَفِي خُسْرٍ**﴾، ومن المتقرر في علم المعاني من علوم البلاغة، أن: إنّ واللام من أنواع المؤكدات.

اجتمع هٰهنا أنواع من المؤكّدات:

أولا: القسم، الثاني: مجيء إنّ، الثالث: مجيء اللام التي تسمى المزحلَقَة، أو المزحلفة، مجيء اللام في خبر إنّ.

قال جل وعلا: ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾.

وأهل العلم يقولون يعني أهل العلم بالمعاني يقولون: إن مجيء المؤكدات يصلح إذا كان المخاطَبُ منكرا لما اشتمل عليه الكلام.

---

[1] البخاري: كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر، حديث رقم (٦٩٤٣).

فمثلا تقول لمن لم يكن عنده الخبر: فلان قادم، لا يصلح أن تقول: إنّ فلانا لقادم. وذاك لم ينكر الكلام، ويريد أن يستقبل الخبر، تقول: فلان قادم. فأخبرته بقدوم فلان، لكن إن كان منكرا له، أو متزّلٌ متزلة المنكر له، فإنك تؤكد الكلام له، لكي يزيد انتباهه، ويعظم إقراره لما اشتمل عليه.

المشركون لأجل ما هم فيه من شرك، وما عاندوا فيه الرسالة، حالهم –بل ومقالهم- أهم هم أصحاب النجاة ﴿**وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى**﴾[فصلت:٥٠]، فهم ينكرون أهم سيكونون في خسارة، و ينكرون –طائفة أخرى منهم- أن يكون الإنسان سيرجع إلى خسار، وأنه لن ينجوا إلا أهل الإيمان، فأكدّ الله جل وعلا ذلك لأجل إنكارهم بالمقال وبالفعل وبالحال، بقوله: ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾، يعني إن جنس الإنسان، الألف واللام هٰذه للجنس، (أل) الجنسية، ﴿**الإِنسَانَ**﴾ يعني جنس الإنسان ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾، جنس الإنسان في خسر، يعني في خسارة عظيمة، إلا من اُستثني، وهٰذا نوع آخر من شد الذهن لقَبول الكلام، ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾؛ كل الناس، كل الإنسان في هلاك وخسارة.

ثم استثنى فقال: ﴿**إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾، هؤلاء الذين استثناهم الله جل وعلا هم أصحاب هٰذه المسائل الأربعة التي ذكرها الشيخ رحمه الله تَعَالىٰ، ﴿**إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾؛ والإيمان علم وعمل، أليس كذلك؟ الإيمان قول وعمل واعتقاد؛ هٰذا الاعتقاد هو العلم، لأن العلم مورده القلب والعقل، هٰذا العلم، فأهل العلم ناجون من الخسارة ﴿**إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾.

ألم نقل: إنّ الإيمان قول وعمل واعتقاد، وهنا قال: ﴿**إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ فعطف بالواو العمل على الإيمان، وأهل اللغة –النحاة- يقولون: إن الواو تأتي كثيرا للمغايرة، فهل معنى ذلك أن العمل غير الإيمان؟ وأن مسمّى الإيمان لا يدخل فيه العمل؟

الجواب: لا، ذلك لأن المغايرة تكون بين حقائق الأشياء، وحقيقة الإيمان أكبر من حقيقة العمل؛ لأن العمل جزء من الإيمان؛ العمل بعض الإيمان، وعطف الخاصّ بعد العام يأتي كثيرا، وكذلك عطف العام بعد الخاص يأتي كثيرا بالواو، من مثل قول الله جل وعلا: ﴿**مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ**﴾[البقرة:٩٨]، هنا ﴿**جِبْرِيلَ وَمِيكَالَ**﴾ أليسا من الملائكة؟ لِمَ عطفهم على الملائكة؟ عطفٌ للخاص بعد العام، إذن لماذا يعطف الخاص على العام مع دخول الخاص في العام؟ لابد يكون له قصد، لابد يكون ثَم فائدة، الفائدة التنبيه على أنه في الحكم مثل الأول، ولهٰذا قال جل وعلا هنا: ﴿**إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾.

والشيخ رحمه الله تَعَالىٰ فهم ذلك؛ فقال: (**يجبُ علينَا تَعَلُّمُ أربعِ هٰذه المسائل**)، فذكر العلم ثم العمل؛ لأنه قال: ﴿**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾، فلما عطف الخاص على العام دل على شرفه، وعلى أنه يهتم به، وعلى مزيد مكانته، ثم لأنه في الحكم مثل الأول.

قال جل وعلا بعد ذلك: ﴿**وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ يعني دعا بعضهم بعضا إلى الحق، ودعا بعضهم بعضا إلى الصبر، وهٰذه هي المسائل الأربعة.

الصبر ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾؛ **الصبر** أقسام ثلاثة:

- صبر على الطاعة.
- وصبر عن المعصية.
- وصبر على قدر الله المؤلم؛ بل صبر على أقدار الله التي تسرّ والتي تؤلم.

هٰذه أنواع الصبر الثلاثة؛ صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر على قدر الله، وكلها يحتاج إليها العالمون، العاملون، الدعاة.

قال الشافعي رحمه الله فيما ذكر الشيخ هٰهنا: (**لَوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِه إلاَّ هٰذه السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ**)؛ يعني لو ما أنزل الله جل وعلا من القرآن، لو ما أنزل الله حجة على الخلق، مع رسول الله ﷺ إلا هٰذه السّورة لكفى بها حجة، لِمَ؟ لأنها اشتملت على أنّ كلَّ الناس آيلون إلى خسار ووبال وهلاك، إلا أهل هٰذه الأوصاف؛ وهم المؤمنون. معنى ذلك لو خوطبنا بهٰذه السورة، لو خوطبنا بها وحدها، مؤمنون بمن؟ لابد هناك شيء يؤمن به، ثم يعملون، يعملون على أيّ شيء؟ وبأي شيء؟ لابد أن هناك سبيلا؛ وهو سنة النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، هناك تواصي بالحق، دعوة إلى ذلك، وتواصي بالصبر؛ صبر على هٰذا، فترى أنّ هٰذه السورة اشتملت على كل ما يدلّ الخلق على ربهم جل وعلا، ويقودهم إلى إتباع رسالة النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ.

ثم ذكر قول البخاري رحمه الله تَعَالىٰ في صحيحه كما نقل الشيخ رحمه الله: (**بابٌ العلمُ قبلَ القولِ والعملِ**) وساق قول الله جل وعلا: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ**﴾[محمد:١٩]، فبدأ بالعلم قبل العمل والقول؛ الذي هو الاستغفار.

لِم ذكر الشيخ هٰذا؟ لأي شيء؟

لأجل أن هٰذه الرسالة رسالة علم، كلها شرح وبيان للمسألة الأولى، للواجب الأول، ألا وهو **العلم**، فينبِّه طالبَ العلم أن العلم مهّم، مهم للغاية، حتى إنه قبْل القول والعمل، فقبل أن يستغفر العبد، لابد أن يعلم العلم الواجب عليه، وهٰذا العلم هو الذي يُنجيه بنفسه، هو الذي ينجي به نفسَه –بفضل الله جلّ وعلا– إذا سئل عن هٰذه المسائل الثلاثة.

الشيخ رحمه الله تَعَالىٰ يريد أن يبين لك ثلاثة الأصول هٰذه، والمسائل المتعلقة بها، فأكّد لك أهمية العلم بقوله، فيما ساق عن البخاري (**بابٌ العلمُ قبلَ القولِ والعملِ**)، العلم قبل ولاشك؛ ولهٰذا قال ابن القيم رحمه الله تَعَالىٰ، وما أحسن ما قال، يقول: **والجهلُ داءٌ قاتل**. وصدق؛ الجهل داء قاتل، قال:

وَالجَهـلُ دَاءٌ قَاتِـلٌ وَشِـفَاؤُهُ	**أمـرَانِ فـي التَّركِيـبِ مُتَّفقَـانِ**
نَـصٌّ مِـنَ القُـرآنِ أو مِـن سُـنَّةٍ	**وَطَبِيـبُ ذَاكَ العَـالَمُ الرَّبَّـانِي**
وَالعِلـمُ أقسَـامُ ثَـلاَثٌ مَـا لَهَـا	**مِـن رَابِـعٍ وَالحَـقُّ ذُو تِبيَـانِ**
عِلـمٌ بِأوصَـافِ الإِلَـهِ وَفِعلِـهِ	**وَكَـذَلِكَ الأَسمَـاءُ لِلدّيـانِ**
وَالأمـرُ وَالنَّهـيُ الـذي هُـوَ دِينُـهُ	**وَجَـزَاؤهُ يَـومَ المَعَـادِ الثَّـانِي**
وَالكُـلُّ فِـي القُـرآنِ وَالسُّـنَنِ الَّتِـي	**جَـاءَت عَـنِ المَبعُـوثِ بِالفُرقَـانِ**

وَاللهِ مَـــا قَـــالَ امــــرُؤٌ مُتَحَـــذلِقٌ بِســـــوَاهُمَا إلاَّ مِـــــنَ الهــــذَيَانِ

بين أن الجهل داء قاتل، بم يُزال الجهل؟ قال: (**نَصٌّ مِنَ القُرآنِ أو مِن سُنَّةٍ**)، من طبيب ذاك الذي يرشدك ويبين لك؟ قال: (**وَطَبِيبُ ذَاكَ العَالَمُ الرَّبَّانِي**)، ليس كل منتسب للعلم ولكن هو العالم الرباني، الذين وصفهم الله جـل وعـلا في سورة آل عمران بقوله: ﴿**وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ**﴾[آل عمـران:٧٩]، ثم بيّن العلم هٰذا ما هو –الذي تسعى إليه–؟، فقال (**عِلمٌ بأوصَافِ الإلَهِ وَفِعلِهِ وَكَذَلِكَ الأسمَاءُ للدّيــانِ**)، هٰــذه شملت التوحيد؛ توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

ثم قال العلم الثاني ما هو؟ قال: (**وَالأمرُ وَالنَّهيُ الذي هُوَ دِينُهُ**) يعني الفقه؛ الأمر والنهي، الأحكام؛ الحلال والحـرام، هٰذا مأمور به، وهٰذا منهي عنه، هٰذا افعله، وذاك لا تفعله، هٰذا النوع الثاني من العلم النافع.

والثالث (**وَجَزَاؤهُ يَومَ المَعَادِ الثَّانِي**) الذي هو العلم بما يكون يوم القيامة، ووسائل ذلك.

الشيخ رحمه الله تَعَالىٰ يقول: (**العلمُ قبلَ القولِ والعملِ**)، نعم، وصدق رحمه الله، فالعلم إذا كان قبل القول والعمـل بورك لصاحبه في القليل، وإن كان العملُ و القول قبل العلم ربما كانت الأعمال و الأقوال جبالا، ولكنها ليست علـى سبيل نجاة.

ولهٰذا روى الإمام أحمد في الزهد وأبو نعيم وجماعة عن أبي الدّرداء أنه قال: **يا حبذا نوْمُ الأكياس وإفطارُهم، كيـف يَغبِنُون سهرَ الحمقى وصومَهم، ولمثقال ذرّة مع برٍّ ويقين أعظم عند الله من أمثال الجبال عبادةً من المغترّين**. يقـول: (**يا حبذا**) ، يعني يتمنى (**نوم الأكياس**) ، الأكياس من؟ (**إن لله عبادا فطنا**) هؤلاء هم الأكياس الذين حيـوا؛ قلـوبهم صحيحة، عقولهم صحيحة، يقول يا حبذا نوم الأكياس؛ أهل العلم، وإفطارهم، نـاموا، والحمقـى –علـى كـلام أبي الدرداء– سهروا ليلهم في صلاة، لكن هؤلاء لا يستوون عند أبي الدرداء مع أولئك؛ لأن أولئك عبدوا الله جل وعلا على جهل، وهؤلاء عبدوا الله بعبادات قليلة، ولكنها مع علم وبصيرة فكانوا أعظم أجرا، بحيث قال أبو الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **ولمثقال ذرة مع برّ ويقين أعظم من أمثال الجبال عبادة من المغترين.**

لهٰذا نقول: العلم في غاية الأهمية، العلم في غاية الأهمية، ويُبدأ به قبل كل شيء، خاصة العلم الذي يصـحح العبـادة، يصحح العقيدة، يصحح القلب، ويجعل المرء في حياته يسير على بيِّنة وَفْق سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ليس علـى جهالة.



بسم الله الرحمن الرحيم

[المتن]

اعلمْ رحمكَ اللهُ: أنَّهُ يجبُ على كلِّ مسلم ومسلمة تَعَلُّمُ هٰذه الثلاث مسائل والعملُ بهنَّ:

الأولى: أنَّ اللهَ خَلَقنا ورزَقَنا ولم يتركْنا هملاً؛ بل أرسلَ إلينا رسولاً فمنْ أطاعَهُ دخلَ الجنَّةَ ومنْ عصاهُ دخلَ النّارَ. والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً﴾[المزمل:١٥-١٦].

الثانية: أنَّ اللهَ لا يرضى أن يُشْرك معهُ أحدٌ في عبادته لا مَلَكٌ مُقَرَّب ولا نبيٌّ مُرْسَل والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ للَّه فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّه أَحَدًا﴾[الجن:١٨].

الثالثة: أنَّ مَنْ أطاعَ الرسولَ ووحَّدَ اللهَ لا يجوزُ لهُ مُوالاةُ مَنْ حادَّ اللهَ ورسولَهُ ولو كان أقْرَبَ قريب. والدليلُ قوله تَعَالىٰ: ﴿لا تَجدُ قَوْمًا يُؤْمنُونَ باللَّه وَالْيَوْمِ الآخرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشيرَتَهُمْ أُوْلَئكَ كَتَبَ في قُلُوبِهِمْ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ برُوحٍ منْهُ وَيُدْخلُهُمْ جَنَّات تَجْرِي منْ تَحْتهَا الأَنْهَارُ خَالدينَ فيهَا رَضيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئكَ حزْبُ اللَّه أَلا إنَّ حزْبَ اللَّه هُمْ الْمُفْلحُونَ﴾[المجادلة:٢٢].

[الشرح]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فهٰذه المسائل الثلاث التي ذكرها الشيخ رحمه الله تعالى صلة لما قبلها، وتمهيد لما بعدها، فأعاد وكرر بقوله: (**اعلمْ رحمكَ اللهُ**)، وفي هٰذا ما فيه من التلطف بالمتعلمين، (**اعلمْ أنَّهُ يجبُ على كلِّ مسلم ومسلمة تَعَلُّمُ هٰذه الثلاث مسائل**) مع المسائل الأربع التي سبقت، وهٰذه المسائل يجب أن يتعلّمها كل مسلم وكل مسلمة؛ لأنّ فيها بيان أصل الدين وقاعدة الدين.

الأولى من تلكم المسائل: أن الله جل جلاله خلق الخلق لغاية، لم يخلقهم لغير غاية، لم يخلقهم سُدا ولا عبثا سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ عمّا يصفون، بل إنّما خلق الخلق لغاية، قال جل وعلا: ﴿**الَّذي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ليَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾[الملك:٢]، وقال جل وعلا: ﴿**أَفَحَسبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا**﴾[المؤمنون:١١٥]، يعني لغير غاية ولغير حكمة ﴿**وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ**﴾[المؤمنون:١١٥]، وأنه لن يكون بعْثٌ بعد خلقكم، وأنه لن يكون إرجاع لكم إلى من خلقكم، هٰذا فيه قدح، هٰذا الظن فيه قدح في حكمة الله جل وعلا، لذلك قال جل وعلا بعدها: ﴿**فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلكُ الْحَقُّ**﴾[1] تَعَالىٰ عما يصفه به المبطلون، تَعَالىٰ عما يظنه عليه الجاهلون القادحون في حكمته.

---

[1] سورة : طه الآية (١١٤)، المؤمنون الآية (١١٦).

فإذن الخلق مخلوقون لغاية، ما هٰذه الغاية؟ هي ما بيّنها في قوله جل وعلا: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** (٥٦) **مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ** (٥٧) **إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**﴾[الذاريات:٥٦-٥٨]، الله جل وعلا ما خلق الجن والإنس إلا لغاية واحدة وهي الابتلاء؛ ﴿**لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾[1] الاختبار، اختبار في أي شيء؟ في عبادته: هل يعبد وحده لا شريك له أم يتخذ[2] المخلوق هٰذا آلهة أخرى مع الله جل وعلا؟ وهٰذه مسألة ولا شك عظيمة.

الإنسان خُلق لهٰذه الغاية؛ لكن يحتاج إلى من يُبَصِّره بهٰذه الغاية، ويعلّمه القصد من خلقه، ويعلمه كيف يصل إلى عبادة ربِّه على الوجه الذي يرضى به اللهُ جل وعلا عنه، فبعث الله جل وعلا رسلاً مبشرين ومنذرين يدلُّون الخلق إلى وعلى خالقهم، يعرِّفونهم بمن يستحق العبادة وحده، ويعرِّفونهم بالطريق التي أذنَ من خلقهم أن يعبدوه بها؛ قال جل وعلا لنبينا محمد عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا**﴾[سبإ:٢٨]، وقال جل وعلا: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً**﴾[المزمل:١٥]، فكلٌّ أمة قد خلا فيها نذير، كما قال جل وعلا: ﴿**وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلا فِيهَا نَذِيرٌ**﴾[فاطر:٢٤]، نذير ينذرهم ويبشّرهم؛ يَبَشِّر من أطاع وينذر من النار، ويخوّف من النار ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾[النحل:٣٦]، فثبت بهٰذه النصوص أنّ الله جل وعلا لم يترك الخلق وشأنهم بعد أن خلَقَهم، بل بعث لهم رُسلا يعلمونهم ويهدونهم ويبصّرونهم الطريق التي يرضى اللهُ جل وعلا بها أن يعبدوه بها دونما سواها من الطرق الموصلة، وتلكم الطريق طريق واحدة، ليست بطرق متعددة كما قال جل وعلا: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾[الفاتحة:٦] فهو صراط واحد، وهناك صُرُط أخرى، هي صُرط أهل الضلال والجهل والغواية، والهوى أما الطريق الموصلة إلى الله جل وعلا فهو طريق المرسلين الذي جاءوا به من عند الله جل وعلا؛ وهو دين الإسلام العام، كما قال جل وعلا: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ**﴾[آل عمران:١٩]، استسلام لله جل وعلا بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله.

الرسل بيّنوا للناس هٰذه الغاية، ودلُّوهم على عبادة الله جل وعلا وحده دون ما سواه، فقامت العداوةُ بين الرسل وبين أقوامهم في هٰذا الأصل؛ حيث إنّ الخلق يريدون أن يعبدوا الله جل وعلا بالطريقة التي يُحبون لا بالطريقة التي يُحبُّها الله جل وعلا.

ولهٰذا قال بعض أئمة السلف: **ليس الشأن أن تُحبّ ولكن الشّأن أن تُحَب**. ليس الشأن أن تحب الله، فإنّ محبة الله جل وعلا يدّعيها المشركون، يدعيها الضالون، كل قوم بُعثت إليهم الرسل يدعون أنهم يريدون وجه الله، يريدون ما عند الله، يحبونه، ربما يتصدقون ويُصَلُّون ويدعون ويَصلُون ويتقربون، وما فعل أهل الجاهلية -جاهلية العرب- منَّا ببعيد، لكن ليس الشأن أن يُحب المحبُّ ربَّه، ولكن الشأن أن يُحب العبدَ ربُّه؛ الشأن أن يحب اللهُ جل وعلا العبدَ، متى يكون ذلك؟

---

[1] سورة: الملك الآية (٢)، هود الآية (٧).

[2] انتهى الشريط الأول.

لابد أن يبحث العبد عن سبيل محبة الله جل وعلا له، هٰذا السبيلُ بيَّنه الله جل وعلا في قوله: ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ**﴾ زعمًا ﴿**فَاتَّبِعُونِي**﴾ طاعةً ﴿**يُحْبِبْكُمْ اللَّهُ**﴾[آل عمران:٣١].

فإذن سبيل محبة الله للعبد هي طاعة الرّسل واتّباع الرسل وخاتم المرسلين نبينا محمد ﷺ الذي ببعثته وبرسالته نُسخت جميع الرِّسالات ونسخت جميع الكتب من قبله عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ.

فبقيَ للناس طريق واحد يصلون به إلى ربهم جل وعلا؛ ألا وهو طريق محمد عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، إذ هو الواسطة العملية للاتباع؛ لاتباعه للوصول إلى الله جل وعلا، فمن اتّبع واهتدى بغير هدي النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، هٰذا النبي الخاتَم، فهو من الضّالين الذين تنكَّبوا سبيل الحق.

هٰذا الأصل الأول، وهٰذه المسألة الأولى عظيمة جدّا؛ لأنها إذا استقرت في قلب العبد قادته إلى كل خير، يعلم أنّه ما خُلق إلا لغاية.

ما هٰذه الغاية؟ هي عبادة الله وحده دون ما سواه.

كيف أعرف طرق هٰذه العبادة؟ باتباع النّبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ.

فتلخّص الدّين في هٰذه المسألة العظيمة، وما أحسن قول شمس الدين ابن القيم في نونيته بعد أبيات قال:

فَلِوَاحِدٍ كُنْ وَاحِداً فِي وَاحِدٍ   أعنِي سَبِيلَ الحَقِّ وَالإِيمَانِ

(**لواحد**) لله جل وعلا وحده دون ما سواه، (**كن واحدا**) في قصدك وإرادتك وتوجهك وطلبك، (**في واحد**) في طريق واحد، قال بعدها: (**أعنِي سَبِيلَ الحَقِّ وَالإِيمَانِ**) الذي هو سبيل النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ.

المسألة الثانية: أن الله جل وعلا لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، بل كلٌّ عبيد لله جل وعلا.

الله جلّ وعلا إنما يرضى التوحيد، يرضى أن يُعبد وحده دون ما سواه.

فمن أشرك مع الله جل وعلا إلٰها آخر فقد نقض الغاية العملية التي كُلِّف بها مِنْ خلقه ومن إيجاده؛ قال جل وعلا: ﴿**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا**﴾[الجن:١٨]، ﴿**فَلا تَدْعُوا**﴾ دعاء مسألة ودعاء عبادة مع الله أحدا.

المساجد يُفعل فيها شيئان:

- سؤال الله جل وعلا، دعاء الله جل وعلا **دعاء المسألة**، هٰذا نوع.
- والثاني **عبادة الله** جل وعلا بأنواع العبادات من الصلاة -الفرض والنفل-، ومن التلاوة، ومن الذكر، ومن التعلم والتعليم، ونحو ذلك.

قال جل وعلا: ﴿**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ**﴾، ﴿**الْمَسَاجِدَ**﴾ أُقيمت لله جل وعلا؛ لعبادته وحده دون ما سواه، ﴿**فَلا تَدْعُوا**﴾ دعاء مسألة أحدا غير الله، ولا تدعوا دعاء عبادة أحدا غير الله، وكما أن المصلي لا يصلي إلا لله، فكذلك في المسجد وفي غيره، فلا يسأل ولا يدعو إلا الله جل وعلا.

دعاء **المسألة:** هو الذي يسميه العامّة أو يسمِّيه الناس الدعاء، وهو المقصود به، إذا قيل دعا فلان يعني سأل به الله جل وعلا قال: اللهم اعطني، اللهم قني، اللهم اغفر لي. ونحو ذلك، هٰذا يسمى دعاء المسألة.

أمَّا دعاء **العبادة**: فهو العبادة نفسُها؛ لأنّ المتعبد لله جل وعلا بصلاة أو بذكر هو سائل لله جل وعلا؛ لأنه إنما عبد وصلى، أو صام، أو زكى، أو ذكر، أو تلا، رغبةً في الأجر، كأنه سأل الله جل وعلا الثواب.

لهٰذا يُقال الدعاء قسمان: دعاء مسألة ودعاء عبادة، قال جل وعلا: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾[غافر:٦٠]، فقال في أول الآية: ﴿**ادْعُونِي**﴾، وقال في آخرها: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي**﴾ فدلّ على أن الدعاء عبادة، أو هو العبادة.

ولهٰذا فسّر السلف قوله: ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ الاستجابة هنا فُسِّرت بتفسيرين:

- ﴿**أَسْتَجِبْ**﴾ بمعنى أُعطِكم ما سألتم.
- أو أُثِبْكُم؛ أدعوني أُثبكم.

إذا كانت في هٰذا التقدير (أدعوني أثبكم) بهٰذا المعنى فيكون الدعاء هنا الدعاء بمعنى العبادة، لأنها هي التي يتعلق بها الثواب.

وإذا كانت الإستجابة هنا بمعنى إعطاء السُّول يكون الدعاء هنا دعاء مسألة.

وهٰذه المسألة مقررة تقريرا واضحا في كتب أهل العلم؛ ألا وهي أن قوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا**﴾، أنه يشمل نوعي الدعاء؛ دعاء المسألة ودعاء العبادة.

وقد جاء في الحديث الصحيح عن النعمان بن بشير أن النبي ﷺ قال: «**الدعاء هو العبادة**»،[1] وفي معناه ما جاء عن أنس مرفوعا «**الدعاء مخ العبادة**».[2]

الله جل وعلا لا يرضى أن يُشرك معه أحد، قد يُتوهَّم أن المخلوق إذا بلغ إلى غاية عظيمة أنَّه يمكن أن يُوصل إلى الله جل وعلا باتّخاذه واسطة، باتّخاذه وسيلة، وأعلى المخلوقات مقاما عند الخلق: الملائكة والرّسل والأنبياء، لهٰذا نفى الشيخ رحمه الله تَعَالىٰ هذين فقال: (**الله** –جل وعلا– **لا يرضى أن يُشْرك معهُ أحدٌ في عبادته لا مَلَكٌ مُقَرَّب ولا نبيٌّ مُرْسَل**)، (**لا مَلَكٌ مُقَرَّب**) حتى ولو كان جبريل الذي هو سيّد الملائكة وأشرفهم وأعظمهم. (**ولا نبيٌّ مُرْسَل**) حتى النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ.

دليل ذلك ﴿**فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا**﴾، وجه الاستدلال أنّ ﴿**أَحَدًا**﴾ نكرة جاءت في سياق النفي، وقد تقرّر أن النكرات إذا أتت في سياق النّفي، أو النهي، أو الشّرط، أو الاستفهام، فإنّها تعُم. قال: ﴿**فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا**﴾ يدخل في ﴿**أَحَدًا**﴾ الملائكة، ويدخل فيه الأنبياء.

---

(١) **سنن أبي داوود**: كتاب الصلاة، كتاب الدعاء، حديث رقم (١٤٧٩).

سنن الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب (ومن سورة البقرة)، حديث رقم (٢٩٦٩).

سنن ابن ماجه: كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، حديث رقم (٣٨٢٨).

قال الشيخ الألباني: صحيح.

(٢)**سنن الترمذي**: كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الدعاء، حديث رقم (٣٣٧٠). قال الترمذي: هٰذا حديث غريب من هٰذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة، قال الشيخ اللباني: ضعيف بهٰذا اللفظ.

هٰذا الأصل يجب على كل مسلم ومسلمة أن يعلمه علما يقينيا لاشك فيه ولا شبهة، بدليله وهو قوله: ﴿**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا**﴾، فلا يَخْطُر على قلب المسلم أو المسلمة أنه يمكن أن يدعو غير الله، أو أن يستغيث بغير الله، أو أن يتوجه إلى غير الله، بأي نوع من أنواع العبادات، حتى ولو كان المتوجه إليه ملَك مقرّب، أو نبي مرسل.

ومن المتقرر أن ثَمَّ فرقا بين النّبي والرسول؛ فليس كل نبيّ رسولا، بينما كل رسول نبي، وقول الشيخ هنا: (**ولا نبيٌّ مُرْسَل**)؛ لأن الرسالة أرفع درجة من النبوة. والفرق بينهما أن:

النّبي: هو من أوحي إليه بشرع، وأُمر بتبليغه إلى قوم موافقين له، أو لم يؤمر بالتبليغ.

والرّسول: هو من أوحي إليه بشرع، أو كتاب، وأُمر بتبليغه إلى قوم مخالفين.

فإذن النبي مرسل، وقد يكون مرسلا إلى نفسه، لكنه ليس بالرسول بالمعنى الأخص.

وبهٰذا يتضح المقام، وذلك لقول الله تَعَالىٰ: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ**﴾[الحج:٥٢]، فأثبت أن الرسول مُرسل، وأن النبي أيضا يقع عليه الإرسال قال: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ**﴾، الرسول يقع عليه الإرسال، ﴿**وَلا نَبِيٍّ**﴾ أيضا النبي يقع عليه الإرسال، يعني يؤمر أن يبلغ ذلك، لمن؟ لمن يوافقه هٰذا النبي، مثل أنبياء بني إسرائيل إذا مات فيهم نبي؛ خلَفَه نبي يبلّغ من يوافقه في عقيدته، من يوافقه في إتباعه لشريعة النبي؛ الرسول الذي قبله، إذا بلَّغ موافقا، وكان هٰذا التبليغ مأمورا به من الله جل وعلا، ومعه شرع، أو بعضُ شرع، فإن هٰذا نبي. وقد لا يكون مأمورا بتبليغه إلى قوم موافقين، فقد يُبَلِّغ نفسَه، وعلى هٰذا يُحمل بأحد تفاسير أو شروح العلماء، ما جاء في الحديث «**أنّ النبي يأتي يوم القيامة وليس معه أحد**»[1] قد يكون لأنه لم يُستجب له، وقد يكون بأنه إنما أُمِر أو أوحي إليه لنفسه لا لغيره.

المسألة الثالثة: أن من وحّد الله وأطاع الرسول واتبع دين الإسلام لا يجوز له أن يُوالي من حادّ اللهَ ورسولَه، ولو كان أقرب قريب، لا يجوز له أن يوالي من حادّ الله ورسوله، ولو كان ذلك أباه أو أمّه أو أخاه أو أخته أو قريبه، وذلك لقول الله تَعَالىٰ: ﴿**لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ**﴾[المجادلة:٢٢] إلى آخر الآية، وقال جلّ وعلا: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾[التوبة:٢٣]، وقال جل وعلا: ﴿**وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ**﴾[المائدة:٥١] لمـّا ذكر اليهود والنصارى.

فأصل الدّين الذي هو مِنْ معنى كلمة التوحيد الولاء والبراء؛ الولاء للمؤمنين وللإيمان، والبراءة من المشركين والشرك، ولهٰذا يُعرِّف علماؤُنا الإسلام بأنّه: **الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشّرك وأهله.**

---

(١) **البخاري:** كتاب الطب، باب من لم يرق، حديث رقم (٥٧٥٢).

مسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، حديث رقم (٢٢٠).

وههنا تنبيه أنها في بعض نسخ كتاب الشيخ أنه عرّف الإسلام بهذا وقال في آخره (**والخُلوصُ مِنَ الشِّركِ وأهلِه**)، والمعروف عنه في النسخ الصحيحة التي قُرأت على العلماء (**البراءَة منَ الشِّركِ وأهله**)؛ لأن البراءة تشمَل الخلوص وزيادة، وهي الموافقة لقول الله جل وعلا: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ**(٢٦)**إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي**﴾[الزخرف:٢٦-٢٧].

هنا قال: لا يجوز لمن وحد الله، وأطاع الرسول، واتبع دين الإسلام، أن يوالي أحدا من المشركين. (**الموالاة**) معناها أن تتخذه وليا، وأصلُها من الوَلاية، والوَلاية هي المحبة، قال جل وعلا ﴿**هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ**﴾[الكهف:٤٤]، يعني هنالك المحبة والمودّة والنُّصرة لله الحق، فأصْل الموالاة المحبة والمودّة، ولهٰذا استدل بقوله: ﴿**لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ**﴾[المجادلة:٢٢]، ففسَّر الموالاة بأنها المُوَادّة، وهٰذا معناه أن أصل الموالاة في القلب، وهو محبّة الشرك أو محبّة أهل الشرك والكفر.

فأصل الدين أنّ من دخل في (**لا إله إلا الله**) فإنه يحب هٰذه الكلمة وما دلت عليه من التوحيد، ويحب أهلها، ويُبغِض الشّرك المناقض لهٰذه الكلمة، ويبغض أهله.

فكلمة الولاء والبراء هي معنى الموالاة والمعاداة، وهي بمعنى الحب والبغض، فإذا قيل: الولاء والبراء في الله، هو بمعنى الحب والبُغض في الله، وهو بمعنى الموالاة والمعاداة في الله؛ ثلاثةٌ بمعنىً واحد، فأصله القلب؛ محبة القلب.

إذا أحبَّ القلبُ الشرك صار مواليا للشرك، إذا أحبّ القلبُ أهلَ الشرك صار مواليا لأهل الشرك.

كذلك إذا أحبّ القلبُ الإيمان صار مواليا للإيمان، إذا أحبّ القلبُ اللهَ صار مواليا لله، إذا أحبّ القلبُ الرسول صار وليا ومواليا للرسول ﷺ، وإذا أحبّ القلبُ المؤمنين صار مواليا ووليا للمؤمنين؛ قال جل وعلا ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ** (٥٥) **وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمْ الْغَالِبُونَ**﴾[المائدة:٥٥-٥٦]، يعني من يحب وينصر اللهَ ورسولَه والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون.

الموالاة؛ موالاة المشركين والكفار محرّمة وكبيرة من الكبائر، وقد تصل بصاحبها إلى الكفر والشرك، ولهٰذا ضبطها العلماء بأن قالوا: تنقسم المولاة إلى قسمين:

الأول: التولِّي.

والثاني: الموالاة.

الموالاة باسمها العام تنقسم: إلى التولي وإلى موالاة.

أما **التولِّي** فهو الذي جاء في قوله تَعَالَىٰ: ﴿**وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ**﴾[المائدة:٥١]، تولاه توليا؛ التولي معناه محبة الشرك وأهل الشرك، محبة الكفر وأهل الكفر، أو نصرة الكفار على أهل الإيمان، قاصدا ظهور الكفر على الإسلام، بهٰذا الضابط يتّضح معنى التولي.

والتولي –كما ذكرتُ لكم– تولِّي الكفار والمشركين كفر أكبر، وإذا كان من مسلم فهي ردة.

ما معنى التولّي؟ معناه محبة الشرك وأهل الشرك (لاحظ الواو)؛ يعني يحبّ الشرك وأهل الشرك جميعا مجتمعة، أو أن لا يحب الشرك ولكن ينصرُ المشركَ على المسلم قاصدا ظهور الشرك على الإسلام، هٰذا الكفر الأكبر الذي إذا فعله مسلم صار رِدَّة في حقه والعياذ بالله.

القسم الثاني **الموالاة**: والموالاة المحرّمة من جنس محبة المشركين والكفار، لأجل دنياهم، أو لأجل قراباتهم، أو لنحو ذلك، وضابطه أن تكون محبة أهل الشّرك لأجل الدنيا، ولا يكون معها نصرة؛ لأنه إذا كان معها نصرة على مسلم بقصد ظهور الشرك على الإسلام صار توليا، وهو في القسم المُكَفِّر، فإن أحب المشرك والكافر لدنيا، وصار معه نوع موالاة معه لأجل الدنيا، فهٰذا محرم ومعصية، وليس كفرا.

دليل ذلك قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ**﴾[الممتحنة:١]، قال علماؤنا رحمهم الله تعالى: **أثبت الله جل وعلا في هٰذه الآية أنه حصل ممن ناداهم باسم الإيمان اتّخاذ المشركين والكفار أولياء بإلقاء المودة لهم.**

وذلك كما جاء في الصحيحين وفي التفسير في قصة حاطب المعروفة حيث إنه أرسل بخبر رسول الله ﷺ -وهٰذه عظيمة من العظائم- للمشركين لكي يأخذوا حِذْرهم من رسول الله ﷺ، فلما كُشفَ الأمر، قال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ للنبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: يا رسول الله دعني أضرب عنقَ هٰذا المنافق. قال النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ لعمر: «**أتركه يا عمر، يا حاطب ما حملك على هٰذا؟**» فدل على اعتبار القصد؛ لأنه إن كان قصد ظهور الشرك على الإسلام وظهور المشركين على المسلمين، فهٰذا يكون نفاقا وكفرا، وإن كان له مقصد آخر فله حكمه. قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ -مستبينا الأمر-: «**ما حملك يا حاطب على هٰذا؟**» قال: يا رسول الله، والله ما حملني على هٰذا محبة الشرك وكراهة الإسلام؛ ولكن ما من أحد من أصحابك إلا وله يد يحمي بها ماله في مكة، وليس لي يدٌ أحمي بها مالي في مكة، فأردتُ أن يكون لي بذلك يد أحمي بها مالي في مكة. فقال النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**صدقكم.**» الله جل وعلا قال في بيان ما فعل حاطب ﴿**وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾[الممتحنة:١]، يعني حاطبا، ففعْلُه ضلال. وما منع النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ من إرسال عمر أو ترك عمر إلا أنّ حاطبا لم يخرج من الإسلام بما فعل، ولهٰذا جاء في رواية أخرى قال: «**إن الله اطلع على أهل بدر، فقال: افعلوا ما شئتم لقد غَفَرْتُ لكم**».[1] قال العلماء: لعلمه جل وعلا بأنهم يموتون ويبقون على الإسلام.

دلت هٰذه الآية وهي قوله تَعَالىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ**﴾[الممتحنة:١]، مع بيان سبب نزولها من قصة حاطب، أنّ إلقاء المودة للكافر لا يسلب اسم الإيمان؛ لأنّ الله ناداهم باسم الإيمان، فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ مع إثباته جل وعلا أنهم ألقَوا المودّة.

---

(١) **البخاري**: كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس، حديث رقم (٣٠٠٧).
مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل اهل بدر رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وقصة حاطب بن أبي بلتعة، حديث رقم (٢٤٩٤).

ولهٰذا استفاد العلماء من هٰذه الآية، ومن آية سورة المائدة ﴿**وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ**﴾[المائدة:٥١]، ومن آية المجادلة التي ساقها الشيخ ﴿**لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾[المجادلة:٢٢]، إلى أنَّ الموالاة تنقسم إلى تولٍّ وموالاة؛ الموالاة –الاسم العام– منه تولٍ وهو المُكَفِّر بالضابط الذي ذكرتُه لك، ومنه موالاة وهو نوع مودة لأجل الدنيا ونحو ذلك.

والواجب أن يكون المؤمن محبا لله جل وعلا ولرسوله وللمؤمنين، وأن لا يكون في قلبه مودة للكفار ولو كان لأمور الدنيا، إذا عَامَلَ المشركين أو عَامَلَ الكفار في أمور الدنيا، إنما تكون معاملة ظاهرة بدون ميل القلب، ولا محبة القلب، لِمَ؟ لأنّ المشرك حمل قلبا فيه مسبَّةُ الله جل وعلا، لأن المشرك سابٌّ لله جل وعلا بفعله، إذْ اتخذ مع الله جل وعلا إلٰها آخر، والمؤمن متولٍّ لله جل وعلا ولرسوله وللذين آمنوا، فلا يمكن أن يكون في قلبه مُوادَّة لمشرك حمل الشرك والعياذ بالله.

هٰذه الثلاث مسائل من المهمَّات العظيمات:

الأولى: أن يعلم المرء الغاية من خلقه، وإذا علم الغاية، أن يعلم الطريق الموصلة لانفاذ هٰذه الغاية.

الثانية: يعلم أنّ الطريق واحدة، وأن الله جل وعلا لا يرضى الشرك به، حتى بالمقرّبين عنده، والذين لهم المقامات العالية عنده جل وعلا، لا يرضى أن يُشرك معه أحد.

الثالثة: أن لا يكون في قلب الموحِّد –الذي وحَّد الله، وأطاع الرسول، وخلص من الشرك– أن لا يكون في قلبه محبة للمشركين.

هٰذه الثلاث هي أصول الإسلام بأَحد الاعتبارات.

أسأل الله جل وعلا أن يجعلني وإياكم ممن تحققوا بها قولا وعملا واعتقادا وانقيادا. نعم

❦❦◈❧❧

[المتن]

اعلَمْ –أرشدَكَ اللهُ لطاعته– أنَّ الحنيفيةَ: ملّةَ إبراهيمَ، أنْ تعبدَ اللهَ وحدَهُ مخلصًا له الدِّين، وبذلك أَمَرَ اللهُ جميعَ الناس وخلَقهم لها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]، **ومعنى ﴿يَعْبُدُونِ﴾ يوحِّدون وأعظمُ ما أَمرَ اللهُ به التوحيدَ وهو: إفرادُ الله بالعبادة وأعظمُ ما نهى عنه الشركُ؛ وهو دعوةُ غيرِه معهُ والدليل قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾**[النساء:٣٦].

[الشرح]

هٰذا فيه تلطّف ثالث منه رحمه الله تَعَالىٰ؛ حيث دعا للمتعلم بقوله (**اعلَمْ أرشدَكَ اللهُ**)، وهٰذا الذي ينبغي على المعلمين أن يكونوا متلطفين بالمتعلمين؛ لأنّ التلطف والتعامل معهم بأحسن ما يجد المعلِّم هٰذا يجعل قلبَ المتعلم قابلا للعلم، مُنفتحا له، مُقبلا عليه.

فيقول: (**أنَّ الحنيفيةَ: ملَّةَ إبراهيمَ عليه السلام**) هي التي أمر الله جل وعلا نبيه، وأمر الناس أن يكونوا عليها، قال جل وعلا: ﴿**ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**﴾[النحل:١٢٣]، وملّة إبراهيم هي التّوحيد؛ لأنه هو الذي

تركه فيمن بعده؛ حيث قال جل وعلا: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ** (٢٦) **إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ**﴾[الزّخرف:٢٦-٢٧]، هٰذه الكلمة ﴿**إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي**﴾ اشتملت على نفيٍ في الشق الأول، وعلى إثبات في الشق الثاني، ﴿**إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ**﴾ البراءة نفيٌ أليس كذلك؟، ثم أثبت فقال: ﴿**إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي**﴾ فتبرأ من المعبودات المختلفة، وأثبت أنه عابد للذي فطره وحده.

وهٰذا هو معنى كلمة التوحيد، ولهٰذا قال جل وعلا بعدها: ﴿**وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾[الزخرف:٢٨]، يعني لعلهم يرجعون إليها، وعقب إبراهيم عليه السلام منهم العرب، أليس كذلك؟ ومنهم أتباع الأنبياء، فهو أبو الأنبياء، ومعنى ذلك، أنه أبٌ لأقوام الأنبياء، ﴿**جَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ إليها، وهٰذه الكلمة هي كلمة التوحيد (**لا إله إلا الله**)؛ لأن التوحيد هو ملّة إبراهيم، (**لا إله إلا الله**) معناها ما قال إبراهيم عليه السلام ﴿**إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ** (٢٦) **إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي**﴾، فـ(**لا إله**) مشتملة على البراءة من كل إله عُبد، و(**إلا الله**) إثبات للعبادة؛ إثبات لعبادة الله جل وعلا وحده دونما سواه.

ولهٰذا يقول العلماء: (**لا إله إلا الله**) معناها لا معبود حقٌّ أو بحق إلا الله.

معنى ذلك أن كل المعبودات إنما عُبدت بغير الحق، قال جل وعلا: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**﴾[الحج:٦٢]، ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ**﴾، ولكونه جل وعلا هو الحقّ كانت عبادته وحده دون ما سواه هي الحقّ، قال: (**لا إلـٰه**)، لا إلـٰه بحقٍّ، لا معبود بحقٍّ، لكن ثَم معبودات بغير الحق، ثَمَّ معبودات بالباطل، ثمَّ معبودات بالبغي والظلم والعدوان، لكن المعبود بحقّ يُنفى عن جميع الآلهة إلا الله جل وعلا فإنه هو وحده المعبود بحقّ.

هٰذه الكلمة هي التي ألقاها إبراهيم عليه السلام في عقبه، وهٰذا مراد الشيخ رحمه الله تعالى بما ذَكر، وبَيَّن أن أعظم الواجبات، أعظم ما أَمر به إبراهيمُ الخليل عليه السلام، وما أَمر به النبيُّ ﷺ التوحيد، وأعظم ما نهى عنه الشرك.

ومعنى ذلك أن أعظم دعوة الأنبياء والمرسلين من إبراهيم عليه السلام؛ بل من نوح عليه السلام إلى نبينا محمد ﷺ، أعظم ما يُدعا إليه بالأمر هو الأمر بتوحيد الله جل وعلا، وأعظم ما ينهى عنه ويؤمر الناس بتركه هو الشرك، فأعظم ما أمر به التوحيد، وأعظم ما نهى عنه الشرك، لم؟ لأن التوحيد هو حق الله جل وعلا، ومن أجْله بُعثت الرسل، ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾[النحل:٣٦]، فالغاية من بعث الرسل أن تُبيِّن للناس وأن تقول للناس: أعبدوا الله وحده دونما سواه، هٰذا الأمر، ﴿**وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾ يعني أتركوا الشرك ومظاهر الشرك.

فإذن أعظم مأمور به هو التوحيد، أعظم ما دعا إليه الرسل والأنبياء من نوح عليه السلام إلى نبيّنا محمد عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، أعظم ما دُعي إليه من المأمورات التوحيد، وأعظم ما نُهي عنه من المنهيات هو الشرك، لِم؟ لأنّ الغاية من خلق الإنسان هي عبادة الله وحده، فصار الأمر بالتوحيد هو الأمر لهٰذا المخلوق بأن يَعلم وأن يُنْفذَ غاية الله جل وعلا من خلق هٰذا المخلوق.

والنهي عن الشرك معناه النَّهي عن أن يأخذ هٰذا المخلوق بطريقٍ أو بفعل يخالف الغاية من خلقه، وهٰذا ولا شك –كما ترى– يقود إلى فهم التوحيد، وإلى فهم حق الله جل وعلا، وفهم دعوة الحق بأعظم ما يكون الفهم؛ لأنّك تنظر إلى

أن إنفاذ المرءِ ما خُلق من أجله هو أعظم ما يُدعا إليه، ونَهيُ المرء عن ما يصدّه عما خُلق من أجله هٰذا أعظم ما يُنـــهى عنه، ولهٰذا كانت دعوة المصلحين، ودعوات المجدّدين على مرّ العصور بهٰذه الأمة هي في الدعوة إلى التوحيد ولوازمـــه و النهي عن الشرك وذرائعه.

أسأل الله جل وعلا أن يزيدني وإياكم من العلم النافع، وأن يمن علينا بالعمل الصالح وبالفهم والســداد، وصـــلى الله وسلم على نبينا محمد. [1]



[1] انتهى الوجه الأول من الشريط الثاني.

بسم الله الرحمن الرحيم

[المتن]

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثلاثةُ التي يجبُ على الإنسانِ معرفتُها؟ فقُلْ: معرفةُ العبدِ ربَّهُ، ودينَهُ، ونبيَّهُ محمدًا ﷺ.

فإذا قِيلَ لكَ: مَنْ رَبُّكَ؟ فقلْ ربيَّ اللهُ الذي ربّاني وربَّى جميعَ العالمينَ بنعمه، وهو معبودي ليس لي معبودٌ سواهُ، والدليلُ قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1] وكلُّ ما سوى اللهِ عالَمٌ وأنا واحدٌ من ذلكَ العالَمِ.

فإذَا قِيلَ لكَ: بمَ عرفْتَ ربَّك؟ فقُل بآياته ومخلوقاته؛ ومِنْ آياته الليلُ والنهارُ والشمسُ والقمرُ، ومِنْ مخلوقاته السمٰواتُ السَّبْعُ والأَرْضُونَ السَّبع ومَنْ فيهنَّ وما بينهما، والدليلُ قولُه تَعَالىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[فصلت:٣٧]، وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[الأعراف:٥٤].

والرَّبُّ هو المعبودُ، والدليلُ قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢١-٢٢]، قالَ ابنُ كثيرٍ رحِمَهُ اللهُ تعالى: الخالقُ لهٰذه الأشياءِ هو المستحقُّ للعبادة.

[الشرح]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فهٰذا ابتداءٌ من المصنف رحمه الله تَعَالىٰ، ببيان المقصود من تأليف هٰذه الرسالة، وما قبله من المهمات التي هي موطئات لهٰذا المقصود؛ من بيان الواجبات الأربع، ثم الواجبات الثلاث، ثم ما يتصل بذلك.

هٰذه الرسالة صُنفت لبيان الأصول الثلاثة؛ ألا وهي مسائل القبر: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ والجواب عليها في هٰذه الرسالة؛ بل إنّ هٰذه الرِّسالة من هٰذا الموضع إلى آخرها جوابٌ على هٰذه الأسئلة الثلاث.

---

[1] سورة: الفاتحة الآية (٢)، يونس الآية (١٠)، الزمر الآية (٧٥)، غافر الآية (٦٥).

فمن كان عالما بما في هٰذه الرسالة من بيان تلك الأصول العظام، كان حَرِيًّا أن يُثبَّت عند السؤال، ذلك لأنَّها قُرِنت بأدلتها، وقد جاء في الحديث الذي في الصحيح أن من المفتونين في القبر من يقول: ((**هاه، هاه، لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئا فقلته**)).[(١)]

استدل العلماء بقول هٰذا المفتون في قبره (**سمعت الناس يقولون شيئا فقلته**) على أن التقليد لا يصلح في جواب هٰذه المسائل الثلاث؛ جواب (**من ربك؟**) يعني من معبودك؟ جواب (**ما دينك؟**)، جواب (**من نبيك؟**).

ولهٰذا يذكر الشيخ الإمام رحمه الله تعالى بعد كل مسألة مما سيأتي، يذكر الدليل من القرآن.

وقد بيّنا في أول هٰذا الشرح؛ أن المؤمن يخرج من التقليد، ويكون مستدلاً بما يعلمه، ويعتقده من هٰذه المسائل بالحق، إذا علم الدليل عليها مرة في عمره، ثم اعتقد ما دل عليه الدليل، فإن استقام على ذلك حتى موته، فإنه يكون مؤمنا؛ يعني مات على الإيمان؛ لأن استمرار استحضار الدليل والاستدلال لا يُشترط؛ لكن الذي هو واجب أن يكون العبد في معرفته للحق في جواب هٰذه المسائل الثلاث، أن يكون عن دليل واستدلال ولو لمرّة في عمره، ولهٰذا يعلّم الصغار والأطفال عندنا رسالة الأصول الثلاثة الأخرى التي فيها جواب أيضا مع بعض الاستدلال بأقصر مما هنا، يُعلّمون جواب هٰذه المسائل الثلاث، حتى إذا بلغ الغلام أو الجارية، إذا هو قد عرف عن دليل واستدلال.

قال رحمه الله تَعَالىٰ: (**فَإِذَا قِيلَ لَكَ مَا الأُصُولُ الثلاثةُ التي يجبُ على الإنسانِ معرفتُها؟ فقُلْ معرفةُ العبدِ رَبَّهُ، ودينَهُ، ونبيَّهُ محمدًا ﷺ**)، (**معرفةُ العبدِ رَبَّهُ**) يعني معرفة العبد معبوده؛ لأنّ الربوبية في هٰذا المقام يُراد بها العبودية، لم؟ لأنّ الابتلاء للأنبياء والمرسلين لم يقع في معاني الربوبية، ألم ترَ أن الله جل وعلا قال: ﴿**قُلْ مَن يَرْزُقُكُمْ من السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ**﴾ هٰذه مقتضيات الربوبية ﴿**فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ**﴾[يونس:٣١].

المشركون في كل زمان لم يكونوا ينازعون في تَوَحُّدِ الله جل وعلا في ربوبيته، ولهٰذا فسّر العلماء سؤال القبر: من ربك؟ بمن معبودُك؟ لم؟ لأن الابتلاء لم يقع في الربوبية.

وقد سئل الشيخ الإمام رحمه الله تَعَالىٰ عن الفرق بين الربوبية والألوهية في بعض النصوص –في أحد الأسئلة التي وُجِّهت إليه– فكان من جوابه أن قال: هٰذه مسألة عظيمة، وذلك أن الربوبية إذا أُطلقت، أو إذا أفردت فإنه يدخل فيها الألوهية؛ لأن الربوبية تستلزم الألوهية، وتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلهية، والألوهية تتضمَّن الربوبية. لأنّ الموحد لله جل وعلا في ألوهيته هو ضمنا مُقرٌّ بأن الله جل وعلا هو واحد في ربوبيته، ومن أيقن أن الله جل وعلا واحد في ربوبيته استلزم ذلك أن يكون مُقرًّا بأنّ الله جل وعلا واحد في استحقاق العبادة.

ولهٰذا تجد في القرآن أكثر الآيات فيها إلزام المشركين بما أقروا به ألا وهو توحيد الربوبية على ما أنكروه ألا وهو توحيد الإلهية، من مثل قول الله جل وعلا في سورة الزمر: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ**

---

(١) **البخاري**: كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، حديث رقم (١٣٧٤).

مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه..، حديث رقم (٢٨٧٠، ٢٨٧١).

اللَّهُ﴾[١] هٰذا توحيد الربوبية، قال بعدها: ﴿**قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِي اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾[الزمر:٣٨]، قال: ﴿**قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ**﴾ والفاء هنا رتّبت ما بعدها على ما قبلها؛ وما قبلها هو توحيد الربوبية وما بعدها هو توحيد الإلهية، ولهٰذا في القرآن يَكثُر أن يُحتج على المشركين بإقرارهم بتوحيد الربوبية على ما أنكروه ألا وهو توحيد الإلهية، لهٰذا قال جل وعلا: ﴿**وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾[آل عمران:٨٠]، المعنى بـ﴿**أَرْبَابًا**﴾ أي معبودين، وكذلك قوله تعالى: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾[التوبة:٣١]، يعني معبودين لأنّ عَدي ابن حاتم لما قال للنبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: إنا لم نعبدهم. ففهم من معنى الربوبية في الآية معنى العبادة، وهٰذا هو الذي يفهمه من يعرف اللسان العربي، قال النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ -كما هو معروف-: «**ألم يحلوا لكم الحرام فأحللتموه، ألم يحرِّموا عليكم الحلال فحرمتموه**» قال: بلى. فقال: «**فتلك عبادهم**».[٢]

إذن الربوبية تطلق ويُراد منها العبودية في بعض المواضع، تارة بالاستلزام، وتارة بالقصد. وبعض علمائنا قال: إن لفظ الألوهية والربوبية يمكن أن يُدخل في الألفاظ التي يقال: إنها إذا اجتمعت تفرّقت وإذا تفرّقت اجتمعت. وهٰذا وجيه.

قال الشيخ رحمه الله تَعَالَىٰ هنا: (**فقُلْ: معرفةُ العبدِ ربَّهُ، ودينَهُ، ونبيَّهُ محمدًا ﷺ**) والمعرفة تُرادف العلم في حق المخلوق في أكثر المواضع.

أما في حق الله جل وعلا فإن الله جل وعلا يُوصف بالعلم، ولا يوصف بالمعرفة، وذلك لأنّ العلم قد لا يسبقه جهل، بينما المعرفة يسبقها جهل؛ عَرَف الشيءَ بعد أن كان جاهلاً به؛ لكن العلم قد لا يسبقه جهل به، ولهٰذا يوصف الله جل وعلا بالعلم، ولا يوصف بالمعرفة.

أيضا يقال: إن التعبير بالعلم أوجه في المواضع التي يُحتاج فيها إلى التعبير بالمعرفة، وذلك لأن المعرفة أكثر ما جاءت في القرآن مذمومة لأنه يتبع المعرفة الإنكار، أما العلم فأوتي به في القرآن ممدوحا. قال جل وعلا: ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**﴾[الأنعام:٢٠]، فهنا وصفهم بالمعرفة ثم بين أن معرفتهم تلك لم تنفعهم، وقال جل وعلا: ﴿**يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا**﴾[النحل:٨٣]، لكن العلم أُثني عليه في القرآن، وأما المعرفة فربما بل أكثر المواضع فيها نوعُ ذمٍّ لها.

لكن هٰذا ليس على إطلاقه، لأنه قد جاء في صحيح مسلم بن الحجاج رحمه الله تَعَالَىٰ في بعض طرق حديث ابن عباس الذي فيه إرسال معاذ إلى اليمن، أن النبي ﷺ قال له: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه إلى أن يعرفوا الله، فإن هم عرفوا الله فأخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات**»[٣] إلى آخره، فصارت المعرفة هنا بمعنى العلم بالتوحيد كما في

---

[١] وهي أيضا موجودة في سورة: لقمان الآية (٢٥).

(٢) سنن الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب (من سورة التوبة)، حديث رقم (٣٠٩٥). قال الترمذي: حديث غريب، قال الشيخ الألباني: حسن. أورده شيخ الإسلام في كتاب الفرقان وقال: وفي المسند وصححه الترمذي عن عدي بن حاتم وذكر الحديث، وأيضا أورده الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد، وقال: رواه أحمد والترمذي وحسنه.

(٣) البخاري: كتاب الزكاة: باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، حديث رقم (١٤٥٨).

=

الروايات الأخر، لكن التعبير بالمعرفة كما استعمله الشيخ رحمه الله تعالى هنا صحيح، وذلك لأنه قد ورد الاستعمال بـه، وإن كان أكثر ما جاء استعمال لفظ المعرفة في كونه مذموما.

قال هنا: (**معرفةُ العبدِ ربَّهُ**) يعني معبوده، معرفة العبد (**دينَهُ**)، معرفة العبد (**نبيَّهُ محمدًا** ﷺ)، هٰذه الأصول الثلاثة هي التي سيأتي تفصيلها والجواب عليها.

ثم بدأ يشرح رحمه الله تَعَالىٰ ويفصّل (**معرفةُ العبدِ ربَّهُ**) عن طريق السؤال والجواب، لأن هٰذا أوقع في النفس، وأقرب إلى التعليم.

(**فإذا قِيلَ لكَ: مَنْ رَبُّكَ؟ فقلْ: ربيَّ اللهُ الذي ربّاني وربَّى جميعَ العالمينَ بنعمِه**) لفظ الربوبية فيه معنى التربية، رباه تربية.

ومعنى التربية: تدريج المربى في مصاعد الكمال، كل كمال بحسبه. وأعظم أنواع التربية التي ربى بها الله جل وعلا الناسَ أن بعث لهم الرسل يعلّمونهم ويرشدونهم ما يقربهم إلى الله جل وعلا، وهٰذه هي أعظم نعمة، قال جل وعلا: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**﴾[يونس:٥٨]، فأعظم النّعم المسداة إرسال الرسل، ولهٰذا كان من أنواع التربية التي ربّى بها الله جل وعلا العالمين، ربى بها الله جل وعلا الناس، أن بعث لهم رسلا يبشرون وينذرون.

وهناك أنواع كثيرة من التربية؛ تربية الأجسام، تربية الغرائز، تربية الفكر، تربية العقل، كل هٰذا قد مَنَّ الله جل وعلا على ابن آدم به.

وكذلك إذا نظرت إلى أوسع من ذلك من خَلْق الله جل وعلا الواسع والعالَمون الذين هم كل ما سوى الله جل وعلا، فتجد أن معاني الربوبية والتربية بالنعم والتربية في تدريجها في مدارج الكمال بما يناسبُها، والله جل وعلا أعلم بما يَصلُح ﴿**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ**﴾[القصص:٦٨]، وجدتَ أن معاني الربوبية في هٰذا المعنى الذي هو التربية ظاهرٌ جدا.

أيضا الربوبية لها معنى آخر، وهو الذي سلف من معنى توحيد الربوبية؛ يعني اعتقاد أن الله جل وعلا هو الخالق لهٰذا الخلْق وحده، وهو الرّزّاق وحده، وهو الذي يدبر الأمر، وهو القاهر، وهو ذو الملك، إلى آخر معاني الربوبية.

قال جل وعلا: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ استدل الشيخ بهٰذه الآية ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾، معنى ﴿**الْحَمْدُ**﴾ كلّ حمْد، لأن الألف واللام هنا للاستغراق؛ استغراق أنواع الحمد، فكل حمدٍ موجودٌ، أو وجد، أو يوجد، والحمد معناه الثناء بصفات الكمال، فهٰذا الحمد وهو الثناء بصفات الكمال لله، واللام هنا للاستحقاق يعني مستحَقًّا لله جل وعلا، الحمد لله كلُّ أنواع الحمد وجميع أنواع المحامد مستحقّة لله، لأنّ اللام هنا لام الاستحقاق.

اللام تارة تكون:

- للملك، وهٰذا إذا كان ما قبلها من الأعيان.

=

مسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث رقم (١٩).

- وتارة تكون للاستحقاق، وهي إذا كان ما قبلها من المعاني.

إذا قلت الدار لفلان، الدار عين، فتكون اللام لفلان يعني ملك.

إذا كان ما قبل اللام معنى صارت اللام للاستحقاق، تقول: الفخر لفلان يعني الفخر يستحقه فلان.

﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ**﴾، الحمد معنى لهٰذا صارت اللام بعده للاستحقاق، فكل حمد مستحقّ لله، الإله الذي لا يُعبد بحق إلا هو، هٰذا الإله نعته أنه ربّ العالمين.

﴿**رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ و﴿**الْعَالَمِينَ**﴾ جمع عالَم، والعالَم اسم لأجناس ما يُعلم، وهو كل ما سوى الله جل وعلا، كما قال الشيخ رحمه الله تعالى: (**وكلُّ ما سِوَى اللهِ عالَمٌ وأنا واحدٌ من ذلكَ العالَمِ**) عالم الإنسان، عالم الطير، عالم النّبات، عالم الملائكة، عالم الجن، عالم السمٰوات، عالم الأراضين، عالم الماء، إلى آخره، (**كلُّ ما سِوَى اللهِ عالَمٌ وأنا واحدٌ من ذلكَ العالَمِ**) والعالَمون جمع عالم، والعالم كل ما سوى الله جل وعلا من الأجناس المختلفة.

إذن ما دام أنكَ واحد من ذلك العالم فأول من يخاطب بهٰذه الآية المؤمن، ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ فيستيقن المؤمن بتلاوته لهٰذه الآية ربوبية الله جل وعلا له واستحقاقه للحمد واستحقاقه جل وعلا لكل ثناء ولكل وصْف بالكمالات.

ثم قال رحمه الله: (**فإذَا قِيلَ لكَ: بم عرفْتَ ربَّكَ؟**) الربوبية تحتاج إلى معرفة، تحتاج إلى علم، وهٰذا العلم جاء في القرآن الدِّلالة عليه، قال جل وعلا: ﴿**قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾[يونس:١٠١]، وقال جل وعلا: ﴿**أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ**﴾[الأعراف:١٨٥]، فالدعوة إلى النظر في الملكوت في القرآن، بمَ أستدل على الله جل وعلا على ربوبيته؟ قال الشيخ هنا: (**فإذَا قِيلَ لكَ: بمَ عرفْتَ ربَّكَ؟ فقُلْ بآياتِه ومخلوقاتِه؛ ومِنْ آياتِه الليلُ والنهارُ والشمسُ والقمرُ، ومِنْ مخلوقاتِه السمٰواتُ [والأرض]**)، لا شك أن الليل والنهار والشمس والقمر من آيات الله، كما قال جل وعلا: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ**﴾[فصلت:٣٧]، وكذلك السمٰوات والأرض هي آيات لله جل وعلا، كما قال أبو العتاهية في شعره السائر:

وَفِي كُلِّ شَيءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ واحِدُ

والشيخ رحمه الله هٰهنا فرّق بيْن الآيات والمخلوقات، مع أنه في القرآن ما يثبت أن السمٰوات والأرض من الآيات.

فلِمَ فرَّق؟ الجواب أن تفريق الشيخ رحمه الله تعالى بينهما دقيق جدا، وذلك:

أن **الآيات:** جمع آية، والآية هي البيّنة الواضحة الدالة على المراد، ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾[الشعراء:١٩٠] يعني دلالة بينة واضحة على المراد منها، ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ**﴾[الحجر:٧٥] يعني لَدلالات واضحات بينات على المراد منها.

وهنا ننظر إلى أنه بالنسبة لمن سئل هٰذا السؤال، كون الليل والنهار والشمس والقمر آية أظهر منه عند هٰذا المسؤول أو المجيب من السمٰوات والأرض، لم؟ لأن تلكمُ الأشياء التي وصفت بأنها آيات متغيرة متقلبة، تذهب وتجيء، أما السماء فهو يصبح ويرى السماء، ويصبح ويرى الأرض، فإِلْفُه للسماء وللأرض يحجب عنه كون هٰذه آيات؛ لكن الأشياء المتغيرة التي تذهب وتجيء، هٰذه أظهر في كونها آية.

ولهذا إبراهيم الخليل عليه السلام طلب الاستدلال بالمتغيرات، قال جل وعلا: ﴿**وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هٰذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ**﴾[الأنعام:٧٥-٧٦]، لم؟ لأنه استدل بهٰذه الحركة على الحدوث، استدل بهٰذا التنقل على أنه آية لغيره، فلما رأى القمر بازغا –استدل بالقمر–، فلما رأى الشمس بازغة –استدل بالشمس– لأنها متغيرات، أما السمٰوات والأرض فهي آيات، لكنها في الواقع عند الناظر ليست مما يدل دلالة ظاهرة واضحة على المراد عند مثل المسؤول هٰذا السؤال، مع كونها عند ذوي الفهم وذوي الألباب العالية أنها آيات، كما وصفها الله جل وعلا في كتابه.

فالشمس والقمر والليل والنهار متغيرات تُقبل وتذهب، فهي آيات ودِلالات على الربوبية، وأن هٰذه الأشياء لا يمكن أن تأتي بنفسها، لكن السماء ثابتة، الأرض ثابتة، ينظر إلى هٰذه وهٰذه، وتلك متغيرات والتغير يُثير السؤال، لم ذهب؟ و لم جاء؟ لم أتى الليل؟ و لم أتى النهار؟ لم زاد الليل؟ و لم نقص النهار؟ وهكذا فهي في الدِّلالة أكثر من دِلالة المخلوقات، مع أن في الجميع دَليلاً ودِلالة، لهٰذا قال: (**فإذَا قيلَ لكَ: بِمَ عرفْتَ ربَّك؟ فقُل بآياتِه ومخلوقاتِه**) فالآيات تدل على معرفة الله والعلم بالله.

وكذلك المخلوقات تدل على العلم بالله والمعرفة بالله، لكن ما سمّاه آيات أخص مما سمّاه مخلوقات، وهٰذا جواب اعتراض قد اعترض به بعضهم على الشيخ رحمه الله تَعَالىٰ، في تفريقه بين الآيات والمخلوقات. وتفريقُه رعاية لحال من يُعَلِّم هٰذه الأصول، تفريق دقيق مناسب رحمه الله تَعَالىٰ.

(**والدليلُ قولُه تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾**) يعني مما يدل عليه دلالة واضحة ظاهرة بينة جلية الليل والنهار والشمس والقمر، فإنّ المتأمل إذا تأمل الليل والنهار، وجد هٰذا يدخل في هٰذا، وذاك يدخل في ذاك، وهٰذا يطول وذاك يقصر، علم أن الليل من حيث كونه ليلا، والنهار من حيث كونه نهارا، أنها أشياء لا يمكن أن تأتي بنفسها، بل هي مفعول بها، ظاهر الليل ما هو؟ ذهاب الضوء. والنهار ما هو؟ مجيء الضوء. الشمس أتت بضيائها فصار نهارا، لّما ذهبت الشمس أتى القمر فصار ليل، هٰذا لا شك يدلّ على أن هٰذه الأشياء مفعول بها، وإذا كانت مفعولا بها، فمن الذي فعلها؟ هٰذا السؤال، الجواب عليه سهل ميسور لأكثر الناظرين؛ بل لكل ناظر، ألا أن هٰذه تدل على أنها محدثة، ولابد لها من محدث، وأن محدثها هو الذي خلقها وسيرها على هٰذا النحو الدقيق العجيب، وهو رب العالمين، لهٰذا قال في الآية الأخرى آية الأعراف: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا**﴾[الأعراف:٥٤]، يغشي الليل يجعل الليل غشاء للنهار، يطلبه؛ هٰذا يذهب وهٰذا يطلب الآخر، يجيء مرة يأخذ الليل من النهار، ويجذبه جذبا ويطلبه طلبا حاثا، ومرة النهار يأخذ ويطلب من الليل طلبا حاثا، قال: ﴿**يُغشي**﴾ من المُغشي والمُغشّي؟ هو الله جل وعلا؛ ﴿**يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾[الأعراف:٥٤]، فذكر الربوبية في العالمين بعد ذكر هٰذه الأصناف من الآيات والمخلوقات.

ثم ذكر أن معنى الربوبية هو العبادة والدليل قوله جل وعلا: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ**﴾ وهٰذه الآية فيها أمر وهو أول أمر في القرآن، أول أمر في القرآن الأمر بعبادة الله؛ قال: ﴿**اعْبُدُوا رَبَّكُمْ**﴾ الرب وقعت عليه العبادة لأنه

مفعول به؛ ﴿**اعْبُدُوا رَبَّكُمْ**﴾، فالعابد هم الناس، والمعبود هو الرب، أليس كذلك؟ فتلخص أن الرب هو المعبود؛ لأنه قال: ﴿**اعْبُدُوا رَبَّكُمْ**﴾؛ فالرب مفعول به، ما الذي فُعِل؟ العبادة فصار معبودا، ولهٰذا ساق عن ابن كثير رحمه الله تعالى أن من فعل هٰذه الأشياء هو المستحق للعبادة.

﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** (٢١) **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً...**﴾ إلى آخر الآية، (**قالَ ابنُ كثيرٍ رحِمَهُ اللهُ تعالى: الخالقُ لهٰذه الأشياءِ هو المستحقُّ للعبادة**.) لهٰذا جاء ما بعدها ما بعد الأمر بالعبادة من قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ**﴾ وهو قوله ﴿**الَّذِي خَلَقَكُمْ**﴾ جاء تعليلا لما سبق، لم كان مستحقا للعبادة؟ قال: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ**﴾، كأن سائلا سأل: لم كان مستحقا للعبادة؟ لم أمرنا أن نعبده؟ قال: ﴿**الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(٢١)الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً**﴾ إلى آخره، فهٰذه أشياء من معاني ربوبيته، وقد ذكرنا من قبل أن الربوبية تستلزم الألوهية، وبهٰذا صارت الربوبية هنا في قوله: ﴿**اعْبُدُوا رَبَّكُمْ**﴾ هي العبودية، والرب هو المعبود، والفاعل لتلك الأشياء هو المستحق للعبادة وحده دون ما سواه، لأنه هو وحده الذي خلق، وهو وحده الذي رزق، وهو وحده الذي جعل الأرض فراشا، وهو وحده الذي جعل السماء بناء، وهو وحده الذي أنزل من السماء ماءً، والخلق جميعا لم يعملوا شيئا من ذلك، فالمستحق للعبادة هو الذي فعل وخلق وصنع وبرأ وصوّر وأبدع تلك الأشياء.

[الأسئلة]

س١/ الأخ يسأل سؤالا وجيها وهو أنه جاء في حديث ابن عباس: «**تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة**».[1] وهنا يقول الأخ: وُصف الله بأنه ذو معرفة، وأنه يَعرف.

ج/ وهٰذا فيه نظر لأنه المتقرر في القواعد في الأسماء والصفات؛ أن باب الأفعال أوسع من باب الصفات، وباب الصفات أوسع من باب الأسماء، وباب الأخبار أوسع من باب الأفعال وباب الصفات وباب الأسماء، فقد يطلق ويضاف إلى جل وعلا فعل ولا يضاف إليه الصفة، كما أنه قد يوصف الله جل وعلا بشيء ولا يشتق له من الصفة اسما، ولهٰذا يدخل في هٰذا كثير مما جاء، مثل ما وَصف الله جل وعلا به نفسه في قوله: ﴿**وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ**﴾[الأنفال:٣٠]، يستهزئون والله يستهزئ بهم، ((**إن الله لا يمل حتى تملوا**))،[2] ونحو ذلك مما جاء مقيدا بالفعل، ولم يذكر صفة للاسم، فهٰذا يقال فيه أنه يطلق مقيَّدا، ويمكن أن يحمل عليه حديث ابن عباس هٰذا (**تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة**)، نقول: إن الله جل وعلا يعرف في الشدة من تعرّف إليه في الرخاء، على نحو تلك القاعدة، كما يقال: إن الله جل وعلا يمكر بمن مكر به، يستهزئ بمن استهزأ به، يخادع من خدعه، ولا يقال: إن الله جل وعلا ذو مكر، وذو استهزاء، وذو مخادعة هكذا مطلقا بالصفة، وإنما كما هي القاعدة أن باب الأفعال أوسع من باب الصفات.

---

(١) مسند أحمد (بتحقيق أحمد شاكر): حديث رقم (٢٨٠٤)، قال أحمد شاكر: رواه أحمد عن شيخه عبد الله بن يزيد المقرئ بثلاثة أسانيد أحدها صحيح والآخران منقطعان، ودخل حديث بعضهم في بعض.

(٢) البخاري: كتاب اللباس، باب الجلوس على الحصير حتى تملوا، حديث رقم (٥٨٦١).

مسلم: كتاب صلاة المسافر وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره..، حديث رقم (٧٨٢).

س٢/ أخ يسأل ما الفرق بين الحمد والشكر؟

ج/ هناك فروق كثيرة بين الحمد والشكر، لكن الذي يضبطها:

- أن الحمد هو الثناء باللسان، والثناء على كل جميل.
- وأما الشكر فمورده اللسان والعمل.

فلا يُقال مثلا فلان حمد الله جل وعلا بفعله، بل لابد أن يكون الحمد باللسان، لكن الشكر يمكن أن يكون باللسان ويمكن أن يكون بالعمل، قال جل وعلا: ﴿**أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ**﴾[لقمان:١١٤]، وقال جل وعلا: ﴿**اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا**﴾[سبإ:١٣].

فمن حيث المورد الشكر أعم من الحمد، لأنه يشمل حمد الثناء، والمدح باللسان وبالعمل.

والحمد أخص لأنه لا يكون إلا باللسان.

ومن حيث ما يحمد عليه أو ما يثنى عليه، وما يمدح، فإن الحمد أعم فهٰذا من الأشياء التي يقول فيها العلماء: إن بينهما عموم وخصوص؛ يجتمعان في شيء ويفترقان في شيء آخر.

﴿﴾◊﴿﴾

[المتن]

وأنواعُ العبادةِ التي أَمَرَ اللهُ بها: مثلُ الإسلامِ، والإيمانِ، والإحسانِ؛ ومنهُ الدعاءُ، والخوفُ، والرجاءُ، والتوكلُ، والرغبةُ، والرهبةُ، والخشوعُ، والخَشيةُ، والإنابةُ، والاستعانةُ، والاستعاذةُ، والاستغاثةُ، والذَّبْحُ، والنذرُ، وغيرُ ذلك من العبادةِ التي أمرَ اللهُ بها كلُّها لله تعالى، والدليلُ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[الجن:١٨].

فمَنْ صَرَفَ منها شيئًا لغيرِ الله فهو مشرِكٌ كافرٌ، والدليلُ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾[المؤمنون:١١٧]، وفي الحديث «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ»،[1] والدليلُ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:٦٠].

[الشرح]

لما تقرر أن الرب هو المعبود، كان من المناسب أن تذكر أنواع العبادة التي يعبد الله جل وعلا بها، والتي يجب إفراد الله جل وعلا بها. والعبادة عُرِّفت بعدة تعريفات:

فمنها أنها عرِّفت بأن العبادة: **هي كلُّ ما أُمِرَ به مِنْ غير اقتضاءٍ عقليٍّ ولا اطِّرادٍ عُرفيٍّ**.

وهٰذا هو تعريف الأصوليين في كتبهم، ومعنى ذلك أن الشيء الذي أُمر به من غير أن يقتضي العقل المجرد الأمر به، ومن غير أن يَطَّرِدَ به عرف، هٰذا يسمى عبادة.

[1] سبق تخريجه في الصفحة (١٤).

يفسّر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى للعبادة في أول رسالته العبودية حيث قال: **إن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة**.

وهٰذا التعريف مناسب؛ لأنه أيسر في الفهم أولا، والثاني أنه قريب المأخذ من النصوص، فقال: **إن العبادة اسم جامع**؛ يجمع أشياء كثيرة، جامع لأي شيء؟ **لكل ما يحبه الله ويرضاه**.

كيف نصل إلى أن هٰذا العمل أو القول يحبه الله ويرضاه؟ لابد أن يكون مأمورا به، أو مخبَرا عنه بأن الله جل وعلا يحبه ويرضاه. أنواعها؟ قال: **من الأقوال والأعمال**؛ فهناك قول وعمل. [1]

فإذن العبادات تنقسم إلى:

- عبادات قولية.
- وعبادات عملية.

ليس ثمَّ قسم ثالث، إما أن تكون قولية، وإما أن تكون عملية. قال: **الظاهرة والباطنة**؛ قد يكون القول ظاهرا، وقد يكون باطنا، وقد يكون العمل ظاهرا، وقد يكون باطنا.

فتحصل أن أنواع العبادات هي: **الأقوال والأعمال التي يحبها الله ويرضاها**:

والقول: قد يكون باللسان، وقد يكون بالجنان.

قول اللسان أنواع كثيرة مما أمر الله جل وعلا به مثل الذكر والتلاوة، كلمة المعروف ونحو ذلك، هٰذه كلها من أنواع العبادات اللسانية.

قول القلب، قول القلب هو نيّته، قصده، التبست النية على قوم فكانوا يتلفظون بها، نعم النية قول، لكنها قول القلب، إذا قصد القلب وتوجه إلى شيء كان قائلا به، ليس متكلما، لأن الكلام من صفات اللسان؛ كلام ظاهر، أما القول قد يكون ظاهرا وقد يكون باطنا.

العمل: عمل القلب وعمل الجوارح.

وهٰذه الأنواع التي ذكرها الشيخ رحمه الله تعالى ممّثلاً بعضها من الأقوال والأعمال، بعضها ظاهر، وبعضها باطن، بعضها لساني، وبعضها قلبي، وبعضها عملي قلبي، وبعضها من عمل الجوارح.

فمثلا الإخلاص هٰذا عمل القلب، التوكل عمل القلب، لا يصلح الإخلاص إلا لله جل وعلا؛ إخلاص العبادة، إخلاص الدين إلا لله جل وعلا كما قال تعالى: ﴿**تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدْ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ(٢)أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ**﴾[الزمر:١-٣]، ﴿**قُلْ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي**﴾[الزمر:١٤]، التوكل كذلك من أعمال القلب التي ليست إلا لله، الخوف من أعمال القلب التي ليست إلا لله، يعني خوف العبادة، خوف السر سيأتي إيضاحه إن شاء الله في موضعه، الرغبة، الرهبة، الإنابة، الخضوع، الذل؛ ذل العبادة، خضوع العبادة، إلى آخره، وسيأتي تفصيلها إن شاء الله تعالى.

[1] انتهى الشريط الثاني.

هٰذه كلها من أعمال القلب هي داخلة في أنواع العبادة.

الأعمال الظاهرة مثل الاستغاثة؛ الاستغاثة طلب الغوث، طلب الغوث طلبٌ ظاهر، مثل الاستعانة؛ طلب العون، هٰذه من الأعمال الظاهرة، الذبح واضح أنها عمل الجوارح، النذر واضح أنه قول اللسان وعمل الجوارح، ونحو ذلك. فإذن هٰذه العبادات التي مَثَّل بها، أراد أن يشمل تمثيله أقسام العبادات القولية، والعملية؛ الظاهرة والباطنة، يجمعها جميعا أنها عبادات.

والعبادة لا تصْلُح إلا لله جل وعلا، العبادة الظاهرة أو الباطنة، القلبية أو اللسانية، أو التي موردها الجوارح، فهي لا تصلح إلا لله؛ فمن صرف شيئا منها لغير الله فقد توجّه بالعبادة لغير الله منافيا لما قال الله جل وعلا: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ**﴾[البقرة:٢١]، ومنافيا لإقراره بأن معبوده هو الله جل وعلا، إذا أقرّ العبد بأن قوله من ربك؟ يعني من معبودك؟ وأنّ الله جل وعلا قال: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ**﴾ يعني وحده دون ما سواه، فإنه إذا توجّه بشيء من هٰذه الأنواع لغير الله جل وعلا كان متوجّها بالعبادة لغير الله، وذلك هو الشرك.

(**والدليلُ قوله تعالى**: ﴿**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا**﴾[الجن:١٨])، ﴿**فَلا تَدْعُو**﴾ الدعاء هو العبادة، كما جاء في الحديث الذي استدل به الشيخ وهو قوله عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**الدعاء مخ العبادة**» وهو حديث أنس بن مالك، وإسناده فيه ضعف، لكن معناه هو معنى الحديث الصحيح؛ حديث النعمان بن بشير الذي رواه أبو داوود والترمذي وجماعة، وهو قوله عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**الدعاء هو العبادة**» (هو العبادة) يعني مخ العبادة، لأنّ الدعاء هو العبادة بمنزلة قول النبي ﷺ: «**الحج عرفة**».[1]

قال تَعَالَىٰ: ﴿**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا**﴾، ﴿**فَلا تَدْعُوا**﴾ يعني كما ذكرت لكم من قبل: لا دعاء مسألة، ولا دعاء عبادة.

﴿**فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا**﴾ يعني لا تعبدوا مع الله أحدا، ﴿**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا**﴾، هٰذا نهي أن يدعوَ الناسُ أحدا مع الله جل وعلا، يعني أن يعبدوا أحدا مع الله جل وعلا، وإذا كان الدعاء هنا بمعنى دعاء المسألة فيكون معنى الآية وأن المساجد لله فلا تسألوا سؤال عبادة مع الله أحدا، لا تطلبوا طلب عبادة مع الله أحدا. ولفظ ﴿**تَدْعُوا**﴾ يشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة، فهٰذه الآية دليل على وجوب إفراد الله جل وعلا بالعبادة.

فإن قال قائل لك حين الاستدلال بها: إن الدعاء هنا هو دعاء المسألة، وغيره من أنواع العبادة التي تزعمون من الذبح والنذر ومن الاستغاثة والاستعاذة ونحو ذلك أنها لا تدخل في النهي في هٰذه الآية.

فيكون جوابُك: أن الدعاء في القرآن جاء بمعنيين، جاء ويراد به العبادة، وجاء ويراد به المسألة. فمثلا في قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي**﴾[غافر:٦٠]، ظاهر أن الدعاء المراد به العبادة؛ لأنه قال ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾[غافر:٦٠]، وكذلك في قوله تعالى مخبرا عن قول إبراهيم عليه السلام: ﴿**وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي**

(١) سنن الترمذي: كتاب الحج، باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج، حديث رقم (٨٨٩).

سنن ابن ماجه: كتاب المناسك، باب الدعاء بعرفة، حديث رقم (٣٠١٥).

قال الشيخ الألباني: صحيح.

شَقِيًّا﴾[مريم:٤٨]، قال جل وعلا بعد ذلك: ﴿**فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾[مريم:٤٩]، وفي الآية الأولى أخبر عن إبراهيم أنه قال: ﴿**وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ**﴾ ثم قال جل وعلا: ﴿**فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ**﴾ فدل على أن إبراهيم عليه السلام حين قال: ﴿**وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ**﴾ أي وما تعبدون؛ لأن الله جل في وعلا قال بعدها: ﴿**فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ**﴾، وهٰذا من الأدلة الظاهرة من أن الآية هٰذه تشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة.

وقد أُورد على أئمتنا رحمهم الله تعالى -حين قرّروا التوحيد في مقاماتهم وفي كتبهم- أن هٰذه الآية إنما هي دليل للمسألة، وأما غيرها مما تَدَّعون أنه عبادة وأن هٰذه الآية فيها نهي عنه؛ كالذبح والنذر ونحو ذلك أنه لا يدخل في الآية.

فكان الجواب: أن الدعاء نوعان؛ دعاء عبادة ودعاء مسألة، هٰذا يأتي في القرآن وذاك يأتي في القرآن، والآية تشمل النوعين؛ لأن الدعاء إذا كان في القرآن يأتي تارات لهٰذا وتارات لهٰذا، فتحديده في هٰذه الآية بأحد النوعين ونفي النوع الآخر، هٰذا نوع تحكم وهو ممتنع. نقف عند هٰذا القدر، ونكمل إن شاء الله غدا، أسأل الله جل وعلا أن ينفعني وإيّاكم.

[سؤال]

س١/ هٰذا سؤال بالمناسبة قال: هل يصح أن يُقال توكلتُ على الله ثم عليك؟

ج/ والجواب أن هٰذا لا يصلح؛ لأن الإمام أحمد وغيره من الأئمة صرّحوا بأن التوكل عمل القلب.

ما معنى التوكل؟ هو تفويض الأمر إلى الله جل وعلا بعد بذل السبب؛ إذا بُذل السبب فوض العبد أمره إلى الله، فصار مجموع بذله للسبب وتفويضه أمره لله مجموعها التوكل، ومعلوم أن هٰذا عمل القلب كما قال الإمام أحمد.

ولهٰذا سُئل الشيخ محمد بن إبراهيم مفتي الديار السعودية السابق رحمه الله تعالى عن هٰذه العبارة فقال: لا تصح؛ لأن التوكل عمل القلب، لا يَقبل أن يقال فيه: (**ثُمَّ**)؛ توكلت على الله ثم عليك. إنما الذي يقال فيه (**ثُمَّ**) ما يسوغ أن يُنسب للبشر.

بعض أهل العلم في وقتنا، قالوا: إن هٰذه العبارة لا بأس بها؛ توكلت على الله ثم عليك، ولا يُنظر فيها إلى أصل معناها وما يكون من التوكل في القلب، إنما ينظر فيها إلى أن العامة حين تستعملها ما تريد التوكل الذي يعلمه العلماء، وإنما تريد من مثل معنى اعتمدت عليك، ومثل وكَّلْتُك ونحو ذلك، فسهّلوا فيها باعتبار ما يجول في خاطر العامة من معناها وأنهم لا يعنون التوكل الذي هو لله؛ لا يصلح إلا لله.

لكن مع ذلك فالأولى المنع لأن هٰذا الباب ينبغي أن يُسد، ولو فتح باب أنه يستسهل في الألفاظ لأجل مراد العامة، فإنه يأتي من يقول مثلا ألفاظ شركية ويقول: أنا لا أقصد بها كذا، مثل الذين يظهر ويكثر على لسانهم الحلف بغير الله بالنبي أو ببعض الأولياء أو نحو ذلك يقولون لا نقصد حقيقة الحلف، ينبغي وصف ما يتعلق بالتوحيد، وربما ما يكون قد يخدشه أو يُضعفه، ينبغي وَصْدُ الباب أمامه حتى تَخلُص القلوب والألسنة لله وحده لا شريك له.

نكتفي بهٰذا القدر وننتقل إلى الأصول.

۞۞۞۞

بسم الله الرحمن الرحيم

[المتن]

فمَنْ صَرَفَ منها شيئًا لغيرِ الله فهو مُشركٌ كافرٌ، والدليلُ قوله تَعَالىٰ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّه إلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾[المؤمنون:١١٧]، وفي الحديث «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ»[١] والدليلُ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:٦٠].

ودليلُ الخوفِ قوله تعالى: ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٨٥].

ودليلُ الرَّجاءِ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[الكهف:١١٠].

ودليلُ التَّوكُّلِ قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[المائدة:٢٣]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[الطلاق:٣].

ودليلُ الرَّغْبَةِ والرَّهبَةِ والخُشوعِ قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[الأنبياء:٩٠].

ودليلُ الخَشيةِ قوله تعالى: ﴿فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾[البقرة:١٥٠].

ودليل الإنابةِ قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾[الزمر:٥٤].

ودليل الاستعانةِ قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥]، وفي الحديث: «إِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ».[٢]

ودليل الاستعاذةِ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾[الفلق:١]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾[الناس:١].

ودليل الاستغاثةِ قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾[الأنفال:٩].

ودليل الذَّبْحِ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[الأنعام:١٦٢-١٦٣]، ومنَ السُّنَّة: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ».[٣]

ودليلُ النَّذْرِ قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾[الإنسان:٧].

[الشرح]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) سبق تخريجه في الصفحة (١٤).

(٢) سنن الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب رقم (٥٩)، حديث رقم (٢٥١٦). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. قال الشيخ الألباني: صحيح.

(٣) مسلم: كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله تَعَالىٰ ولعن فاعله، حديث رقم (١٩٧٨).

اللهم هب لنا من لدنك رحمة، وهيَّأ لنا من أمرنا رشدا، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علما وعمـــلا، يا أكرم الأكرمين.

أما بعد:

فهٰذه صلة لما سبق الكلام عليه؛ من أن العبادة حق لله جل وعلا، وأن كل معبود سوى الله جل وعلا فإن عبادته بغير الحق وأنها بالباطل والظلم والطغيان والجَوْر والتعدي من الخلق، فالله جل وعلا هو الذي يستحق العبادة وحده دونما سواه من خلقه.

وبعد أن ذكر أنواع العبادات التي موردها اللسان والقلب والجوارح قال رحمه الله: (**فَمَنْ صَرَفَ منها شيئًا لغـــير الله فهو مُشركٌ كافرٌ، والدليلُ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾**[المؤمنون:١١٧])، (**فَمَنْ صَرَفَ**) يعني من توجّه بشيء من أنواع تلك العبادات لغير الله فهو مشرك كـــافر، يُريد الشِّرك الأكبر الذي يُخرج من الملّة، والشِّرك حقيقته اتّخاذ الندّ مع الله جل وعلا، وهو المذكور في قولـــه: **﴿فَـــلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾**[البقرة:٢٢]، والتنديد يعني أن يُجعل لله مِثْـــل للاســـتحقاق؛ اســـتحقاق التوجّـــه، استحقاق العبادة، إذا جُعل لله ندٌّ إما بالقول أو بالعمل فذلكم هو الشرك، وكل نوع من هٰذه الأنـــواع، وغيرُهـــا مـــن الأنواع التي تدخل في مسمى العبادة، صرْفها لغير الله جل وعلا شرك أكبر يُخرج من الملة، وصاحبه مشرك كافر؛ إمـــا الكفر الظاهر، وإما الكفر الظاهر والباطن معا.

وهٰذا الذي ذكره برهن له بقوله تَعَالىٰ: **﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾** وقوله هنا **﴿لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾** هٰذا بيان لحقيقة من دُعي مع الله جل وعلا، قال: **﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾** هٰذا الإله الآخر وهٰذا الداعي منعوت بأنّه لا برهان له لما فعل، ولا دليل، وإنما فعل ما فعل من دعوة غير الله لخواص وبتعديه.

وقوله: **﴿لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾** ليس مفهومه أن ثَم دعوة لغير الله تعالى ليس لها برهان، وإنما كلُّ دعوة لغـــير الله **﴿وَمَـــنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾** أيَّ إلـــٰه كان، فإن ذلك الداعي لا برهان له لما فعل، والدليل على أن دعوة غير الله جل وعلا كفر؛ قوله جل وعلا في الآية نفسها: **﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾** فدل على أن دعاء غير الله -كما أنه شرك- إذ دُعي إله آخر مع الله جل وعلا فهو كفر؛ لأنه قال: **﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾**.

والشرك أقسام والعلماء يَقْسِمون الشرك باعتبارات مختلفة.

- فتارة يُقسم الشرك إلى شرك ظاهر وشرك خفي.
- وتارة يُقسم الشرك إلى شرك أكبر وشرك أصغر.
- وتارة يُقسم إلى شرك أكبر وأصغر وخفي.

وهٰذه تقسيمات معروفة عند العلماء، وكلّ تقسيم باعتبار، وهي تلتقي في نتيجة كلِّ قسم والتعريف؛ لكنه اختلاف في التقسيم باعتبارات مختلفة.

فمثلا من يَقْسِمون الشرك إلى ظاهر وخفي؛ إلى جلي وخفي:

- فيكون الجلي منه ما هو أصغر ومنه ما هو أكبر، الجلي الظاهر الذي يُحَس مثل: الذبح لغير الله النذر لغير الله، هٰذا جلي، هٰذا من نوع الشرك الأكبر، هو جليّ أكبر، كذلك مثل الاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، كذلك هٰذه من نوع الشرك الجلي الأكبر، الحلف بغير الله تعالى شرك جلي ولكنه أصغر. هٰذا قسم شرك جلي.
- قَسِيمُه الشرك الخفي منه ما هو أكبر كشرك المنافقين، فإنّ شركهم خفي لم يُظهروه وإنما أظهروا الإسلام، فما قام بقلوبهم من التَّنديد والشرك صار خفيا لأنهم لم يُظهروه، فهو شرك خفي ولكنه أكبر، وهناك شرك خفي أصغر مثل يسير الرياء، فإن كان الرياء كاملا كان ذلك شركا أكبر كشرك المنافقين، وإن كان يسيرا كتصنُّع المرء للعبادة لمخلوق مثله لغير الله فهٰذا إذا كان يسيرا فإنه شرك أصغر خفي.

هٰذا نوع من أنواع التقاسيم.

بعض العلماء يقول الشرك قسمان أكبر وأصغر:

- فإذا كان أكبر: قَسم الأكبر إلى جلي وخفي.
- وقَسَم الأصغر إلى جلي وخفي.

والأوضح أن يقسم إلى ثلاثة إلى: أكبر وأصغر وخفي:

- ويكون الخفي مثل يسير الرياء.
- والأصغر مثل الحلف بغير الله، تعليق التمائم.. ونحو ذلك.
- والأكبر مثل الذبح والنذر والاستغاثة والدعاء ودعوة غير الله جل وعلا.

هٰذه تقسيمات للشرك قد تجد هٰذا أو ذاك في كلام طائفة من أهل العلم، لكن كلّها محصلها واحد، وإنما التقسيم باعتبارات، وهي ملتقية في التعريف وفي النتيجة.

مُراد الشيخ رحمه الله تعالى هٰهنا بقوله: (**فمَنْ صَرَفَ منها شيئًا لغيرِ الله فهو مُشرِكٌ كافرٌ**) يريد الشرك الأكبر الذي يُخرج من الملة، فكل شيء صح عليه قيد العبادة فإن صرْفه لغير الله -يعني التوجه به، التعبد به لغير الله- هٰذا كفر؛ مثل نداء الموتى، أو نداء الغائبين، أو خوف السر، أو الذّبح لغير الله، أو النذر لغير الله، أو الاستغاثة بالأموات، أو أنواع الطّلب المختلفة من الاستعانة ونحوها، أو بعض أعمال القلوب مثل الاستعاذة ونحو ذلك.

هٰذه كلها أنواع للعبادات بعضها في القلب وبعضها للجوارح، جميعا من توجّه بشيء منها لغير الله فهو مشرك الشرك الأكبر الذي يخرج من الملة.

البرهان قوله: ﴿**وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ**﴾ وقد قدمت لك أن ﴿**يَدْعُ**﴾ والدعاء في القرآن قد يكون دعاء مسألة وقد يكون دعاء عبادة، فإذا لم يكن في الدليل؛ في النص قرينة تحدد أحد المعنيين، حُمل على المعنيين جميعا؛ لأن حمل النص على أحد المعنيين دون دليل وبرهان تحكُّم في النص وذلك لا يجوز.

قال رحمه الله: (**وفي الحديث**: «**الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ**»)، (**الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ**) يعني لبُّها وجوهرها، وهو كما جاء في الحديث الآخر الصحيح؛ حديث النعمان «**الدُّعَاءُ هُوَ العبادة**»[1] وكما قال جل وعلا: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ وسبق أنْ أوضحت لكم هٰذه المسألة بتفصيل فيما مضى.

بعد ذلك شرَعَ المؤلف -رحمه الله تعالى وأجزل له المثوبة- في بيان أدلة كون تلك التي ذكر من العبادات، وذكر الخوف، وذكر الرّجاء، وذكر الرّغبة، وذكر الرّهبة، وذكر الخشوع، وذكر التوكل، وذكر أشياء، والذبح والنذر، إلى آخره.

فكأنَّ قائلا قال: ما الدليل على أن هٰذه من العبادات التي من صرَفها لغير الله جل وعلا كَفر؟ هو يسوق الأدلة، والأدلة على هٰذه المسألة على نوعين:

الأول: أن يُستدل بدليل يُثبت كون تلك المسألة من العبادة، يثبت كون الخوف من العبادة، يثبت كون الرجاء من العبادة، فإذا ثبت كونه من العبادة، أُستدل بالأدلة السابقة كقوله: ﴿**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا**﴾[الجن:١٨]، وقوله: «**الدُّعَاءُ هو العِبَادَةِ**»، «**الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ**»، ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي**﴾[غافر:٦٠]، ونحوها من الأدلة العامة؛ بأن من توجه بالعبادة لغير الله فهو مشرك.

إذن النوع الأول متركب من شيئين، الأول أن يقام الدليل على أن هٰذه المسألة من العبادة؛ على أن الخوف من العبادة، على أن الرجاء من العبادة، فإذا استقام الدليل والاستدلال على أن هٰذه المسألة من العبادة، استدللتَ بالأدلة العامة على أن من صرف شيئا من العبادة لغير الله فهو مشرك، هٰذا نوع.

النوع الثاني: خاص؛ وهو أن كل نوع من تلك الأنواع له دليل خاص، يُثبت أن صرفه لغير الله جل وعلا شرك، وأنه يجب إفراد المولى جل وعلا بذلك النوع من أنواع العبادة.

وهٰذا مما ينبغي أن يتنبه له طالب العلم في مقامات الاستدلال، لأن تنويع الاستدلال عند الاحتجاج على الخرافيين والقبوريين وأشباههم مما يقوي الحجة. تُنوِّع الاستدلال مرة بأدلة مجملة، مرة بأدلة مفصلة، مرة بأدلة عامة، مرة بأدلة خاصة، حتى لا يُتوهَّم أنه ليس ثم إلا دليل واحد يمكن أن ينازع المستدل به الفهم، فإذا نوّعتها صارت الحجة أقوى والبرهان أجلى.

بدأ في ذكر هٰذه الأدلة، بعضها من النوع الأول وبعضها من النوع الثاني:

قال رحمه الله: (**دليلُ الخوفِ**) يعني دليل كون الخوف عبادة (**قوله تعالى**: ﴿**فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾[آل عمران:١٨٥]) هٰذا الدليل فيه أن الخوف من غير الله منهي عنه، وأن الخوف من الله جل وعلا مأمور به، قال جل وعلا: ﴿**فَلا تَخَافُوهُمْ**﴾ نهي عن الخوف من غير الله، ثم قال: ﴿**وَخَافُونِي**﴾ وهٰذا أمر بالخوف من الله جل وعلا، وما دام أنّ الله جل وعلا أمر بالخوف منه فإنه يصدق على الخوف إذن تعريف العبادة؛ لأنه إذْ أَمر بالخوف منه

---

(١) سبق تخريجه في الصفحة (١٤).

فمعنى ذلك أن الخوف منه محبوب له مرضي عنده، فيصدق عليه تعريف شيخ الإسلام للعبادة أنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، وهذا ما دام أنه أمر به فمعناه أن الله جل وعلا يحبه، لأنه إنما يأمر شرعا بما يحبه ويرضاه.

وفي هذه الآية دليل من النوع الثاني؛ وهو أن الخوف يجب أن يفرد به الله جل وعلا، قال هنا: ﴿**وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ فجعل حصول الإيمان مشروطا بالخوف منه جل وعلا، قال: ﴿**وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾؛ إن كنتم مؤمنين فخافوني ولا تخافوهم، وهذا فيه دليل على إفراد الله جل وعلا بهذا النوع من الخوف.

والخوف الذي يجب إفراد الله جل وعلا به ومن لم يُفرد الله جل وعلا به فهو مشرك كافر هو نوع من أنواع الخوف وليس كل أنواع الخوف وهو خوف السر؛ وهو أن يخاف غير الله جل وعلا بما لا يقدر عليه إلا الله جل وعلا، وهو المسمى عند العلماء خوف السر؛ وهو أن يخاف أن يصيبه هذا المخوف منه، أن يصيبه ذلك الشيء بشيء في نفسه–يعني في نفس ذلك الخائف– كما يصيبه الله جل وعلا بأنواع المصائب من غير أسباب ظاهرة ولا شيء يمكن الاحتراز منه، فإنّ الله جل وعلا له الملكوت كله، وله الملك وهو على كل شيء قدير، بيده تصريف الأمر، يرسل ما يشاء من الخير، ويمسك ما يشاء من الخير، يرسل المصائب، وكل ذلك دون أسباب يعلمها العبد، وقد يكون لبعضها أسباب، لكن هو في الجملة من دون أسباب يمكن للعبد أن يعلمها، يموت هذا، ينقضي عمر ذاك، هذا يموت صغيرا، ذاك يموت كبيرا، هذا يأتيه مرض، وذاك يُصيبه بلاء في ماله ونحو ذلك، الذي يفعل هذه الأشياء هو الله جل وعلا، فيُخاف من الله جل وعلا خوف السر أن يصيب العبد بشيء من العذاب في الدنيا أو في الآخرة.

المشركون يخافون آلهتهم خوف السّر؛ أن يصيبهم ذلك الإله، ذلك السيد، ذلك الولي، أن يصيبهم بشيء كما يصيبهم الله جل وعلا بالأشياء، فيقع في قلوبهم الخوف من تلك الآلهة من جنس الخوف الذي يكون من الله جل وعلا، يُوضح ذلك أنّ عُبَّاد القبور وعبّاد الأضرحة وعبّاد الأولياء يخافون أشدّ الخوف من الولي أن يصيبهم بشيء إذا تُنُقِّص الولي، أو إذا لم يُقَم بحقه.

وقد حُكِيَ لي في ذلك حكاية من أحد طلبة العلم، أنه كان مجتازا مرة مع سائق سيارة أجرة ببلدة [طنطا] المعروفة في مصر التي فيها قبر البدوي؛ والبدوي عندهم معظم، وله من الأوصاف ما لله جل وعلا؛ يعني يعطونه من الأوصاف بعض ما لله جل وعلا، هم اجتازوا بالبلدة فأتى صغير –متوسط السن– يسأل هذا؛ يسأله صَدقة، فأعطاه شيئا، فحلف له بالبدوي أن يعطيه أكثر، وكان من العادة عندهم أنه من حُلف له مثل ذلك فلا يمكن أن يرد، بل لا بد أن يعطي؛ لأنه يخاف أن لا يقيم لذلك الولي حقه، فقال هذا –وهو من طلبة العلم والمتحقّقين بالتوحيد– فقال: هات ما أعطيتك. فظن ذلك أنه يريد أن يعطيه زيادة، فأخذ ما أعطاه وقال: لأنك أقسمت بالبدوي فلن أعطيك شيئا، لأن القسم بغير الله شرك.

هذا مثال للتوضيح ليس من باب القَصص؛ لكنه يُوضِح المراد من خوف السر وضوحا تاما.

سائق الأجرة علاهُ الخوف في وجهه، ومضى سائقا وهو يقول: أُسْتُر أُسْتُر، أُسْتُر أُسْتُر. فسأله الأخ قال: تخاطب من؟ قال: أنت أهنت البدوي، وأنا أخاطبه –أي أدعوه– بأن يستر، فإن لم...، فإننا نستحق مصيبة، وسيرسل علينا البدوي مصيبة؛ لأننا أهنّاه. وكان في قلبه خوف بحيث أنه مشوا أكثر من مائة كيلو و لم يتكلم إلا بـــ: أُستر، أستر.

يقول: فلما وصلنا سالمين معافين توجهت له فقلت: يا فلان أين ما زعمت؟ وأين ما ذكرت من أن هٰذا الإله الـذي تؤلّهونه أنه سيفعل ويفعل؟ فتنفس الصعداء وقال: أصل السيد البدوي حليم**!!!**

هٰذه الحالة هي حالة تعلق القلب بغير الله، الذي يكون عند الخرافيين، خوف من غير الله خوف السر، البدوي ميت في قبره، يخشى أن يرسل إليه أحد يقسمه، أو مصيبة في سيارته أو في نفسه، هٰذا هو خوف السر، وهٰذا هو الذي جـاء في مثل قول الله جل وعلا: ﴿**وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾[الأنعام:٨١]، قال: ﴿**وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ**﴾ لأنهم يخافون آلهتـهم هٰذا النوع من الخوف، لهٰذا تجد قلوبهم معلقة بآلهتهم لأنهم يخافونهم خوف السر، وقال جل وعلا مخبرا عن قول قوم هود حيث قالوا لهود: ﴿**إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ**﴾[هود:٥٤]، فهم خافوا الآلهة، عندهم أن الآلهـة تصـيب بسوء، وكان الواجب على حد زعمهم أن يخاف هٰذا من الآلهة أن تصيبه بسوء، فقالوا له: ﴿**إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ**﴾ يعني بمصيبة في نفسك اختل عقلك، أو اختلت جوارحك أو نحو ذلك، هٰذا النوع من الخوف هو الـذي إذا صُرف لغير الله جل وعلا فهو شرك أكبر.

هناك أنواع من الخوف خوف جائز وهو الخوف الطبيعي: أن يخاف من الأسباب العادية التي جعل الله جل وعلا فيها ما يخاف ابن آدم منه، أن يخاف من النار أن تحرقه، يخاف من السبع أن يعدو عليه، من العقرب أن تلدغه، يخاف من ذي سلطان غشوم أن يعتدي عليه ونحو ذلك، هٰذا النوع خوف طبيعي من الأشياء، لا يُنقص الإيمان؛ لأنه مما جبل الله جـل وعلا الخَلْقَ عليه.

هناك نوع، خوف محرّم، هٰذا القسم الثالث لأن الخوف أربعة أقسام[1]، قسم منه شركي؛ شرك أكبر، وقسـم منـه جائز، وقسم محرم وهو أن يخاف من الخلق في أداء واجب من واجبات الله، يخاف من الخلق في أداء الصلاة، يخـاف إن قام للصلاة من مجلس يقطنه كثيرون أن يعاب، فإذا خاف هٰذا الخوف، فإن هٰذا الخوف يكون محرما، وفي مثله نزل قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾[آل عمران:١٧٣]، وفي قوله: ﴿**فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾[آل عمران:١٨٥]، لأن الواجب أن يُجَاهَـدوا، فإذا خافوهم عن أداء ذلك الواجب، خوف ليس بمأذون به في الشرع وإنما هو من تَسْوِيل الشيطان كما قـال: ﴿**إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ**﴾[آل عمران:١٧٥]، هٰذا النوع من الخوف محرم، لا يجوز؛ لأن فيه تفويت فريضة مـن فرائض الله لأجل الخوف، خاف من غير الله لكنه ليس خوف السر، وإنما هو خوف ظاهر، وهٰذا محرم من المحرمات.

هٰذه أقسام ثلاثة مشهورة، وبها تجمع مسائل أقسام الخوف، والشركي منه وما ليس بشركي منه، وهٰذه المسـألة ممـا يكثر فيها اضطراب طلاب العلم؛ لأنه ليس عندهم ضبط للخوف الذي يحصل به إن صُرف لغير الله جل وعلا الشـرك،

---

[1] لعله يقصد ثلاثة. قال في شرحه لكتاب التوحيد تحت باب ﴿**إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ**﴾: والخوف من غير الله جل وعـلا ينقسم: إلى ما هو شرك، وإلى ما هو محرم، وإلى ما هو مباح، فهٰذه ثلاثة أقسام. انتهى كلامه حفظه الله. أو أن الخوف من غير الله جل وعلا ثلاثة أقسام مع قسم الخوف من الله فتصبح أربعة أقسام. والله أعلم.

الذي يوصف به من قام به أنه مشرك، أيُّ خوف هٰذا؟ هو خوف السِّر، ووصفه وضبط حاله هو ما ذكرته لك من قبل، فكن منه على ذكر وبينة في فهمك لهٰذه المسألة العظيمة.

الخوف عبادة قلبية موردها القلب، قد يظهر أثره على الجوارح.

قال بعد ذلك: (**ودليلُ الرَّجاءِ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾**[الكهف:١١٠]) الرجاء أيضا عبادة قلبية، حقيقتها الطمع بالحصول على شيء مرجو، الرغبة بالحصول على شيء، يرجو أن يحصل على هٰذا الشيء.

فإن كان الرجاء لشيء ممن يملك ذلك الشيء فإنّ هٰذا رجاءٌ طبيعي؛ أرجو أن تحضر لأنه يمكنك أن تحضر[١]، أرجوك أن تفعل، يمكنك أن تفعل، هٰذا الرجاء ليس هو رجاء العبادة.

النوع الثاني هو رجاء العبادة، وهو أن يطمع في شيء لا يملكه إلا الله جل وعلا، أن يطمع في شفائه من مرض، يرجو أن يشفى، يرجو أن يُدخل الجنة وينجو من النار، يرجو أن لا يصاب بمصيبة ونحو ذلك، هٰذه أنواع من الرّجاء، لا يمكن أن تُرجى وتُطلب وتُؤمَّل إلا من الله جل وعلا، وهٰذا هو معنى رجاء العبادة.

فالرّجاء منه ما هو رجاء عبادة ومنه ما هو رجاء ليس من العبادة، والمقصود هٰهنا هو رجاء العبادة.

قال جل وعلا: ﴿**فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾ هٰذا النوع من الرجاء امتدح الله جل وعلا من قام به، قال: ﴿**مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا**﴾ فدلّ على أن هٰذا الرجاء ممدوحٌ مَنْ رجاهُ، وإذا كان ممدوحا قد مدحه الله جل وعلا فهو مرضي عند الله جل وعلا، فيصدق عليه حد العبادة من أنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، وهٰذا –من نص هٰذه الآية– داخل فيما يرضاه الله جل وعلا، لأنه أثنى على من قام به ذلك الرجاء.

وقوله هنا: ﴿**فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ**﴾، (اللقاء) فُسر بالملاقاة، وفُسر بالمعاينة الرؤية؛ رؤية الله جل وعلا، ﴿**فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ**﴾ لملاقاة الله جل وعلا والرجوع إليه، أو فمن كان يرجو رؤية ربه، لأن اللقاء يحتمل هٰذا وذاك وهما تفسيران مشهوران عن السلف.

قال بعدها: (**ودليلُ التَّوكُّلِ قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾**[المائدة:٢٣]) التوكل أيضا من العبادات القلبية، حقيقته أنه يجمع شيئين:

الأول: تفويض الأمر إلى الله جل وعلا.

الثاني: عدم رؤية السبب بعد عمله.

والتفويض وعدم رؤية السبب شيئان قلبيان، فالعبد المؤمن إذا فعل السبب وهو جزء بما تحصل به حقيقة التوكل، فإنه لا يلتفت لهٰذا السبب، لأنه يعلم أن هٰذا السبب لا يُحَصِّل المقصود، ولا يَحْصُلُ المراد به وحده، وإنما قد يحصل المراد به وقد لا يحصل؛ لأن حصول المرادات يكون بأشياء:

---

[١] انتهى الوجه الأول من الشريط الثالث.

- منها السبب.
- ومنها صلاحية المحل.
- ومنها خلو الأمر من المضاد.

فثَم ثلاثة أشياء تحصل بها المرادات:

أول سبب: نعلم بمَا خلق الله جل وعلا خلقه عليه أن هٰذا السبب يُنتج المسبَّب؛ النتيجة.

الثاني: صلاحية المحل لقيام الأمر به؛ الأمر المراد.

الثالث: خلو الأمر أو المحل من المضاد له.

مثاله الدّواء، النبي ﷺ أمر بالدواء فقال: «**تداووا عباد الله**»[1] فالمسلم الموحد يتناول الدواء باعتباره سببا للشفاء، لكنه ليس سببا أو ليس علة وحيدة، بل لا يحصل الشفاء بهٰذا وحده، وإنما لابد من أشياء أخر، منها أن يكون المحل الذي هو داخل الإنسان–باطن متناول الدواء– يكون صالحا لقَبول ذلك الدواء، وهٰذا معنى قولي: أن يكون المحل صالحا. أيضا من العلل التي يكمل بها المراد أن يكون السبب هٰذا الذي عمل خاليا من المعارض له، قد يكون يتناول شيء وفي البدن ما يفسد ذلك الشيء، فلا يصل إلى المقصود.

- ومنها وهو الأعظم **أن يأذن الله جل وعلا في أن يكون السبب مؤثِّرا منتجا للمسبّب**، وهٰذا يعطيك أنّ فعل السبب ليس كافيا في حصول المراد.

من الأمثلة التي نُمَثِّلُ بها كثيرا في هٰذا الباب غير مثال الدواء، رجل رام سفرا على سيارة، فأعدّ العدة، وفعل أسباب السلامة جميعا؛ من رعاية مثلا للكابحات (الفرامل)، ومن رعاية للإطارات ونحو ذلك، فعل أسباب السلامة جميعا، وسار على مهل، هٰذا كل ما يمكنه أن يفعله، لكن هل هٰذا وحده يحصِّل السلامة؟ لا يحصِّل السلامة هٰذا وحده، فهناك من قد يكون معتديا عليه، تأتيه سيارة كبيرة، هو قد بذل أسباب السلامة، وتأتيه في طريقه، ويصاب بالمصيبة من جرّاء ذلك، فهو فعل ما يُمكنه أن يفعله، لكن هناك أشياء بيد الله جل وعلا تتم السّلامة باجتماعها، وليس بهٰذا السبب الوحيد الذي عمله العبد، لا يجوز للعبد أن يتخلّى عن بذل السبب لأن بذل السبب من تمام التوكل؛ ولكن لا يُلتفت إلى السبب، ولهٰذا قال علماؤنا –علماء التوحيد من أئمة السلف فمن بعدهم–: الالتفات إلى الأسباب قدح في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا قدح في العقل، إذا التفت القلب إلى السبب وأنه ينتج المسبب هٰذا قدح في التوحيد.

لهٰذا نقول: التوكل هو ما يجمع شيئين:

أولا: تفويض الأمر إلى الله جل وعلا، لأنّ الله هو الذي بيده الملك.

الثاني: عدم رؤية السبب الذي فُعل.

إذن لا بد من فعل السبب، ويقوم بالقلب عدم رؤية لهٰذا السبب أنه ينتج المقصود وحده، وإنما يعلم أنه جزء مما ينتج المقصود، والباقي على الله جل وعلا، ثم يفوّض الأمر لله جل وعلا، هٰذا يُنتج لك أن التوكل عبادة قلبية محضة، ولهٰذا

[1] أورده الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٦٣٣). وتحت رقم (٢٨٨١) بمعناه.

صار صرفه لغير الله جل وعلا شرك، بمعنى أن يفوض الأمر لغير الله جل وعلا، كما يقول بعض مشايخ الصوفية لبعض مريديهم: إذا أُصبت بمصيبة فاذكرني فإني أخلِّصك منها. أذكرني؛ يَقُمْ بالقلب ذلك المتذكَّر -ذلك المذكور- وإذا قام به أنه يخلصه من ذلك الشيء، فمعناه أنه فوض الأمر إليه، وصار متوكلا على غير الله جل وعلا، وهذا هو حقيقة ما يفعله المشركون في الجاهلية ومن شابههم ممن بعدهم.

(**ودليلُ التَّوكُّلِ قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾**[المائدة:٢٣])، ففي هذه الآية الأمر بالتوكل، وما دام أنه أمر به فهو عبادة؛ لأن العبادة ما أُمر به من غير اقتضاء عقلي ولا اطراد عرفي، وما دام أنه أمر به فهو راض له أن يُتوكل عليه، وهذا معناه كونه عبادة.

ثم أيضا في هذا الدليل أنه جعل التوكل شرطَ الإيمان، فقال: **﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾** فمعنى ذلك أنه لا يحصل الإيمان إلا بالتوكل على الله وحده. أيضا هنا قدم الجارّ والمجرور فقال: **﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾** وتقديم ما حقه التأخير في علم المعاني يفيد الحصر والقصر، أو يفيد الاختصاص، وهنا يفيدهما؛ يفيد الاختصاص، ويفيد القصر والحصر، فمعنى هذه الآية بقوله: **﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾** يعني أحصروا توكلكم في الله، اقصروا توكلكم على الله إن كنتم مؤمنين، خُصُّوا الله بتوكلكم إن كنتم مؤمنين، وهذه الآية، هذا الدليل مركّب من نوعي الدليل اللذَين ذكرتهما لك من قبل، النوع الأول: إثبات أن هذا الأمر عبادة. الثاني: إثبات أن هذه العبادة يجب صرفها لغير الله جل وعلا بدليل خاص، فهو المستفاد من قوله: **﴿فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾**، وكذلك في قوله: **﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾** هذا فيها الثناء على من يتوكل على الله، ففيها الدليل على أن التوكل على الله عمل يحبه الله ويرضاه، ومعنى ذلك أنه من أنواع العبادات، هذا هو توكل العبادة.

وهناك شيء آخر ليس من توكل العبادة، وهو **التوكيل**، وهو المعروف في باب الوكالة عند الفقهاء، وكّلت فلانا في أمري، (ووكّل علي) كما جاء في الحديث (**ووكّل عليّ عقيلا في خصومة**) هذا من باب الوَكالة، وهو شيء آخر غير التوكل، التوكيل والوكالة باب آخر، أما التوكل فهو عبادة قلبية، يضبط ذلك أن الوكالة فيها المعنى الظاهر، فيها شيء ظاهر، أما التوكل فهو عمل قلبي.

على كل حال، لهذه الجمل مزيد تفصيل؛ لكن المقام يضيق عن تفصيلات ما يتعلق بهذه الأنواع من العبادات، وتفصيلها في كتاب التوحيد؛ لأن كل واحدة منها عُقد لها باب في كتاب التوحيد.

قال رحمه الله تعالى: (**ودليلُ الرَّغبةِ والرَّهبةِ والخشوع قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾**[الأنبياء:٩٠]) هذه الآية فيها المسارعة للخيرات، الدعاء رغبا ورهبا ووصفهم بأن حالهم أنهم كانوا خاشعين لله، ففيها أنواع من العبادات، خصّ الشيخ منها بالاستدلال الرغبة والرهبة والخشوع، ووجه الاستدلال من الآية أن الله جل وعلا أثنى على الأنبياء والمرسلين الذين ذكرهم في سورة الأنبياء، التي هذه الآية في أواخرها بقوله: **﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾**، يعني ويدعوننا راغبين، ويدعوننا ذوي رغبة وذوي رهبة وذوي خشوع، وهذا في مقام الثناء عليهم؛ الثناء على الأنبياء والمرسلين، وما دام أنه أثنى عليهم فإن هذه العبادات من العبادات المَرْضيَّة له فتدخل في حد العبادة.

الرغبة رجاء خاص، والرهبة خوف خاص وَجَلٌ خاص، والخشوع هو التطامن والذل، قال تعالى ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً**﴾[فصلت:٣٩]، يعني ليس فيها حركة للنبات، ليس فيها حياة؛ متطامنة ذليلة ﴿**فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ**﴾[1][فصلت:٣٩]، فالخشوع سكون فيه ذل وخضوع، هٰذا الخشوع الذي هو نوع من أنواع العبادة، وتلك الرغبة وتلك الرهبة هٰذه من العبادات القلبية، التي يظهر أثرها على الجوارح.

لو تأملت أو رأيت حال المشركين عند آلهتهم، حال عباد القبور -مثلا- عند أوثانهم، عند المشاهد، لوجدت أنّهم في خشوع، ليسوا عليه في مساجد لله ليس فيها قبر ولا قبة، وهٰذا مشاهد، فإنه يكون عنده وَجَلٌ خاص، رهبة، ومزيد رجاء هو الرغبة، وخشوع وتطامن وعدم حركة وسكون في الجوارح والأنفاس وحتى في الألحاظ في الرؤية، وهٰذا كله مما لا يسوغ أن يكون إلا لله، لأن المسلم في صلاته إذا صلى فإنه يكون يقوم به الرغبة، يقوم به الرهبة المستفادة من قوله تعالى: ﴿**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾[الفاتحة:٣-٤]، ﴿**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ تفتح له باب الرغبات وباب الرجاء، و﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ يفتح عليه باب الرهبة، باب الخوف من الله جل وعلا، فتأتي عبادته حال كونه راغبا راهبا، والخشوع سكونه وخضوعه وعدم حراكه في قلبه وفي عمله، هٰذا لله جل وعلا في عبادة الصلاة، والخشوع يكون بالصوت، ويكون بالأعمال كما قال جل وعلا: ﴿**وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا**﴾[طـه:١٠٨]، فالهمْس لا ينافي الخشوع في الصوت، وهٰذه حال المصلي حين يناجي ربه جل وعلا، فهو في حال رغبة ورجاء، وفي حال رغبة ورهبة، وفي حال خشوع لربه جل وعلا، يزيد هٰذا في القلب، وربما غلب عليه حتى نال المقامات العالية في تلك العبادة، وربما قلَّ وَضَعُف حتى لم يُكتب من صلاته إلا عشرها أو إلا تسعها، هٰذا لأنه من أنواع العبادات التي يحبها الله جل وعلا ويرضاها.

فإذن وجه الاستدلال: أنّ الله جل وعلا أثنى على أولئك الأنبياء، وعلى أولئك المرسلين؛ لأنهم ذووا رغب، وذووا رهب، وذووا خشوع لله جل وعلا، وبالأخص هٰذا الدليل العام، وبالدليل الخاص في الخشوع وحده، قال هنا: ﴿**وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ**﴾ وكما قدمت أن الجارّ والمجرور هنا قُدِّم على ما يتعلق به وهو اسم الفاعل (خاشع)؛ لأن الجارّ والمجرور -كما أسلفت لك- يتعلق بالفعل أو ما فيه معنى الفعل فهو اسم الفاعل أو اسم المفعول أو ما أشبهه من مصدر ونحو ذلك، وهنا قال: ﴿**كَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ**﴾ أصل سَبْكِ الكلام: كانوا خاشعين لنا. فلما قدم ما حقه التأخير كان ذلك مفيدا للاختصاص وللحصر وللقصر كما هو معلوم في علم المعاني.

نقف عند هٰذا، ونأخذ شيئا من الأصول، أو نجيب عن بعض الأسئلة، ثم نذهب إلى الورقات.

[الأسئلة]

س١/ متى يكون التوكل شركا أكبر ومتى يكون شركا أصغر؟

ج/ التوكل عبادة مطلوبة؛ التوكل على الله عبادة مطلوبة واجبة، يسأل هو عن التوكل على غير الله، يكون شركا أكبر إذا فوّض أمره لغير الله؛ فوض هٰذا الأمر؛ المصيبة التي وقع فيها، أو ما يريد إنجاحه من تجارة، أو عبادة أو درس أو

[1] وهي جزء من الآية: (٥) من سورة الحج.

نحو ذلك، فوّض إنجاح هٰذا الأمر لغير الله، وقام بقلبه هٰذا التعلق، يكون شركا أكبر، ولا يكون التوكل على غير الله شركا أصغر، إنما هو شرك أكبر.

س٢/ يوجد كتاب باسم (حكم تمني الموت) صحة (أحكام تمني الموت) للشيخ محمد عبد الوهاب، وقد قرأت هٰذا الكتاب فوجدت فيه من القصص الغريبة والأحاديث الضعيفة.

فهل هٰذا الكتاب فعلا للشيخ محمد بن عبد الوهاب علما بأن دار النشر المكتبة الإعدادية بمكة المكرمة؟

ج/ هٰذا سؤال جيّد، وإن كان الجواب عليه قد يطول، لأن المسألة تحتاج إلى إيضاح وبسط، لكن ألخّص الجواب: بأن هٰذا الكتاب ليس للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تَعَالىٰ، وإنما الواقع أنّ الجامعة؛ جامعة الإمام، رأت أن النسخة هٰذه التي طبعوا عنها، أنها بخط الشيخ رحمه الله تعالى، وعندي صورة منها وهي بخط الشيخ رحمه الله، وقد جلبها العلماء منذ عقود مضت من لندن من المتحف البريطاني؛ جلبوها لا لأنها من تأليف الشيخ، ولكن لأجل أنها بخط الشيخ، مجموع كبير بخط الشيخ رحمه الله، جلبوها من هناك وصوّروها وأودعوها في المكتبة السعودية بالرياض، لأنها بخط الشيخ، والعلماء منذ ذلك الوقت يعلمون أنها ليست للشيخ، وإنما هي بخطه وسيأتي لِمَ كتبها الشيخ، ولهٰذا لم يسعوا إلى نشرها ولا إلى طبعها.

الشيخ رحمه الله تعالى في هٰذه من جنس المجاميع التي كتبها بخطه، وهي أنه كان يتجول في رحلاته، فإذا رأى كتابا – وكما تعلمون في ذلك الوقت يصعب شراء الكتب، تكون نسخة عند واحد من الناس فيصعب شراؤها– فالعالم ماذا يصنع؟ يأخذ هٰذا الكتاب ويختصره؛ ينتخب منه، فهو الذي صنع في هٰذا المجموع أنه انتخب منه أشياء تتعلق بأوّله، بأحكام تمني الموت، ثم بعد ذلك انتخب أشياء من هٰذه الأحاديث الضعيفة والموضوعة التي يحتجّ بها الخرافيون في بعض المسائل حياة الموتى وتعلق أرواح الأحياء بالموتى ونحو ذلك، أخذها من كتاب للسيوطي مطبوع الآن بأحوال أهل القبور، أخذ هٰذه الأحاديث لم؟ ليكون على بينة في تخريجها فيما إذا أوردها عليه الخصوم –خصوم الدعوة– فهو لم ينتخبها تأليفا وإنما انتخبها انتقاء، حتى يكون على بينة منها، كعادته في أشياء كثيرة مما انتقاه وانتخبه، والذي غرَّ الذين طبعوه أنه موجود بخط الشيخ رحمه الله تعالى، وكونه بخط الشيخ لا يعني أنه تأليف له، وسموه بهٰذا الاسم (أحكام تمني الموت) لأن أول صفحة منه في حكم تمني الموت، فتمني الموت في ذلك الكتاب استغرق صفحة أو صفحتين أو قريبا منها، والباقي كلها من الأحاديث التي ذكرها هٰذا السائل جزاه الله خيرا، والشيخ رحمه الله –كما ذكرت لك– انتخب هٰذه ليعلمها، من كتاب للسيوطي موجود، لو طابقت بين هٰذه الرسالة المزعومة وكتاب السيوطي لوجدت أنها نقل عنه حرفا بحرف، الأحاديث المتوالية نقلها عنه ليكون على بينة مما فيها فيما لو احتج بها الخرافيون.

ولهٰذا قال من قال من علماء الحديث: أهل الحديث يكتبون كل شيء؛ يكتبون حتى الموضوعات، حتى إذا احتج بها أحد بينوا له حكمها، وبينوا له وجه معناها.

س٣/ هل يُقدَّم السبب على التوكل على الله، وما معنى قوله عليه السلام: «**اعقلها وتوكّل**»[1]؟

ج/ السبب يكون قبل، تريد أمرا من الأمور تفعل السبب الذي يحصّل المسبب عادة به؛ شفاء من مرض، السبب أن تذهب إلى الطبيب فهٰذا السبب، إذا فعلت السبب يقوم بالقلب شيئان:

أولا: تفويض أمر الشّفاء لله جل وعلا.

الثاني: أن لا يرى القلب هٰذا السبب محصّلا للمقصود وحده، لا يرى القلب هٰذا السبب الذي هو الذهاب للطبيب محصلا للشفاء وحده، ولكن يعلم أنه ثَم أسباب أخرى كلها جميعا بيد الله جل وعلا.

فهٰذا السبب يتلوه شيئان هما: التوكل، وفعل السبب من تمام التوكل، ولهٰذا قال النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره فيما ساقه السائل: «**اعقلها وتوكّل**» توكَّلَ على الله جل وعلا في حفظ ناقته بدون أن يعقلها، فسرحت وذهبت وبعُدت عنه، فقال: اعقلها وتوكل. يعني ابذل السبب ثم بعد ذلك فوّض الأمر إلى الله جل وعلا أن ينفع بهٰذا السبب، إذ بيده ملكوت كل شيء، وليكن بقلبك عدم رؤية أن هٰذا السبب الذي فعلت وهو العقل كافيا في حصول المراد وهو حفظ تلك الناقة.

س٤/ يقول هل البيت المعروف عند الناس وامعتصماه، شرك في الاستغاثة ولماذا؟

ج/ هٰذا الذي يقول: ((رُبَّ وامعتصماه انطلقت))، القصة هٰذه لا نُثبتها، أي أن المرأة نادت المعتصم وقالت: وامعتصماه، أو أين المعتصم مني، أو يا معتصماه، هٰذه ليست بثابتة تاريخيا، لكن أخبار التاريخ كما هو معلوم كثيرة لا يمكن أخذ التثبت منها.

وامعتصماه هٰذه لها احتمالان:

- احتمال أن تكون نُدْبَة.
- واحتمال أن تكون نداء واستغاثة.

وعلى كل إذا كان هٰذا الغائب لا يسمع الكلام، أو لا يعتقد أن الكلام سيصل إليه، فإنه يكون شركا؛ لأنه استغاث بغير الله جل وعلا.

فإن كان من باب النُّدبة فإن باب الندبة فيه شيء من السعة، والأصل أن الندبة تكون لسامع، كذلك الاستغاثة بما يُقْدَرُ على الاستغاثة فيه تكون لحي حاضر سامع يقدر أن يغيث.

وهٰذا كان على القصة هٰذه لو كانت المرأة قالتها المعتصم لا يسمعها وليس قريبا منها، فيحتمل إن كان مرادها أنه يمكن أن يسمعها؛ يقوم بقلبها أنه يمكن أن يسمعها دون واسطة طبيعية، ودون كرامة خاصة لها من الله جل وعلا، هٰذا شرك من جنس أفعال المشركين.

وإن كان مقصودها أن يوصل ويصل إلى المعتصم طلبها واستغاثتها بواسطة من سمعها كما حصل فعلا فهٰذا ليس بشرك أكبر مخرج من الملّة.

(١) سنن الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، با (٦٠)، حديث رقم (٢٥١٧). قال الشيخ الألباني: حسن.

فتلخّص أن هٰذه الكلمة محتملة، والأصل؛ القاعدة في مثل هٰذه الكلمات المحتملة لا يجوز استعمالها–المحتملة لشرك– لا يجوز استعمالها؛ لأن استعمالها يُخشى أن يوقع في الشرك أو يفتح باب الشرك.

س٥/ بعض الناس يخاف أن يُنْكِرِ المنكر، إذا كان في مجلس –مثلا– فيقوم من المجلس ويكتفي بإنكار القلب، فهل يدخل هٰذا في الخوف المحرم؟

ج/ لو جلس كان هٰذا داخلا في الخوف المحرم، وذلك بشرط أن لا يكون مستطيعا أن ينكر بيده، أو مستطيعا أن ينكر بلسانه، فإن كان بوسعه أن ينكر بيده إذْ له مقدرة على الإنكار بيده؛ بأن يكون الأمر في بيته أو عند من له عليهم سلطة من قرابته ونحو ذلك، هٰذا ينكر بيده، إن لم يستطع ذلك ينكر بلسانه، وبعد ذلك يفارق المكان إن لم يُغَيَّر، الثالث إن لم يستطع الإنكار باللسان ينكر بقلبه لبغضه لهٰذا المنكر، وإن تمكّن من الخروج من مكان المنكر فإنه يجب عليه الخروج.

إن خاف الناس في إنكاره بيده مع استطاعته أن ينكر بيده، فهٰذا من الخوف المحرم الذي هو المرتبة الثالثة، إن خاف أن ينكر بلسانه؛ خاف الناس، مع إمكانه أن ينكر بلسانه، فهٰذا من الخوف المحرم، إن خاف أن يفارق مع إمكانه أن يفارق دون مفسدة راجحة تحصُل و لم يفارق كان هٰذا من الخوف المحرم، والله المستعان غفر الله لنا جميعا.



بسم الله الرحمن الرحيم

... العبادة مع دليل كل مسألة وأنها من العبادة، وقد وقفنا على الإنابة:

قال: (**ودليلُ الإنابة قوله تعالى:** ﴿**وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ**﴾[الزمر:٥٤]) وحقيقة الإنابة الرجوع؛ رجوع القلب عما سوى الله جل وعلا إلى الله جل وعلا وحده، والإنابة إذْ كان معناها الرجوع، فإن القلب إذا توجّه إلى غير الله جل وعلا قد يتعلق به تعلقا، بحيث يكون ذلك القلب في تعلقه تاركا غير ذلك الشيء، وراجعا ومنيبا إلى ذلك الشيء، كما يحصل عند الذين يتعلقون بغير الله؛ تتعلق قلوبهم بالأموات والأولياء أو بالأنبياء والرسل أو بالجن.. ونحو ذلك، فتجد أن قلوبهم قد فُرِّغَت إما على وجه التمام، أو على وجه كبير، أن فُرِّغَت من التعلق إلا بذلك الشيء، هٰذا الذي يسمى الإنابة، أَنَابَ رجع، ترك غيره ورجع إليه، وهٰذا الرجوع ليس رجوعا مجرّدا، ولكنه رجوع للقلب مع تعلّقه ورجائه، فحقيقة الإنابة أنها لا تقوم وحْدها، القلب المنيب إلى الله جل وعلا إذا أناب إليه فإنه يرجع، وقد قام به أنواع من العبودية منها الرجاء والخوف والمحبة ونحو ذلك، فالمنيب إلى الله جل وعلا هو الذي رجع إلى الله جل وعلا عما سوى الله جل وعلا، ولا يكون رجوعه هٰذا إلا بعد أن يقوم بقلبه أنواع من العبوديات أعظمها المحبة والخوف والرجاء؛ محبة الله، الخوف من الله، الرجاء في الله.

فإذن الإنابة صارت عبادة بهٰذا الدليل وسيأتي بيان وجه الاستدلال، وأيضا لأنها شيء متعلق بالقلب، ولأنها لا تقوم بالقلب إلا مع أنواع أخر من العبوديات، ولهٰذا استدل له بقوله تعالى: ﴿**وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ**﴾ ووجه الاستدلال أنّ الله جلّ وعلا قال: ﴿**وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ**﴾ فأمر بالإنابة، وإذْ أَمَرَ بها فمعنى ذلك أنه يحبها ويرضاها ممن أتى بها، فهي إذن داخلة في تعريف العبادة سواء عند الأصوليين أو عند شيخ الإسلام رحمه الله تَعَالىٰ.

وهٰذا الدليل العام على كونها من العبادة.

ما الدليل على كون هٰذه العبادة يجب إفراد الله جل وعلا بها؟ فإن في هٰذا: الأمر بالإنابة إلى الله جل وعلا. ما دليل كوْن هٰذه العبادة –وهي الإنابة– لا يجوز ولا يسوغ أن يُتَوَجّه بها إلى غير الله جل وعلا؟ هناك دليل عام ألا وهو أنه إذ ثبت أنه عبادة، فالأدلة العامة كقوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا**﴾[الجن:١٨]، وقوله: ﴿**وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ**﴾[المؤمنون:١١٧]، وغير ذلك، وقوله عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**الدعاء هو العبادة**»[1]، «**الدعاء مخ العبادة**»[2] ونحو هٰذه الأدلة، تدل على أن أي نوع من العبادة لا يجوز أن يُتوجه به إلى غير الله، ومن توجه به إلى غير الله جل وعلا فقد كفر، فهٰذا الاستدلال العام.

وهناك دليل خاص في الإنابة أنه يجب إفراد الله جل وعلا بالإنابة، وذلك في قوله تعالى: ﴿**عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾[هود:٨٨][3] في سورة هود ﴿**عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾ قالها شعيب عليه السلام، وأخبر الله جل وعلا بها عن

(١) سبق تخريج الحديث في الصفحة (١٤).

(٢)سبق تخريج الحديث في الصفحة (١٤).

(٣)وهي أيضا في سورة: الشورى الآية (١٠).

شعيب، في معرض الثناء عليه، قال: ﴿**عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ**﴾؛ عليه وحده لا غير توكلت؛ فوَّضت أمري وأخليت قلبي من الاعتماد على غيره، ومجيء الجارّ والمجرور متقدم على ما يتعلق به وهو الفعل دلّ على وجوب حصرها وقصرها واختصاصها بالله جل وعلا، ثم قال: ﴿**وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾، فقال: إليه وحده لا إلى سواه أنيبُ؛ أرجعُ محبًّا راجيًا خائفًا عن كل ما سوى الله جل وعلا إلى الله وحده، فلما قدم الجارّ والمجرور على ما يتعلق به وهو الفعل، دل على أن هٰذه العبادة وهي الإنابة مختصة بالله جل وعلا، وهٰذا أتى في معرض الثناء على شعيب، وهناك أدلة أخرى.

فإذن هٰذه المسألة مع غيرها، أحيانا يورد الشيخ دليلا عاما على كونها من العبادة، وأحيانا يورد دليلا عاما على كونها عبادة وخاصا في أنه يجب إفراد الله جل وعلا بها، والحمد لله ما من مسألة من مسائل العبادة القلبية أو العملية، عمل الجوارح أو عمل القلب أو عمل اللسان، ما من مسألة إلا وثَم دليل عام على أنها من العبادة، وثَم دليل خاص على أن من صرفها لغير الله جل وعلا فقد أشرك.

وهٰذا -والحمد لله- بيِّن ظاهر، وهٰذا التوحيد في بيانه ووضوحه وظهور براهينه وأدلته وآياته مما هو بمكان واضح ظاهر، لا يكون معه بعد ذلك حجة للمخالفين الذين تنكّبوا هٰذا الطريق، و لم يُسْلِمُوا وجوههم لله جل وعلا، ويخلصوا دينهم لله جل وعلا وحده.

بعد الإنابة ذكر الاستعانة حيث قال: (**ودليل الاستعانة قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾**[الفاتحة:٥]) هٰذا دليل عام في العبادات جميعا حيث قال: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ و﴿**إِيَّاكَ**﴾ -كما هو معلوم- ضمير منفصل في محل نصب مفعول به مقدّم، أصل الكلام: نَعْبُدُ إِيَّاكَ. ومن المعلوم أن المفعول به يتأخر عن فعله، فإذا قُدّم كان ثم فائدة في علم المعاني من علوم البلاغة ألا وهي أنه يُفيد الاختصاص، وطائفة من البلاغيين يقولون: يفيد الحصر والقصر.

وعلى العموم الخطب يسير يفيد الاختصاص أو يفيد الحصر والقصر، هنا أفاد أنّ العبادة من خصوصيات الله جل وعلا؛ خاصة بالله جل وعلا. ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ يعني لا نعبد إلا أنت.

ثم قال بعدها وهو مراد الشيخ بالاستدلال: ﴿**وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾، ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ وهٰذه الآية من سورة الفاتحة؛ السّورة العظيمة التي هي أمّ القرآن، التي يرددها المسلمون في صلواتهم، فيها إفراد الله جل وعلا بالعبادة، وعقْد العهد والإقرار على النّفس بأن القائل لتلك الكلمات لا يعبد إلا الله جل وعلا.

قال: ﴿**وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ كذلك لا يستعين إلا بالله جل وعلا، وجه الاستدلال أنه قدّم الضمير المنفصل الذي هو في محل نصب مفعول به على الفعل الذي هو العامل فيه، وتقديم المعمول على العامل يفيد الاختصاص أو يفيد الحصر والقصر.

فإذن هنا أثبت أنها عبادة، وأثبت أنه لا يجوز صرفها لغير الله إذْ هي مختصة بالله جل وعلا.

وهٰهنا قال العلماء؛ شيخ الإسلام ابن تيمية وجماعة من أهل العلم: إنّ عبادة غير الله أعظم كفرا من الاستعانة بغير الله. مع أن جنس الاستعانة قد يكون من الربوبية؛ يعني طلب الإعانة هو طلبٌ لمقتضيات الربوبية، لأن الله جل وعلا هو مدبر الأمر، ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ هٰذا فيه معنى الألوهية، ﴿**وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ طلب الإعانة من الله؛ استعانة المسلم بالله، هٰذا فيها طلب لمقتضى الربوبية، ومن حيث كون الاستعانة طلبا صارت عبادة، ولهٰذا قال: إنّ عبادة غير الله أعظم كفرا من الاستعانة

بغير الله، وهٰذا لأجل أنّ العبادة إذا صرفت لغير الله جل وعلا فإنها يكون معها تحوّلٌ في القلب الذي هو المضغة إذا صلحت -صلح العمل كله- صلح الجسد كله، إذا توجّه بقلبه لغير الله في عبادته هٰذا صار قلبه فاسدا، ومقتضيات الربوبية أحيانا تطرأ.

ولهٰذا الإشراك في الإلهية[1] في بعض أوجهه أعظم من إنكار بعض أفراد الربوبية ألم تر ذلك الرجل من بني إسرائيل الذي قال في وصيته إن مت فأحرقوني ثم ذروني في البحر فوالله إن قدر الله علي ليعذبني عذابا لم يعذبه أحدا من العالمين. وغفر الله جل وعلا له لأنه شك في بعض أفراد القدرة والتي هي راجعة إلى شيء من معنى الربوبية كذلك قال جل وعلا عن حواريي عيسى ﴿**هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِن السَّمَاءِ**﴾[المائدة:١١٢]، وأُجيبوا و لم يؤاخذوا بكلمتهم تلك؛ لأنها شك في بعض أفراد القدرة، وهٰذا راجع إلى شك في بعض مقتضيات الربوبية.

أما العبادة لغير الله جل وعلا فهي التي لا يُقبل من أحد أن يصرف شيئا منها لغير الله، قال جل وعلا: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾[النساء:١١٦]، وعيسى عليه السلام قال لقومه: ﴿**إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ**﴾[المائدة:٧٢] وقال جل وعلا لعيسى في آخر السورة؛ في سورة المائدة: ﴿**يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ** (١١٦) **مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ**﴾[المائدة:١١٦-١١٧] إلى آخر الآيات.

المقصود من هٰذا أن ما قاله شيخ الإسلام وجماعة، أن العبادة لغير الله أعظم كفرا من الاستعانة بغير الله، هٰذا صحيح ومتّجه، ولهٰذا قدمت في سورة الفاتحة العبادة على الاستعانة؛ لأنها أعظم شأنا وأجل خطرا لأنها هي التي وقع فيها الابتلاء، ولهٰذا كان حريا بأهل الإيمان أن يعتنوا بأمر إخلاص القلب لله جل وعلا، وتوجُّه المرء في عباداته وعبودياته لله وحده دون ما سواه.

ثم قال الشيخ رحمه الله تَعَالىٰ: (**وفي الحديث**: «**إِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ**») وجه الاستدلال: أن الأمر بالاستعانة بالله رُتِّبَ على إرادة الاستعانة، قال: «**إِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ**» يعني إذا كنت متوجّها للاستعانة فلا تستعن بأحد إلا بالله؛ لأن الأمر جاء في جواب الشرط، قال: «**إِذَا اسْتَعَنْتَ**»، (**إِذَا**) هٰذه شرطية غير جازمة، و«**اسْتَعَنْتَ**» هٰذا فعل الشرط، «**إِذَا اسْتَعَنْتَ**» إذا حصل منك حاجة للاستعانة فاستعن -هٰذا الأمر- فاستعن بالله، لما أمر به علمنا أنه من العبادة، ثم لما جاء في جواب الشرط صار مُتَرَتِّبًا مع ما قبله لما يفيد الحصر والقصر. وهو معنى ﴿**وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾.

ما حقيقة الاستعانة؟ الاستعانة طلب العون.

---

[1] انتهى الشريط الثالث.

- لأن كثيرا فيما أوَّلُه السين والتاء يدل على الطلب، استعان، استغاث، استسقى ونحو ذلك، استعان: يعني طلب الإعانة. استغاث: طلب الغوث. استعاذ: طلب العوذ. استقام: ما فيها طلب، هٰذه من النوع الثاني. استسقى: طلب السقيا. ﴿**وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ**﴾[البقرة:٦٠] يعني وإذ طلب موسى السقيا لقومه، هٰذا نوع.
- النوع الثاني؛ تأتي استفعل ويراد بها الفعل بدون طلب، كقوله: ﴿**وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ**﴾؛ وغني الله ﴿**وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾[التغابن:٦]، في أمثال ذلك.

المقصود أن كثيرا ما يأتي استفعل بطلب الفعل، هنا استعان طلب العون، استعاذ طلب العوذ، استغاث طلب الغوث، وهكذا.

فإذن إذْ كان جميعا في معنى الطلب، أو فيها معنى الطلب، يصلح دليلا لها كل ما فيه وجوب إفراد الله جل وعلا بما يحتاجه المرء في طلباته، في الدعاء؛ جميع أدلة الدعاء تصلح دليلا لما كان فيه نوع طلب؛ أي دليل فيه وجوب إفراد الله جل وعلا بالدعاء يصلح دليلا بإفراد الله جل وعلا بأنواع الطلب ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾[غافر:٦٠]، يصلح دليلا للاستغاثة، والاستعاذة والاستعانة ونحو ذلك.

بعد ذلك قال: (**ودليل الاستعاذة قوله تعالى**: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ** (١) **مَلِكِ النَّاسِ**﴾[الناس:١-٢]) الاستعاذة –كما ذكرتُ لك– هي طلب العوذ.

وأعوذ معناها: ألتجئُ وأعتصمُ وأتحرز، تقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، معناها ألتجئ وأعتصم وأتحرز بالله من شر الشيطان الرجيم.

فإذن الاستعاذة طلب العوذ، طلب المعتصَم، طلب الحِرز، طلب ما يعصم، طلب ما يحمي، هٰذه الاستعاذة.

وإذن هي من حيث كونها طلب هٰذه ظاهرة، ومن حيث كونها فيها الاعتصام والالتجاء والتّحرُّز صارت عبادة قلبية، ولهٰذا قال كثير من أهل العلم: **إنّ الاستعاذة عبادة قلبية**.

وطلب العوذ –نعم– يكون باللسان، بِقَوْل أحد لآخر: أعوذ بك، أعِذْني ونحو ذلك. ولكنها هي تقوم بالقلب؛ يعني يقوم بالقلب الاعتصام بهٰذا المطلوب منه العوذ، يقوم بالقلب الالتجاء لهٰذا المطلوب منه العوذ، يقوم بالقلب التحرّز بهٰذا المطلوب منه العوذ، فإذا قام بالقلب هٰذه الأشياء وهٰذه الأمور صار مُسْتعيذا، ولو لم يُفصح لسانه بطلب العَوْذ، يعني أنها عبادة قلبية، الاستعاذة عبادة قلبية؛ لأن حقيقتها طلب العوذ، فإذا قام بالقلب اعتصامه بالله احترازه وتحرُّزُه بالله، التجاؤه إلى الله من شر من فيه شر، صار ذلك استعاذة، قد يُفصح اللسان عنها، يطلب اللهم أعذني من مُضِلاَّت الفتن، يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أعوذ برب الفلق. ونحو ذلك، أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، يعني ألتجئ وأعتصم وأتحرز بكلمات الله الكونية التامة التي لا يلحقها نقص من شر كل من فيه شر، مما خلقه الله جل وعلا ونحو ذلك.

لأجل هٰذا المعنى قال جمع من أهل العلم: **إنه لا يجوز أن يقول قائل: أعوذ بالله ثُم بك**. وذلك لأن العوذ عبادة قلبية، وهٰذا هو الصحيح، فإن العوذ إذا قيل أعوذ بالله ثم بك، الاستعاذة عمل قلبي بحت، لهٰذا لا يصلح أن يتعلق بغير الله جل وعلا.

وقال آخرون من أهل العلم: **الاستعاذة طلب للَّجَإ والاحتراز والاعتصام**، وقد يكون المطلوب منه يُمكن ويَمْلك أن يعطي هٰذا معتصما، وأن يقيه شرا، مثلا: يأتي واحد من الناس إلى قوي من الناس إلى كبير، ملك، أو أمير أو رئيس قبيلة أو نحو ذلك، فيقول له: أعوذ بك، أو أعوذ بالله ثم بك من شر هٰذا الذي أتاني؛ رجل مثلا يأتي يطلبه بشيء، يقولون: هٰذا يمكن أن يكون؛ يعني أن يقيه شرا أن يمنعه ممن يريد به سوءا، يمكن أن يكون ممن يقدر عليه البشر، فإذا كان بهٰذا المعنى يجوز أن يقول: أعوذ بك بمخلوق، أعوذ بالله ثم بك بمخلوق.

ولكن قَول (أعوذ بك) ، هٰذا أبعد في الإجازة، وأما قول (أعوذ بالله ثم بك) ، فهٰذا من راع المعنى الظاهر، وإمكانَ المخلوق أن يعيذ صححه وقال لا بأس أن يقول: أعوذ بالله ثم بك. ولكن الأظهر أن العوذ عبادة قلبية، وأنها إنما تكون بالله جل وعلا.

هٰذا على نحو ما مرنا بقوله: توكلت على الله ثم عليك. ونحو ذلك.

فمن أهل العلم من يجيز مثل هٰذه الألفاظ مع أن أصلها عمل قلبي؛ عبادة قلبية، مراعيا الظاهر، ما يراعي تعلّق القلب، مُراعيا الحماية الظاهرة، مُراعيا التحرز الظاهر، مُراعيا الاعتصام الظاهر، ومنهم من لم يُجزْها مراعيا أنها عبادة قلبية، وأنك إذا أجزتها في الظاهر فإنه قد يكون تبعا لذلك الإجازة تعلق القلب عند من لا يفهم المراد.

وعلى العموم هما قولان مشهوران حتى عند مشايخنا المفتين في هٰذا الوقت ومن قبل.

يقابل الاستعاذة التي هي طلب العَوْذ، لأن طلب العوذ من شيء فيه شر، لهٰذا قال تعالى ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ**﴾[الناس:١-٤]، فالاستعاذة مما فيه شر.

وأما اللّياذ، واللَّوذ فإنه مما فيه خير، قال: ألوذ بك. يعني إذا كنت مؤملا خيرا، وإذا كنت خائفا من شر تقول لربك جل وعلا: أعوذ بك، وإذا كنت مؤملا خيرا تقول: ألوذ بك وهكذا.

ثم ذكر الاستغاثة، أولا الدليل، قال: (**دليل الاستعاذة قوله تعالى:** ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ**﴾) وجه الاستدلال أنه أمر نبيه الكريم أن يستعيذ برب الناس، وما دام أنه أمر به فهو عبادة قلبية، لأنه لا يأمر إلا بشيء يحبه ويرضاه، كذلك قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾[النحل:٩٨] أمر بالاستعاذة به فدل على أنها عبادة.

قال الشيخ رحمه الله: (**ودليل الاستغاثة قوله تعالى:** ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ**﴾[الأنفال:٩]) الاستغاثة: طلب الغوث، والغوث يُفسَّر بأنه الإغاثة، المدد، النُّصرة ونحو ذلك، فإذا وقع مثلا أحد في غرق ينادي أَغثني أغثني، يطلب الإغاثة، يطلب إزالة هٰذا الشيء، يطلب النُّصرة.

الاستغاثة عبادة؛ وجه كونها عبادة أن الله جل وعلا قال هنا ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ**﴾ وجه الاستدلال أنه أتى بها في معرض الثناء عليهم، وأنه رتّب عليها الإجابة، وما دام الله جل وعلا رتّب على استغاثتهم به إجابتَه جل وعلا دلّ على أنه يحبها، وقد رضيها منهم، فنتج أنها من العبادة، و﴿**إِذْ**﴾ هنا بمعنى حين ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ**﴾ يعني حين ﴿**تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ**﴾، وتلاحظ أنّ الآية هنا ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ**﴾ وقبلها ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ**﴾ الاستغاثة -كما ذكرتُ لك- والاستعاذة والاستعانة.. ونحو ذلك تتعلق بالربوبية كثيرا، هنا ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ**

رَبَّكُمْ﴾ قال قبلها: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ**﴾ لأن حقيقتها من مقتضيات الربوبية، من الذي يُغيث؟ هو المالك، هو المدبر، هو الذي يُصرِّف الأمر، وهو ربّ كل شيء جل وعلا.

الاستغاثة عمل ظاهر، ولهذا يجوز أن يستغيث المرء بمخلوق، لكن بشروطه، وهي أن يكون هذا المطلوب منه الغوث، أن يكون حيا، حاضرا، قادرا، يسمع.

فإذا لم يكن حيا كان ميّتا صارت الاستغاثة بهذا الميت كفرا، ولو كان يسمع ولو كان قادرا، [مثل الملائكة أو الجن]، قلنا: أن يكون حيا حاضرا قادرا يسمع، صحيح؟ طيّب، إذا لم يكن حيا كان ميتا، ولو اعتقد المستغيث أنه يسمع وأنه قادر، فإنه إذ كان ميتا فإن الاستغاثة به شرك.

الأموات جميعا لا يقدرون على الإغاثة؛ لكن قد يقوم بقلوب المشركين بهم أنهم يسمعون، وأنهم أحياء مثل حال الشهداء، وأنهم يقدرون مثل ما يُزعم في حال النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ ونحو ذلك.

فنقول: إذ كان ميتا فإنه لا يجوز الطلب منه.

قالوا: فما يحصل يوم القيامة من استغاثة الناس بآدم ثم استغاثتهم بنوح إلى آخر أنهم استغاثوا بنبينا محمد ﷺ.

نقول: هذا ليس استغاثة بأموات، يوم القيامة هؤلاء أحياء، يُبعث الناس ويُحيَوْن من جديد، كانوا في حياة ثم ماتوا ثم أعيدوا إلى حياة أخرى. فهي استغاثة بمن؟ بحي، حاضر، قادر، يسمع. بهذا ليس فيما احتجوا به من حال أولئك الأنبياء يوم القيامة حُجة على جواز الاستغاثة بغير الله جل وعلا، والاستغاثة بغير الله جل وعلا أعظم كفرا من كثير من المسائل التي صَرْفها لغير الله جل وعلا شرك.

إذن فالشروط:

⇦ أن يكون **حيا**: إذا كان ميّتا لا يجوز الاستغاثة به.

⇦ أن يكون **حاضرا**: إذا كان غائبا لا يجوز الاستغاثة به؛ حي قادر لكنه غائب. مثل لو استغاث بجبريل عليه السلام فليس بحاضر، حي نعم، وقادر قد يطلب منه ما يقدر عليه، ولكنه ليس بحاضر. مثل أن يطلب من حيٍّ قادر من الناس؛ يَطلب من ملك يملك أو أمير يستغيث به أغثني يا فلان، وهو ليس عنده، مع أنه لو كان عنده لأمكن بقوّته، لكنه لما لم يكن حاضرا صارت الاستغاثة–تعلُّق القلب– بغير حاضر هذا شرك بالله جل وعلا.

⇦ أن يكون **قادرًا**: إذا لم يكن قادرا فالاستغاثة به شرك، ولو كان حيا حاضرا يسمع، مثل لو استغاث بمخلوق بما لا يقدر عليه، وهو حي حاضر يسمعه، وتعلق القلبُ –قلب المستغيث– على هذا النحو، تعلق قلبُه بأن هذا يستطيع ويقدر أن يغيثه، بمعنى ذلك أنه استغاث بمن لا يقدر على الإغاثة، فتعلق القلب بهذا المستغاث به، فصارت الاستغاثة وهي طلب الغوث شركا على هذا النحو.

⇦ وكذلك **يسمعُ**: لو كان حيا قادرا، ولكنه لا يسمع، حاضر لا يسمع كالنائم ونحوه، كذلك لا تجوز الاستغاثة به.

وقد تلتبس بعض المسائل بهذه الشروط في أنها في بعض الحالات تكون شركا أكبرا، وفي بعض الحالات يكون منهي عنها من ذرائع الشرك، ونحو ذلك. مثل الذي يسأل ميت، يسأل أعمى بجنبه أو مشلول بجنبه أن يغيثه ونحو ذلك.

المقصود أن العلماء اشترطوا لجواز الاستغاثة بغير الله جل وعلا: أن يكون المستغاث به حيا حاضرا قادرا يسمع.

قال رحمه الله تعالى: (**ودليل الذَّبْحِ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** (١٦٢) **لا شَرِيكَ لَهُ﴾**[الأنعام:١٦٢-١٦٣]) الذبح الذي هو النحر، والذبح يشمل النحر الخاص ويشمل الذبح الذي هو قسيم النحر لأن:

النحر: هو الطعن بسكين أو بالحَرْبَة في الوَحدة، مثل ما يُفعل بالإبل كما تعلمون هي لا تذبح ذبحا، لكن هي تطعن في وَحدها وإذا طُعنت وحُرِّكت السكين واندثر الدم وماتت، ليس ثَم ذبح. كذلك البقر قد تُنحر.

وأما الذبح: فيكون في الغنم من الضأن والماعز وكذلك في البقر.[1]

الذبح والنحر عبادة، المقصود منها إراقة الدم، وإراقة الدم –من حيث هو- لا يكون إلا بتعلقٍ للقلب، فإذا أراق الدم لله جل وعلا تعلق القلب بالله جل وعلا.

فالذبح عبادة ظاهرة يتبعها أو يكون معها عبادة باطنة قلبية، فمن ذبح لغير الله وقع في شرك ظاهر؛ لأن هٰذه عبادة صرفها لغير الله، وكذلك قلبه تعلق بغير الله فصار شركه من جهتين.

وجه الاستدلال من قوله تَعَالىٰ: **﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** أنه قال: **﴿وَنُسُكِي﴾** والنُّسك فُسِّرت بعدة تفسيرات عن السلف منها الذّبح والنحر، وهٰذا كما قال جل وعلا في الآية الأخرى: **﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**(١)**فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾**[الكوثر:١-٢]، **﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾** أمره بأن يوحد الله جل وعلا بالصّلاة، وكذلك أمره بالنحر لربه جل وعلا وحده.

إذن النّسك هنا الذبح.

قال: **﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ﴾**

الصلاة لمن؟ لله. وجه اللام هنا أنها لام الاستحقاق، **﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي... لِلَّهِ﴾**، يعني صلاتي مستحقة لله، هٰذا وجه الاستدلال. **﴿وَنُسُكِي... لِلَّهِ﴾** يعني نسكي الذي هو ذبحي مستحقٌّ لله وحده لا شريك له.

﴿وَمَحْيَايَ... لِلَّهِ﴾ **﴿وَمَمَاتِي لِلَّهِ﴾**، هٰذه لام أخرى وهي لام المِلك، الصلاة والنسك لله استحقاقا، والمحيا والممات لله مُلكا؛ لأننا اللام قلنا أنها تأتي للاستحقاق وتأتي للملك، تذكرون؟

في هٰذه الآية جعل هٰذه الأفعال الأربعة: الصلاة والنسك والمحيى والممات، جعلها جميعا باللام مؤخرة، بقوله **﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** لكن تختلف، الصلاة والنُّسُك لله استحقاقا، والمحيا والممات لله جل وعلا مُلكا، فجمعت هٰذه الآية بين توحيدي الله جل وعلا: في إلٰهيته وهو الأول، وفي ربوبيته وهو الثاني.

﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي... لِلَّهِ﴾، هٰذا توحيد لله جل وعلا في إلٰهيته.

﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ﴾ هٰذا توحيد لله جل وعلا في ربوبيته.

---

[1] قال الشيخ صالح آل الشيخ في شريط أحكام الهدي والأضاحي: والمضحي ينحر الإبل ويذبح البقر والغنم لقوله جل وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾[البقرة:٦٧]، البقر يُذبح، وكذلك الغنم تذبح وصفة ذلك تأتي.

فكما أنه جل وعلا هو مالك محياي ومماتي، فكذلك هو المستحق لصلاتي ونسكي، قال جل وعلا لنبيه: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي**﴾ مستحقة لله، ﴿**وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي**﴾ مُلك لله جل وعلا ﴿**رَبِّ الْعَالَمِينَ** (١٦٢) **لا شَرِيكَ لَهُ**﴾ فذكر الربوبية ثم ذكر الألوهية.

ثم بيَّن أن هٰذا من علامات الإسلام العظيمة فقال ﴿**وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ**﴾ وهٰذا وجه استدلال آخر إذ أن هٰذه مأمور بها، قال ﴿**وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾.

الذبح كما أنه عمل ظاهر وهو إراقة الدم، والدم الذي بَثَّهُ في أعضاء المذبوح هو الله جل وعلا، وهو علامة الحياة، فلا يُزهق إلا لمن خلَقه ولمن بثَّه في أعضاء من به الحياة.

ولهٰذا قال العلماء: إنَّ العبد حال الذبح يجتمع في قلبه أنواع من العبوديات:

- منها الذلّ لربه جلّ وعلا.
- ومنها التَّعظيم له جلّ وعلا.
- ومنها الرجاء؛ رجاء ما عنده حال ذبحه.
- ومنها طلب البركة؛ لأنه ما ذبح إلا لله.

وهٰذه كلُّها عبادات قلبية، فكما أنَّ الذبح عمل ظاهر؛ به تحريك اليد، تحريك اللسان ببعض القول، كذلك يقوم بالقلب حال الذّبح أنواع من العبوديات.

قد ما يقوم بالقلب شيء البتة مثل ما يُذبح لضيافة أو يذبح لنحو ذلك، فهٰذا يجب أن يكون ظاهرا لله جل وعلا وحده، فإذا اجتمع أن يكون في الذبيحة، أن تكون اجتمعت فيها العبادة الظاهرة والعبادة الباطنة؛ العبادة القلبية، كانت أكمل في رجاء ثواب الذبح، ولو كان في الأمور العادية من ضيافة ونحوها.

فيكون الذبح لله جل وعلا ظاهرا لم يُرد بهٰذا إلا الله جل وعلا، وباسمه لم يذكر إلا اسم الله جل وعلا، ثم يكون بالقلب ذل لله جل وعلا وخضوع وتعظيم ورجاء المثوبة منه وحده، فتجتمع العبادات القلبية وعبادات الجوارح حال الذبح.

لهٰذا: الذّبح من العبادات العظيمة، لكن قد يغفل الناس عن تعلُّق القلب وفعل الجوارح حين الذبح، وكيف تكون لله جل وعلا.

ولهٰذا على طالب العلم أن يتعلم هٰذا إن لم يحسنه، يتعلّم كيف يكون حال الذبح؛ حال ذبحه لذبيحته للأضحية وهي آكد وآكد، أو لغيرها، أن يكون موحّدا تماما، يرجو في ذبحه أن يكون على غاية من العبودية في لسانه وقلبه وجوارحه؛ لأنه فيه حركة لسان للتسمية والتكبير، وفيه عمل القلب بأنواع من العبوديات ذكرتُ بعضها، وفيه أيضا حركة اليد، وهٰذا كله مما يجب أن يكون لله جل وعلا وحده.

قال: (**ومنَ السُّنَّة**: «**لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ**») وجه الاستدلال: أن من ذبح لغير الله لم يذبح لله، وإنما ذبح لغيره، أنه ملعون لعنه الله، وهٰذا الدعاء من النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ بقوله: «**لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ**» يدل على أن الذّبح

لغير الله كبيرة من الكبائر، وإذا كانت كذلك فهي إذن يُبغضها الله جل وعلا، وإذا كان يُبغض الله جل وعلا الذبح لغيره، فمعنى ذلك أن الذبح له وحده محبوب له، في المقابلة، فيستقيم بذلك الاستدلال.

قال بعدها: (**ودليلُ النَّذْرِ قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾[الإنسان:٧]**) **النذر**: هو إيجاب المرء على نفسه شيئا لم يجب عليه، وتارة يكون النذر مطلقا، وتارة يكون بالمقابلة مُقيّد، والنذر المطلق غير مكروه، والنذر المقيّد مكروه.

لهٰذا استشكل جمع من أهل العلم؛ استشكلوا كون النذر عبادة مع أن النذر مكروه، والنبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ يقول في النذر: «**إنه لا يأتي بخير وإنما يُستخرج به من البخيل**»[(١)].

يقولون: إذا كان مكروها كيف يكون عبادة؟ ومعلوم أن العبادة يحبها الله جلّ وعلا، والنذر يكون مكروها كما دل عليه هٰذا الحديث، فكيف إذا كان مكروها يكون عبادة؟

وهٰذا الاستشكال منهم غير وارد أصلا؛ لأن النذر ينقسم إلى قسمين: نذر مطلق، ونذر مقيد.

النذر **المطلق**: لا يكون عن مقابلة، وهٰذا غير مكروه، أن يوجب على نفسه عبادة لله جل وعلا بدون مقابلة، فيقول: لله عليَّ نذر، مثلا؛ يقول قائل: لله عليَّ نذر أن أصلّي الليلة عشرة ركعات طويلات. بدون مقابلة، هٰذا إيجاب المرء على نفسه عبادة لم تجب عليه دون أن يقابلها شيء، هٰذا النوع مطلق، وهٰذا محمود.

النوع الثاني **المكروه**: وهو ما كان عن مقابلة، وهو أن يقول قائل مثلا: إن شفى الله جل وعلا مريضي صُمْتُ يوما، إن نجحت في الاختبار صلّيت ركعتين، إن تزوجت هٰذه المرأة تصدقت بخمسين ريالا -مثلا- أو بمائة ريالا. هٰذا مشروط، يوجب عبادة على نفسه مشروطة بشيء يحصل له قَدَرًا، من الذي يحصِّل الشيء ويجعله كائنا؟ هو الله جل وعلا. فكأنه قال: إن أعطيتني هٰذه الزوجة، وإن يسّرت لي الزواج بها، صليت لك ركعتين أو تصدقت بكذا. إن أنجحتني في الاختبار صمت يوما ونحو ذلك، وهٰذا كما قال النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**إنما يُستخرج به من البخيل**»؛ لأن المؤمن المقبل على ربه ما يعبد الله جل وعلا بالمقايضة، يعبد الله جل وعلا ويتقرب إليه لأن الله يستحق ذلك منه، فهٰذا النوع مكروه. النوع الأول محمود، وهٰذا النوع مكروه.

والوفاء بالنذر في كلا الأمرين واجب كما قال النبي ﷺ: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**»[(٢)].

فتحصل عندنا أن النذر في أربعة أشياء:

نذر محمود -نحن ما نقول نذر مشروع فيفهم أحد أنه واجب أو مستحب، لا، نقول محمود، غير مكروه في الشرع، محمود وهو المطلق الذي ما فيه مقايضة ولا مقابلة-.

النوع الثاني مكروه وهو الذي يكون عن مقابلة.

---

(١) البخاري: كتاب القد ر، باب إلقاء النذر العبد إلى القدر، حديث رقم (٦٦٠٨).

مسلم: كتاب النذر، باب النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئا، حديث رقم (١٦٣٩). واللفظ له.

(٢) البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب النذر فيما لا يملك وفي المعصية، حديث رقم (٦٧٠٠).

الوفاء بالأول بنذر التبرّر والطاعة واجب.

الوفاء بالثاني حتى ولو كان مكروها واجب.

وهو الذي أثنى الله جل وعلا على أهله في الحالين بقوله: ﴿**يُوفُونَ بِالنَّذْرِ**﴾ لأنه أوجب على نفسه، فلما كان واجبا صار الوفاء به واجبا، فامتثل للوجوب الذي أوجبه على نفسه لأنه يخشى عقابه، فتحصّل أن هٰذه الأربع منها اثنتان واجبتان وهما الوفاء، وواحد محمود، وواحد مكروه، ولهٰذا صار غالب الحال-إذ كان عبادة- صار غالب الحال هو الحال التي أنه محمود فيها أو واجب.

وبهٰذا صار النذر عبادة من العبادات التي يرضاها الله جل وعلا ويحبها، إلا في حال واحدة وهي حال نذر المقابلة.

اتّضح لكم هٰذا المقام؟ لأن بهٰذا التحرير تخلصون من إشكالات عِدَّة، ربما أوردها عليكم خصوم الدعوة والخُرافيون في مسألة النّذر. ظاهر؟ تأمَّلوها لأنه قد لا تجد هٰذا التحرير في كثير من الكتب.

قال: (**ودليل النَّذْر قوله تعالى:** ﴿**يُوفُونَ بِالنَّذْرِ**﴾) وجه الاستدلال: أن الله جل وعلا امتدحهم بذلك بأنّهم يوفون بالنذر، وإذ امتدحهم بذلك دل على أن هٰذا العمل منهم وهو الوفاء بالنذر أنه محبوب له جل وعلا، فثبت أنه عبادة لله جل وعلا.

والنذر له شقان: الشق الأول النذر، والثاني الوفاء به.

وكلا الأمرين إذا صُرفت لغير الله جل وعلا فهي شرك.

- من نذر لغير الله، أن ينذر لأصحاب المشاهد والأولياء أو القبور، ينذر للمشهد الفلاني، ينذر مثلا للنبي ﷺ، أو ينذر لأحد من الموتى، ينذر لفاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أو ينذر لأحد آل البيت، أو لخديجة، أو ينذر لأحد من الأولياء أو نحو ذلك، يقول: عليَّ نذر للولي الفلاني، ولو كان غير مقابلة هٰذا إيجاب على نفسه عبادة لمن؟ لغير الله فصار شركا أكبر.

- القسم الثاني أن يقول: إن شفى الله-لاحظ- إن شفى الله مريضي فللولي الفلاني عليَّ نذر بكذا وكذا، فهٰذا على المقابلة، ولو كان على هٰذا النحو، فصرفه لغير الله جل وعلا شرك؛ لأن القول الأول منه وهو قوله: (إن شفى الله مريضي) هٰذا ربوبية، وقوله: (فللولي الفلاني عليّ نذر) هٰذا شرك في العبودية، هو أقر بالربوبية ولكنه أشرك في العبودية، هٰذا جهة النذر.

الوفاء لأصحاب القبور أو نحوهم، أو الجن، أو الملائكة، هٰذا كله شرك، فلو حصل منها النذر لغير الله فلا يجوز أن يوفِي به، فإن وفَّى به لغير الله سيكون ذلك شركا بعد شرك، لهٰذا قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**من نذر أن يعصيَ الله فلا يعصه**»، يدخل في ذلك إذا كان النذر لغير الله جل وعلا.

قال: ﴿**يُوفُونَ بِالنَّذْرِ**﴾ مدحهم بذلك، فدل أن وفاءهم بالنذر عبادة يحبها الله جل وعلا.

ونكتفي بهٰذا القدر اليوم، ونقف على الأصل الثاني وهو معرفة دين الإسلام بالأدلة.

أسأل الله جل وعلا لي ولكم الانتفاع والسداد.



بسم الله الرحمن الرحيم

[المتن]

الأصلُ الثَّاني: معرفةُ دينُ الإسلامِ بالأدلةِ، وهو الاستسلامُ لله بالتوحيد، والانقيادِ له بالطاعةِ، والخُلوصُ مِنَ الشِّركِ وأهله؛ وهو ثلاثُ مراتبَ: الإسلامُ، والإيمانُ، والإحسانُ، وكلٌّ مرتبةٍ لها أركانٌ.

فأركانُ الإسلامِ خمسةٌ: شهادةُ أنْ لا إله إلاّ اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، وإقامُ الصلاةِ، وإيتاءُ الزكاةِ، وصومُ رمضانَ، وحجُّ بيتِ اللهِ الحرامِ.

فدليلُ الشّهادةِ قولُهُ تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[آل عمران:١٨]، ومعناها لا معبودَ بحقٍّ إلا اللهُ وحده؛ (لا إلــه) نافيًا جميعَ مَا يُعْبدُ منْ دون اللهِ، (إلا الله) مُثْبتًا العبادةَ للهِ وحدَهُ لا شريكَ لهُ في عبادته، كما أنَّه ليس له شريك في مُلْكه، وتفسيرُها الذي يوضِّحُها قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الزخرف:٢٦-٢٨]، وقولُه تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران:٦٤].

ودليلُ شهادةِ أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ قولهُ تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[التوبة:١٢٨]، ومعنى شهادةِ أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ: طاعتُهُ فيما أَمَرَ، وتصديقُهُ فيما أَخْبَرَ، واجتنابُ ما عنْهُ نهى وزَجَرَ، وأنْ لا يُعبدَ اللهَ إلاَّ بما شَرَعَ.

ودليلُ الصلاةِ، والزكاةِ، وتفسيرُ التَّوحيدِ قولُه تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[البينة:٥].

ودليلُ الصيامِ قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة:١٨٣].

ودليلُ الحجِّ قولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[آل عمران:٩٧].

[الشرح]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فهٰذه الرّسالة تسمى ثلاثة الأصول وأدلتها.

فقد ذكر -رحمه الله تَعَالَىٰ وأجزل له المثوبة- الأصل الأول، فيما مرّ معنا وهو معرفة العبد ربَّه، ومعرفة العبد ربه، يعني به: معرفة العبد معبوده؛ لأن الرب هنا بمعنى المعبود، والربوبية بهٰذا الموقع بمعنى العبادة، لأنّ الابتلاء وقع فيها، هٰذا أصل من الأصول، والمقبور أو الميِّت يُسأل أوّل سؤال عن ربه، يعني عن معبوده الذي كان يعبده، من هو؟ فإن كان يعبد الله

وحده لا شريك له، أجاب بأن معبودي ربي الله يعني وحده لا شريك له، وإن كان يعبد مع الله آلهة أخرى والعياذ بالله، قال: ربي الله، وربي فلان، وربي فلان، وربي فلان. من المعبودات المختلفة، يعني معبودي فلان، ومعبودي فلان، ومعبودي فلان، مع الله جل وعلا[١] فيسأله منكر ونكير عن دينه: ما دينك؟ فلهٰذا كان لزاما أن يتعلّم العبد دينه بأدلة ذلك، حتى يخرج عن التقليد، ويكون اعتقاده بهٰذا عن علم ومعرفة وبصيرة، لا على وجه المتابعة للناس، ولهٰذا جاء في بعض طرق السؤال: ((**وأما المنافق أو قال الفاجر فيقول: هاه، هاه، لا أدري سمعت الناس يقولون شيئا فقلته.**))[٢] وهٰذا يدلّ على أنه يرى معهم على التقليد، وأن التقليد لا يسوغ في أصول الدين، هٰذه الأصول الثلاثة، التقليد في دين الإسلام، التقليد في العبادة، التقليد في الشهادة بأنّ محمدا رسول الله، لا يكفي.

فإذا قال قائل: أنا مسلم بحكم أني في بلد إسلام. وهو لم يعتقد هٰذه الأمور اعتقادا عن علم، ولو لمرة في حياته، ولو كانت قبل البلوغ، فإنه لا يَخلص من التبعة، فلا بد أن يعتقد ما يجب اعتقاده عن معرفة، وهي هٰذه الأصول الثلاثة، وعن معرفة وعلم ودليل، ولهـٰذا الشيخ رحمه الله كما ترى توسّع في الأدلة، كلّ مسألة يذكرها يذكر دليلا عليها، لأنّ المتعلّم يخرج به عن رِبقة التقليد لمن علّمه، فيكون اعتقاده كان عن دليل.

ولهٰذا ينبغي تعليم الصغار المميزين هٰذه الرسالة أو الكبار، يُعلّموها بأدلتها لا على وجه التفصيل كما نذكر في هٰذا الشرح، لكن نتعلم أن العبادة معناها كذا ودليلها كذا، فيعتقدها بدليلها، يعلم أن الله جل وعلا هو الذي فرض هٰذا الشيء، وهٰذا دليل المسألة، فيخرج عن رِبقَة التقليد بهٰذه المسائل العظام.

قال هنا رحمه الله تَعَالىٰ: (**الأصلُ الثَّاني: معرفةُ دينُ الإسلامِ بالأدلةِ**) ما هو الإسلام؟ قال: (**وهو الاستسلامُ للهِ بالتوحيدِ، والانقيادِ له بالطاعةِ، والخُلوصُ مِنَ الشِّركِ**) وهٰذه العبارة، وهي الأخيرة (**والخُلوصُ مِنَ الشِّركِ**) الصواب أنها (**والبراءة مِنَ الشِّركِ وأهله**) هٰذا هو الموجود في النسخ المعتمدة، أما (**والخُلوصُ مِنَ الشِّركِ**) فهٰذه ليست في النسخ المعتمدة، وهي في هٰذه الطبعة التي بين يدي، والصحيح في النسخ المعتمدة أن الإسلام (**هو الاستسلامُ للهِ بالتوحيدِ، والانقيادِ له بالطاعةِ، والبراءة مِنَ الشِّركِ وأهله**) ومن المعلوم أن (**والبراءة مِنَ الشِّركِ وأهله**) أدل على المراد من لفظ (**الخُلوصُ مِنَ الشِّركِ**)، لأن الخلوص من الشرك إنما هو خروج عن الشرك، وليس فيه معنى البراءة من الشرك وأهله، ولهٰذا كان الأصح أن يُجعل بدل (**الخُلوصُ مِنَ الشِّركِ**) في هٰذه النسخة، ما هو في النسخ المعتمدة الأخرى وهي أن الإسلام (**الاستسلامُ للهِ بالتوحيدِ، والانقيادِ له بالطاعةِ والبراءة مِنَ الشِّركِ وأهله**) وهٰذا هو الذي يناسب الاستدلال الذي استدل به الشيخ وهو قوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ** (٢٦) **إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي**﴾ فذكر البراءة وهو الذي يناسب هٰذا التعريف.

والإسلام يُراد به تارة الإسلام العام، ويراد به تارة الإسلام الخاص؛[٣] يأتي هٰذا في القرآن وهٰذا.

---

[١] انتهى الوجه الأول من الشريط الرابع.

(٢) سبق تخريجه في الصفحة (٢٢).

(٣) وهناك قسم ثالث وهو الإسلام الأخص وهو الذي يقابل الإيمان والإحسان.

فالإسلام العام: يراد به الإسلام الذي خوطب به جميع الناس من لدن آدم عليه السلام إلى أن يرث الله جل وعلا الأرض ومن عليها؛ بل خوطب به جميع المخلوقات كما قال جل وعلا: ﴿**أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**﴾[آل عمران:٩٨] أسلم له كل شيء كما قال ورقة بن نفيل[1] فيما أحسب قال:

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ لَهُ المُزْنُ تَحْمِلُ عذبًا زُلاَلاً

فالإسلام هٰذا العام، (**الاستسلامُ للهِ**) استسلام لله عن طواعية واختيار، هٰذا الإسلام العام الذي خوطب به جميع الخلق، حصل التكليف على آدم وبنيه قال جل وعلا: ﴿**وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ**﴾[الأحزاب:٧٢]، يعني حمل الإنسان الأمانة، وهي أمانة التكليف بالإسلام، قال جل وعلا: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ**﴾[آل عمران:١٩]، وهٰذا هو الإسلام العام الذي دعا إليه كل رسول وكل نبي من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ، الجميع يدعو إلى الإسلام، وهٰذا الإسلام يسميه العلماء الإسلام العام؛ الذي يشترك فيه جميع الرسل.

أما **الإسلام الخاص**: فهو القسم الثاني، وهو المراد هٰهنا، فمعرفة دين الإسلام لا يريد به دين الإسلام العام، وإنما بعد بعثة محمد ﷺ صار المقصود بالإسلام الذي طُلب من الناس أن يدينوا به، وأن يعتقدوه، هو الإسلام الذي جاء به النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، وهو دين الإسلام الخاص، حتى صار الإطلاق؛ إذا أُطلق الإسلام لا يراد به إلا دين الإسلام الذي بُعث به نبينا محمد ﷺ؛ الذي يشمل عقيدة الإسلام وشريعة الإسلام.

ثبت في الحديث الصحيح أنّ النبي ﷺ قال: «**لاَ يَسْمَعُ بِي أحدٌ من هٰذه الأمة وَلاَ يهودي ولا نصراني ثُم لا يؤمن بي إلا أكَبَّه الله في النار**»[2]، (**لاَ يَسْمَعُ بِي**) يعني ببعثتي برسالتي، وبما أرسلت به، ثم لا يؤمن بي أحد من هٰذه الأمة ولا يهودي ولا نصراني، وفي الرواية الأخرى «**أحد من هٰذه الأمة يهودي أو نصراني**»، المراد أمة الدعوة، «**ثم لا يؤمن بي إلا أكَبَّه الله في النار**»، فمن كان على دين الإسلام العام، وقد بُعث النبيّ ﷺ فإنه لا يُقبل منه، لا يقبل بعد بعثة النبي ﷺ من أحد إلا أن يتبع دين الإسلام الخاص، يعني الذي بُعث به النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، وهو المراد هٰهنا، وهو الذي يحصل به الابتلاء في القبر والفتنة في القبر، يحصل الابتلاء والفتنة بدين الإسلام الذي بُعث به محمد ﷺ.

قال: (**هو الاستسلامُ للهِ بالتوحيد**) الاستسلام أن يكون فاعله –فاعل الاستسلام– كهيئة المستسلم، والمستسلم لغيره تابع له؛ لا يفعل إلا ما يريد، خَلُص قلبه إلا من رغبة من استسلم له، ولو قال: وهو الإسلام لله بالتوحيد لصَحّ أيضا، فالاستسلام هنا بمعنى الإسلام، وله أسلم، ﴿**وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ**﴾[الزمر:٥٤]، كلها بمعنى الاستسلام والإسلام؛ الإسلام لله والاستسلام لله بمعنى واحد، قيَّدَها في هٰذا الموضع بقوله: (**بالتوحيد**)، والتوحيد يشمل توحيد الله

---

[1] ذكره ابن كثير ونسبه لزيد بن ورقة بن نفيل عند شرحه للآية ٥٧ من سورة الأعراف وقال بعده:

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ لَهُ الأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثِقَالاً

(٢) مسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى جميع الناس، حديث رقم (١٥٢).

جل وعلا في ربوبيته وفي ألوهيته وفي أسمائه وصفاته، والمقصود الأخص من هٰذه الثلاثة توحيد العبادة لأن الخصومة وقعت فيه، ومعلوم أن توحيد العبادة متضمن لتوحيد الربوبية ولتوحيد الأسماء والصفات.

ثم قال: (**والانقيادِ له بالطاعة**) الانقياد لله جل وعلا بالطاعة، يعني أن يكون منقادا غير ممانع ولا متولٍّ عن طاعة الله جل وعلا، إنما ينقاد ويُذعن، كما قال جل وعلا: ﴿**قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ**﴾[النور:٥٤]، أمر بطاعة الله وطاعة رسوله، يعني الانقياد لله وللرسول، فيما أمر الله جل وعلا به وفيما أمر به النبي ﷺ، قال: ﴿**فَإِنْ تَوَلَّوا**﴾ وأعرضوا ولم يذعنوا ولم ينقادوا ﴿**فَإِنَّمَا عَلَيْهِ**﴾ يعني على الرسول ﴿**مَا حُمِّلَ**﴾ ما حمل إياه وهو الرسالة، ﴿**وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ**﴾ وهو الاستجابة لله وللرسول.

فإذن هنا الانقياد له، بالطاعة لله جل وعلا، بطاعته وطاعة رسوله ﷺ الذي بعث بهٰذا الإسلام الأخير.

قال: (**والبراءة مِنَ الشِّرك وأهله**)، فُسّرت البراءة بعدة تفسيرات أصلٌ وفروعُه.

أصل البراءة البُغض في القلب، يعني بغض الشرك وأهله.

ويتبع ذلك؛ يتبع بُغضَهم معاداتُهم وتكفير من كفره الله جل وعلا ورسوله؛ تكفير المشركين ومقاتلتهم عند مشروعية ذلك.

وهٰذا هو معنى الكفر بالطاغوت أيضا، فإن الكفر بالطاغوت هو بُغضه ومعاداة أهله، وتكفير أهل الطاغوت؛ وهم أهل عبادة غير الله جل وعلا، وقتالهم عند مشروعية ذلك.

(**والبراءة مِنَ الشِّرك**) أصلها البغض.

يتبع البغض أشياء:

أولا: المعاداة.

ثانيا: التكفير، ومعلوم أن التكفير تَبَعٌ للعلم.

ثم قتالهم عند مشروعية ذلك، وذلك أيضا مستلزم للعلم.

فتلخّص أن على العامة وهم من ليسوا علماء عليهم من البراءة أصلها وهو البُغض، وأما فروعها فإنما هي بحسب درجات العلم، البغض لا بد أن يُبْغِض، فإن لم يبغض الشرك فإنه ليس بمسلم.

إذا كان يحب الإسلام وأهله، ويحب التوحيد وأهله، ولكن لا يبغض الشركَ وأهلَه فإنه ليس بمسلم.

لكن قد يبغض الشرك وأهل الشرك باعتبار الأصل، لكنه يحبّ بعض المشركين لغرض من أغراض الدنيا، فهٰذا ليس بمشرك، وإنما ناقص إسلامه، كما أوضحتُ لكم فيما سبق في تقسيم الموالاة إلى موالاة وتولّي.[1]

المقصود من هٰذا أن مسألة البراءة هٰذه؛ من الشرك وأهله، أصل البراءة البغض يتبعها أشياء: المعاداة، التكفير، المقاتلة، وكلها تبع للعلم، ويتنوع ذلك بحَسَب الناس، وأسهل ما يكون في الموحدين، عند الموحدين، عند عامّتهم، معاداة

(١) في الصفحة (١٦).

المشركين، ولو لم يكن عندهم من الحجة أو من بيان تكفيرهم، ومن إقامة الدّلائل على مشروعية مقاتلة أهل الشرك، فإنه قائم في قلبه بُغْضُهم ومعاداتهم، وهٰذا به يحصل الإسلام.

إذن تعريف الإسلام شمل ثلاثة أشياء:

أولا: الاستسلام لله بالتوحيد.

ثانيا: الانقياد لله بالطاعة.

الثالث: البراءة من الشرك وأهله.

نلاحظ أنه بهٰذا شمل هٰذا التعريف معنى الشهادتين كما سيأتي.

هٰذا الدين؛ دين الإسلام الذي جاء به نبينا محمد ﷺ ثلاث مراتب، قال الشيخ رحمه الله: (**وهو ثلاثُ مراتبَ**): (**الإسلامُ**) هٰذه مرتبة في دين الإسلام، نتيجة هٰذه المرتبة أن يحكم لأهلها بأنّهم مسلمون، (**والإيمانُ**) ونتيجة هٰذه المرتبة أن يحكم لأهلها بأنهم مؤمنون، (**والإحسانُ**) ونتيجتها أن يحكم لأهلها أنهم محسنون.

فالمحسن والمؤمن والمسلم، الجميع من أهل دين الإسلام، لكن لكل مرتبتُه الخاصة به، ﴿**هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللّهِ**﴾[آل عمران:١٦٣].

فالإسلام: هو إقامة الأعمال الظاهرة؛ الشهادتين مع الأركان الأربعة المعروفة؛ إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت، مع بعض الإيمان الذي يُصحح هٰذا الإيمان الظاهر.

والإيمان: الإيمان بأركانه الستة؛ لله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره مع بعض الإسلام الظاهر مع بعض العمل الظاهر الذي معه يصح هٰذا الإيمان الباطن.

والإحسان: هو مقام المراقبة لله جل وعلا.

قال: (**وكلُّ مرتبة لها أركانٌ. فأركانُ الإسلامِ خمسةٌ**) ذكرها، ثم ذكر الأدلة على ذلك فقال: (**فدليلُ الشّهادةِ قولُهُ تعالى**: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾[آل عمران:١٨]) وجه الاستدلال: أن الله جل وعلا شهد بذلك لنفسه، وشهد له بذلك الملائكة، وهم عُمَّار السماء، وشهد له بذلك أيضا أولوا العلم من الثقلين، قال جل وعلا: ﴿**قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ فبعد أن شهد بذلك لنفسه، وأخبر بشهادة ملائكته له بذلك، بشهادة أولي العلم له بذلك، أخبر مرة أخرى في مضمون ذلك فقال: ﴿**لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ واضح ظاهر وجه الاستدلال من هٰذه الآية.

ما معنى **لا إلــٰه إلا الله**؟ قال: (**معناها لا معبودَ بحقٍّ إلا اللهُ وحده**)، **لا إلــٰه إلا** الله، أربع كلمات: (**لا**) ثم (**إلــٰه**) ثم (**إلا**) ثم (**الله**).

معنى (**لا**) هٰذه حرف لنفي الجنس، وهي من أخوات **إنَّ**، أو تعمل عمل إنَّ كما قال ابن مالك:

عَمَلَ إنَّ اجْعَلْ لِــلاَ فِي نَكِــرَة ....

ويكون اسمها نكرة، كما قال هنا (لا إلـه)، إلـه؛ الإله فعال بمعنى مفعول يعني معبود، إله بمعنى مألوه يعني معبود؛ لأن الإلهة بمعنى العبادة، والألوهة بمعنى العبودية، وأصلها من: أَلَهَ يَأْلَهُ، إِلَهَةً، وألوهة؛ إذا عبد مع الحب والخوف والرجاء؛ إذا عبد عابدٌ ما يعبده خائفا راجيا محبا فإنه يكون قد أَلهه، قال الراجز برَجَزِه المشهور[1]:

لِلَّــــــه دَرُّ الغانِيـــــاتِ المُـــــدَّه سَــــبَّحْنَ وَاسْـــتَرْجَعْنَ مِـــنْ تَـــأَلُّهِي

يعني من عبادتي التأله هو العبادة يعني (**لا إله**) كما قال هنا: (**معناها لا معبودَ**)، فسر الإله بمعنى المعبود، لأن ذلك الذي يقتضيه لسان العرب، وكذلك هو الذي جاء في القرآن، قال جل وعلا: ﴿**الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** (١) **أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ**﴾[هود:١-٢]، والذي جاء من عند الله جل وعلا هو **لا إله إلا الله** قال هنا: ﴿**أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ**﴾ فتفسير الإله بالمعبود، هٰذا موافق للقرآن وموافق للغة العرب.

وبه تعلم أنّ من فسر الإله بالرب يعني القادر على الاختراع، كما هو تفسير أهل الكلام المذموم والأشاعرة والماتريدية ونحوهم، فإنّ هٰذا من أبطل ما يكون؛ لأنه مناقض للغة العرب وتردُّه لغة العرب، ومناقض للقرآن ويردُّه القرآن والسنة، فإن مادة الإله غير مادة الرب، والإله هو المعبود كما أوضحت لكم في الاشتقاق، يقولون: معنى (**لا إله**) أي لا قادر على الاختراع (إلا الله). ولهٰذا لا يكفرون من أشرك مع الله جل وعلا إلها آخر في العبادة، يقولون: ما دام أنه مقر بتوحيد الربوبية، وبأن الله جل وعلا هو المتوحّد في أفعاله؛ برَزقه وإحيائه وإماتته، وفي تدبيره الأمر، وفي ملكه، وفيما يفعل، فإن هٰذا مؤمن. وهٰذا باطل.

وبعضهم يفسر الإله بتفسير آخر يرجع إلى معنى الربوبية، يقول أحد كبار وأئمة الأشاعرة، وهو السَّنوسي في كتابه المعروف **بأم البراهين** في العقائد الأشعرية يقول: فالإله هو المستغني عما سواه، المفتقر إليه كل ما عداه.

يقول: فمعنى (لا إله إلا الله) لا مستغنيا عما سواه، ولا مفتقرا إليه كلّ ما عداه إلا الله.

فصار معنى كلمة التوحيد عندهم؛ توحيد الله جل وعلا، توحيد الله جل وعلا في ربوبيته.

وهٰذا من أبطل الباطل؛ لأن المشركين قد أخبر اللهُ جل وعلا في كتابه بأنهم مقرُّون بهٰذا الذي جعله معنى كلمة التوحيد، يقول معنى لا إله إلا الله لا مستغنيا عمّا سواه، ولا مفتقرا إليه كل ما عداه إلا الله.

أرأيتم أبا جهل وصَحْبَه ألم يكونوا موقنين بأنه لا مستغنيا عما سواه ولا مفتقرا إليه كل ما عداه إلا الله؟ هم يؤمنون بذلك كما بيّنه الله جل وعلا في القرآن في آيات كثيرة جدا كقوله: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾[العنكبوت:٦١]، ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾[الزخرف:٨٧]، ﴿**قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ**﴾إلى آخر الآية، قال: ﴿**فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ**﴾[يونس:٣١]، ﴿**قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾[المؤمنون:٨٦]، ﴿**قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**(٨٨)**سَيَقُولُونَ لِلَّهِ**﴾[المؤمنون:٨٨-٨٩] إلى آخر ما جاء في هٰذه الآيات.

[1] هو رؤبة بن عبد الله العجاج المتوفي سنة (١٤٥هـ) قال عنه الخليل لما مات: دفنّا الشعر واللغة والفصاحة.

إذن فتفسير (لا إله إلا الله) بأنها لا معبود إلا الله هذا التفسير ليس تفسيرا اجتهاديا، وإنما هو تفسير قرآني لهذه الكلمة، قال جل وعلا: ﴿**مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** (١) **أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ**﴾[هود:١-٢].

فمن زعم أن هذا التفسير من اجتهادات إمام هذه الدعوة، فهذا مناقض أو راد أو جاهل بالقرآن العظيم، فإن الذي فسر الإلهية بهذا المعنى هو الله جل وعلا في كتابه في غير ما آية، قال جل وعلا: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾[المؤمنون:٢٣] وهذا واضح ﴿**مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾ أتى بعد أمرهم بعبادة الله جل وعلا وحده دون ما سواه، وهذا مبيَّن كثير في الكتاب والسنة، والنبي ﷺ قال لحصين بن عبد الرحمـٰن: «**كم إلها تعبد؟**» قال: أعبد سبعة، ستة في الأرض وواحد في السماء. قال: «**فمن ذا الذي تُعدُّ لرغبك ولرهبك؟**» قال: الذي في السماء.[1]

فهذا معنى الإلهَ، وهذا معنى (لا إلـٰه) ، أي لا معبود، فهذا التفسير تفسير من القرآن، تفسير جاء من الله جل وعلا ومن نبيه ﷺ، ليس تفسيرا اجتهاديا من أئمة هذه الدعوة كما زعمه الخرافيون وأعداء التوحيد.

إذن هنا قال: (**معناها لا معبودَ بحقٍّ إلا اللهُ**) الكلمة الثانية (**إلـٰه**) الكلمة الثالثة (**إلا**) و(**إلا**) هذه عند بعض العلماء أداة استثناء، وعند بعضهم أداة حصر، فصار معنى (**لا إلـٰه إلا الله**) لا معبود إلا الله، خبر (**لا**) أين هو؟ لا معبود إلا الله، يعني لا معبود موجود إلا الله؟ لا معبود بحق إلا الله؟ لا معبود يُعبد إلا الله؟ خبر (**لا**) أين هو؟

قال العلماء: خبر (**لا**) محذوف، ذلك لأن العرب ترى في لغتها أن خبر (لا) النافية للجنس يحذف خبرها إذا كان واضحا. ومن الواضح أن المشركين لم ينازعوا في وجود آلهة أخرى يعلمون أن هناك آلهة كثيرة موجودة، لهذا لا يصلح أن يقال: أن خبر (**لا إلـٰه) موجود**؛ لأنهم قالوا: ﴿**أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا**﴾[ص:٥] لو كان خبر (**لا إلـٰه) موجود**، قالوا له هذه الآلهة موجودة، فكلمتك هذه ليست بصحيحة، لكن الخبر معلوم لأنه زُبدة الرسالة، وهو ما قدّره الشيخ هنا (**بحقٍّ**) أو يقدر (**حقٌّ**) بدون الباء، وذلك لأن خبر (**لا**) إذا حذف قُدر بالمناسب الذي يعلم، وإذا حُذِفَ الخبر كان لأجل العلم به ولوضوحه، كما قال ابن مالك في الألفية في آخر (باب لا النافية للجنس) يقول: وَشَاعَ فِي ذَا الْبَابِ يعني باب لا النافية للجنس؛

وَشَاعَ فِي ذَا الْبَابِ إِسْقَاطُ الخَبَر إِذَا الْمُرَادُ مَعْ سُقُوطِهِ ظَهَــــر

إذا ظهر المراد مع الحذف فإنه يُحذف، ولهذا لا يُحذف خبر لا النافية للجنس إلا إذا كان واضحا، إذا كان الخبر واضحا، وهنا الخبر واضح لأنه هو زبدة الرسالة؛ زُبدة ما بُعث به النبي ﷺ، بل هو عين ما بعث به النبي ﷺ، أن يكون تقدير الكلام: لا معبود حقٌّ إلا الله؛ لأن النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ بُعث لتوحيد الله جل وعلا بالعبادة ولإبطال عبادة غيره، وأنه لا معبود حق إلا الله وأنّ كل معبود سوى الله جل وعلا فعبادته بالباطل والظلم والطغيان والتعدي من الخلق.

فإذن هنا حُذف لأنه معلوم، فصار تقديره لا إله حق –أو لا إله بحق– إلا الله، وذلك لأنّ الله جل وعلا قال: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**﴾[لقمان:٣٠]، وفي الآية الأخرى: ﴿**ذَلِكَ**

---

(١) سنن الترمذي: كتاب الدعوات، باب (٧٠)، حديث رقم (٣٤٨٣)، قال الترمذي: حديث حسن، قال الشيخ الألباني: ضعيف.

بأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[الحج:٩٢] قال: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ**﴾، فلما كانت هٰذه الآية وقد جاءت في القرآن في سورتين مشتملة على أنّ عبادة الله حقّ، وأن عبادة غيره باطلة، ناسب أن يكون المحذوف هنا كلمة (**حقّ**) أو كلمة (**بحقٌّ**)؛ لا إله بحق أو لا إله حق، لأنها هي التي دلت عليها الآيات.

إذن فصار معنى (لا إله إلا الله) لا أحد يستحق العبادة إلا الله جل وعلا، لا معبود بحق إلا الله، هناك معبودات غير الله جل وعلا، ولكنها معبودات بحق أو بالباطل؟ معبودات بالباطل، وصار التقدير هٰذا من أنسب ما يكون.

قال: (**معناها لا معبودَ بحقٍّ إلا اللهُ وحده**) فسر ذلك بقوله: ((**لا إله**) **نافيًا جميعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دونِ الله**) يعني الذي يقول: (لا إله إلا الله)، ماذا يقول حين يقول: (لا إله) ؟ يقول: أنفي جميع ما يعبد من دون الله، (إلا الله) تقول وأُثبت العبادة لله وحده، لأن (لا إله إلا الله) نفي وإثبات؛ نفي لاستحقاق العبادة عما سوى الله وإثبات للعبادة المستحقّة لله جل وعلا.

قال رحمه الله هنا: (**لا شريكَ لهُ في عبادتِهِ، كما أنَّه ليس له شريكٌ في مُلْكِهِ**) عدم الشَّرِكَة في الملك تتنوع أحيانا؛ تكون –الشركة في الملك يعني مطلقا دون إضافتها إلى الله طبعا– الشركة في الملك تكون:

⇦ بأنْ يكون لكل شريك قسم خاص ليس مشاعا، له قسم خاص مما اشتركا فيه؛ اشتركت أنا وأنت في ملك إبل مثلا لك خمسون و لي خمسون معروفة، هٰذه خمسيني معروفة بأعيانها، وهٰذه خمسون لك معروفة بأعيانها، أو اشتركت أنا وأنت في كتب معروفة، هٰذه الكتب لك وهٰذه الكتب لي، هٰذه شركة، كل من الشريكين له قسمه استقلالا.

⇦ الثاني أن تكون شركة مشاعة؛ للشريكان شركة مشاعة، هٰذا وهٰذا مشتركان في ملك لا يتميز ملك أحدهما عن الآخر، بل هو لهما جميعا.

الله جل وعلا بَيَّن في القرآن أنّه لو كان له شريك في الملك –في ملكه– لابتغى إليه سبيلا، قال جل وعلا: ﴿**لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً**﴾[الإسراء:٥٢]، ولو كان معه آلهة؛ معبودات تستحقّ العبادة فعلا، ما الذي يلزم من ذلك؟ يلزم أنه لهم نصيبا في ملك الله، بأنه لا يستحق العبادة إلا من يملك النفع والضر ﴿**لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً**﴾، قال: ﴿**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا**﴾[الإسراء:٤٣]، ليس مع الله أحد في ملكه؛ بل هو المتوحد في ملكه، ينتج من ذلك ويلزم أنه هو المستحق للعبادة وحده.

لهٰذا قال له هنا: (**لا شريكَ لهُ في عبادتِهِ، كما أنَّه ليس له شريك في مُلْكِهِ**)، لهٰذا يقول العلماء: إن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلهية، الإقرار بأن الله عز وجل ليس له شريك في ملكه لا على وجه الاستقلال ولا على وجه الإشاعة؛ شيوع، هٰذا يلزم منه لزوما أكيدا أنّ الله جل وعلا وهو الواحد في استحقاقه العبادة، لا يستحقّ العبادة إلا هو، هو وحده المستحقّ للعبادة لا شريك له، كما أنه هو وحده الذي له الملك لا شريك له، كما جاء في آية الأنعام: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** (١٦٢) **لا شَرِيكَ لَهُ**﴾[الأنعام:١٦٢-١٦٣] قد بينت لكم معناها، وأن معناها ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي**﴾ لله استحقاقا ﴿**وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ**﴾ ملكا ﴿**لا شَرِيكَ لَهُ**﴾ في عبادته و﴿**لا شَرِيكَ**

﴿لَهُ﴾ في ملكه **﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾** هٰذا معنى الآية، وهٰذا التفسير للشيخ لكلمة التوحيد تفسير ضابط ظاهر.

أيضا قال: (**وتفسيرُها الذي يوضِّحُها قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾**[الزخرف:٢٦-٢٨])، قال: **﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾** ماذا قال إبراهيم؟ المقول سيأتي، قال: **﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾** اشتملت كلمته هٰذه على نفي وإثبات؛ على بُغض ومحبة، فشقها الأول؛ جزؤها الأول نفي وبغض قال: **﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾** هٰذا فيه نفي ما دام أنه تبرأ منها في نفي لاستحقاقها العبادة، ومن معنى البراءة البغض، أو معنى البراءة البغض، فاشتمل قوله: **﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾** على النفي والبغض، ثم أتى بالإثبات والمحبة فقال **﴿إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾**؛ أُثبتُ له العبادة، ثم أتى بما يدل على المحبة فقال: **﴿إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾**، محبة فيها الرجاء.

هٰذه كلمة وهي معنى لا إله إلا الله لأنها اشتملت على براءة وعلى ولاء، اشتملت على بغض و على محبة، اشتملت على نفي وعلى إثبات.

قال: **﴿وَجَعَلَهَا﴾** يعني تلك الكلمة **﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾** يعني في ولد إبراهيم، ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء، والأنبياء من بعده جاؤوا لتقرير هٰذه الكلمة، قال: **﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾** يرجو أن يرجع إليها عقبه من بعده، **﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾** يعني إليها، أيضا يفسرها قوله تعالى **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾**[آل عمران:٦٤]، قل -يا محمد-: يا أهل الكتاب؛ يا أهل التوراة ويا أهل الإنجيل ويا أهل الزبور، **﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾** إلى كلمة وسط، كلمة عدل بيننا وبينكم، نعلم أنه قد جاء بها رسولُكم، وقد جاء بها محمد ﷺ، ما هٰذه الكلمة؟ **﴿أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾**[آل عمران:٦٤]، وجه الاستدلال: أن هٰذه الكلمة بيننا وبينهم وهي كلمة التوحيد، تفسيرها أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، هٰذا واضح؛ التفسير لكلمة التوحيد، قال مؤكدا معناها: **﴿وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾**[آل عمران:٦٤]، يعني آلهة من دون الله؛ لأنهم ما ادّعوا في الخلق أنه رب، بمعنى أنه يخلق استقلالا، ويرزق استقلالا، ويحيي ويميت استقلالا، هٰذا ما اُدعي، وكان تفسير الربوبية هنا بالإلهية، قال: **﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾**[آل عمران:٦٤]، آخر الآية يبين أن من ترك ما دل عليه أوّلها فإنه ليس بمسلم؛ لأنه قال: **﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾** إذْ خالفناكم، وإذْ لم تذعنوا لهٰذه الكلمة سواء التي بيننا وبينكم **﴿أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾**، فأنتم لستم من أهل الإسلام.

قال بعد ذلك: (**ودليلُ شهادة أنَّ محمدًا رسولُ الله قولهُ تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾**[التوبة:١٢٨])، **﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾** هٰذا قسَم، اللام هٰذه هي التي تسمى الموطِّئة للقسم، دائما تصحب قد؛ **﴿لَقَدْ﴾**، نعلم أن ثم قَسَما محذوفا: والله لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ، هنا المُقْسِم هو الله جل وعلا، أقسم بأنه قد جاءكم رسول، وهٰذا لتأكيد الكلام وتعظيمه بأنفس السامع؛ لأنه أُكِّد بالقسم، والمقسِم هو الله، والمقسَم به هو الله جل وعلا، على مجيء الرسول لنا من أنفسنا، **﴿مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾** يعني من جنسكم، من بني جلدتكم، يتكلم بلسانكم وتعقلون عنه، هٰذا واضح الدِّلالة على الشهادة بأنّ محمدا رسول الله، لأن

معنى شهادة أن محمدا رسول الله أن تعتقد أنَّ محمدا أرسله الله جل وعلا بدين الإسلام، تعتقد ذلك اعتقادا يصحبه قولٌ وإخبار عنه، وهٰذه الآية واضحة الدِّلالة على المراد.

بيّن معنى شهادة أن محمدا رسول الله، قال: (**ومعنى شهادةِ أنَّ محمدًا رسولُ الله: طاعتُهُ فيما أَمَرَ**) هٰذا التفكير والمعنى بالمقتضى، يعني معناها الذي تقتضيه؛ تقتضي طاعتُه فيما أمر، إذن فمعنى شهادة أن محمدا رسول الله طاعتُه فيما الأمر، كونك شَهِدتَّ أنه مرسل من عند الله، معنى ذلك أنه إذا أمرك فإن الآمر هو الله جل وعلا، كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داوود وغيره، الحديث الصحيح قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**ألا وإن ما حرّم رسول الله مثل ما حرّم الله**»[1] إذا اعتقدت أن هٰذا الذي جاء به محمد ﷺ لم يأتِ به من عنده وإنما هو رسول، فمعنى ذلك أن تطيعه فيما أمر، هٰذا مقتضى لكونك شهدت بأنه رسول الله، فإن لم تطعه فيما أمر اعتقادا أنه لا يطاع، كان ذلك تكذيبا لشهادته، فمن قال: أشهد أنّ محمدا رسول الله. وهو يعتقد أنه لا تلزمه طاعة الرسول ﷺ، فحاله حالُ المنافقين؛ شهادته مردودة، كاذب في شهادته، وأما إذا اعتقد أنه تجب عليه طاعة الرسول ﷺ فيما أمر وخالف لغلبة هوى، فهٰذا يكون عاصيا قد نَقَصَ من تحقيقه لشهادة أن محمد رسول الله بقدر مخالفته.

قال: (**وتصديقُهُ فيما أَخْبَرَ**) ما أخبر به النّبي ﷺ من الغيب وحي من عند الله، ولا يتخرّص عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، لهٰذا ما أتى به من أخبار الغيبيات، يعني الكلام على الله جل وعلا، أسمائه وصفاته وأفعاله، عن الجنة والنار، عن أخبار الغيب، عن قصص الماضين، هو كله بوحي من الله جل وعلا، فمقتضى أنك شهدت أنه رسول الله أن تصدِّقه فيما أخبر، وألا يكون في قلبك شك، في أن ما أخبر به حقّ، وأن كل خبر أخبر به النبي ﷺ[2] نقول: عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ فيه صادق. ولو كنا لا نرى ذلك الشيء، كما ثبت في الصحيحين من حديث ابن مسعود أنه قال: حدثني الصادق المصدوق. يعني به رسول الله ﷺ، فالمؤمن يصدق رسول الله بما أخبر به، سواء عقل ذلك أو لم يعقله، وسواء أدرك ذلك بنظره أو لم يدركه، فقد كان الصحابة يتناقلون فيما بينهم الأخبار الكثيرة عن رسول الله ﷺ بأن عيسى بن مريم عليه السلام سيترل، وكان أبو هريرة إذا حدث بهٰذا الحديث يقول لأصحابه، ولمن ينقل عنه الحديث لتلامذته، يقول: فإذا لقيه أحدكم فليقرئه مني السلام. تصديق لا يصاحبه شك، إذا كان المؤمن يعتقد أنه رسول الله، فمعنى ذلك أن كل خبر أخبر به فهو حق، بلا شك وبلا ريب عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ.

قال –ومن معناها–: (**واجتنابُ ما عنْهُ نَهى وزَجَرَ**) والأصل في النهي والزجر التحريم؛ لأنها نهي زاجر كما هو مقرر في الأصول، فما نهى عنه الرسول ﷺ أو زجر عنه أو حرمه فإنه يجب اجتنابه طاعةً له عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، كما قال جل وعلا: ﴿**وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**﴾[الحشر:٧]، وما أتاكم الرسول من الأوامر أو من الأخبار فخذوه امتثالا للأمر وتصديقا بالخبر، وما نهاكم عنه فانتهوا، ما نهاكم عنه يجب عليكم أن تتركوه طاعة لله جل وعلا ولرسوله، وهنا نقول مثل ما قلنا أولا: إن من لم يجتنب ما نهى عنه الرسول ﷺ وزجر، اعتقادا أنه لا يجب عليه الانتهاء، يعني لم يلتزم ذلك، لم يلتزم أنه مخاطب بهٰذه المنهيات، فهٰذا قدْحٌ في الشهادة، فلا يكون شاهدا بأن محمدا

(١) سنن ابن ماجه: باب اتباع سنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حديث رقم (١٢). قال الشيخ الألباني: صحيح.

(٢) انتهى الشريط الرابع.

رسول الله، وإن كان يقولها بلسانه، وإن التزم ذلك، قال: نعم، نلتزم بالذي نهى عنه النبي ﷺ ويجب تركه. لكن غلبته نفسه وخالف ذلك قليلا كانت المخالفة أو كثيرة في نفسه أو في غيره، فإن ذلك يكون نقصا في شهادته ومعصية لله ولرسوله.

قال: (**وأنْ لا يعبدَ اللهَ إلاَّ بما شرَعَ**) يعني لا يُعبد بالبدع والأهواء والمحدثات، وإنما يُعبد الله جل وعلا بالطريق وعلى الطريق التي بيّنها نبيه ﷺ، لا يُعبد الله جل وعلا بالأهواء والآراء والاستحسانات المختلفة، إنما يُعبد الله جل وعلا عن طريق واحدة وهي طريق الرسول ﷺ بما شرعه هٰذا الرسول، فإذا اعتقد المسلم ذلك كمُلت له شهادته بأن محمدا رسول الله وصار مسلما حقا.

بعد ذلك قال: (**ودليلُ الصلاةِ، والزكاةِ، وتفسيرُ التَّوحيدِ قولُه تعالى:** ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**﴾[البينة:٥]) بيّن أن هٰذه الأشياء مأمور بها، وهي دليل على أنها من دين الإسلام، ثم ذكر دليل الصيام، ثم ذكر دليل الحج وهٰذه واضحة ظاهرة.

بهٰذا يتبين المرتبة الأولى من الأصل الثاني؛ ألا وهي مرتبة الإسلام، وأعظم أركان الإسلام الشهادتان، فعلى طالب العلم أن يكون معنى الشهادتين واضحا في قلبه، واضحا في ذهنه، فاهما له، بحيث يستطيع أن يعبر عن ذلك بأيسر عبارة وبتنوع العبارة، لأن أعظم ما يدعا إليه ما دلت عليه الشهادتان، فعلى طالب العلم أن يعوّد لسانه على تفسير الشهادتين بتنويع العبارة، وعلى حفظ الأدلة التي فيها معنى الشهادتين، وعلى تفسير ذلك، وإذا دَرَبَ على ذلك، فسوف يرى أنه ستفتح له أبواب بفضل الله جل وعلا وبرحمته بمعرفة التوحيد وحسن التعبير عنه، وأما أن يترك طالب العلم نفسه لفهم ما دلّت عليه، دون أن يمرّن نفسه على تأدية المعنى وتعليمه لأهله وللصغار، ولمن حوله ولمن يلقاه ممن لا يعلم حقيقة معنى هٰذه الكلمة، فإن هٰذا تضيعه النفس ولا يصدق على فاعله أنه طالب العلم؛ لأن العامي هو الذي يفهم ذلك؛ يفهم ذلك فهما، لكن لا يستطيع أن يعبّر عن فهمه بالتعبير العلمي الصحيح، وأما طالب العلم فعليه أن يهتم بأصل الأصول ألا وهو تفسير الشهادتين، ومرّ معنا بعض ما يتصل بتفسيرها.

أسأل الله جل وعلا أن يُلهمني وإياكم الرشد والسداد، وأن يجعل ألسنتنا لاهجة بالثناء عليه وبذكره، وجوارحنا مقيمة على طاعته، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.



بسم الله الرحمن الرحيم

[المتن]

مرتبةُ الإيمانِ: الإيمانُ، وهو بضعٌ وسبعونَ شعبَة، فأعلاها قولُ لا إله إلاّ الله، وأدْناها إماطةُ الأذَى عنِ الطريقِ، والحياءُ شعبةٌ مِنَ الإيمان، وأركانُهُ ستَّة: أنْ تؤمنَ بالله، وملائكَته، وكتبِه، ورُسُله، واليومِ الآخرِ، وبالقَدَرِ خيرِه وشرِّه، والدليلُ على هٰذه الأركانِ الستَّة قولُه تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾[البقرة:١٧٧]**، ودليلُ القَدَرِ قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾**[القمر:٤٩].

[الشرح]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

قد ذكر المؤلف -رحمه الله وأجزل له المثوبة- أنّ الأصل الثاني من ثلاثة الأصول العظيمة: هو معرفة دين الإسلام بالأدلة، وذكر أن دين الإسلام مبني على ثلاث مراتب، فالأولى هي مرتبة الإسلام، وبيّن ذلك وفسّره، وذكر الأدلة على ذلك، ثم قال رحمه الله: (**مرتبةُ الإيمانِ: الإيمانُ، وهو بضعٌ وسبعونَ شعبَة، فأعلاها قولُ** (**لا إله إلاّ الله**)**، وأدْناها** (**إماطةُ الأذَى عنِ الطريقِ**) **، والحياءُ شعبةٌ مِنَ الإيمان، وأركانُهُ ستَّة: أنْ تؤمنَ بالله، وملائكَته، وكتبِه، ورُسُله، واليومِ الآخرِ، وبالقَدَرِ خيرِه وشرِّه، والدليلُ على هٰذه الأركانِ الستَّة قولُه تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾**[البقرة:١٧٧]**، ودليلُ القَدَرِ قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾**[القمر:٤٩]) انتهى كلامه رحمه الله.

هٰذه المرتبة الثانية، وهي مرتبة الإيمان، والإيمان أصله:

في **اللغة**: كما سبق أن ذكرت لكم هو التصديق الجازم، فهو تصديق وجزم.

وفي **الشرع**: الإيمان قول وعمل واعتقاد، أو نقول الإيمان في الشرع قول وعمل؛ لأن القول هو قول اللسان وقول القلب، والعمل عمل القلب وعمل الجوارح.

فإذا قال من قال من أهل السنة: إن الإيمان قول وعمل. فهو بمعنى من يقول: قول وعمل واعتقاد.

لأن القول ينقسم إلى قول اللسان وقول القلب:

- قول اللسان: هو النطق والإقرار ظاهرا بنطقه.
- وقول القلب: النية.

عمل القلب وعمل الجوارح:

- عمل القلب: أقسامه كثيرة، منها أنواع الاعتقادات، ومنها أنواع العبادات القلبية مِن الخشية والخوف والرجاء، فالعلم أنواع العلميات هٰذه من أعمال القلب، وكذلك عبادات القلب المتنوعة هٰذه أعمال قلبية.
- وكذلك عمل الجوارح.

وهٰذا بمعنى قول من قال: إن الإيمان: **قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، يزيد بطاعة الرحمٰن، وينقص بطاعة الشيطان.**

قال أهل العلم: إن هٰذا الإيمان الشرعي هو الذي حصل الابتلاء به، فهو من الأسماء التي نقلت من اللغة إلى الشرع، وصارت حقيقتها الشرعية هو ما وصفت لك من أنّ الإيمان يشتمل على قول اللسان والعمل بالأركان والاعتقاد وأنه يزيد وينقص.

- الإيمان كثيرا ما يأتي في القرآن ويُراد به اللغوي.
- وكثيرا ما يأتي في القرآن ويراد به الشرعي.

من مثل الألفاظ الأخرى كالصلاة فإنها تأتي ويراد بها اللغوي؛ الصلاة اللغوية وهي الدعاء والثناء، ويأتي ويراد بها الصلاة المعروفة ومما ذكره بعض أهل العلم المحققين، ومما ذكره بعض أهل العلم من ذوي التحقيق:

⇦ أن **الإيمان اللغوي** في القرآن كثيرا ما يُعدّى باللام كقوله تعالى: ﴿**وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ**﴾[يوسف:١٧]، كقوله تَعَالىٰ: ﴿**فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ**﴾[العنكبوت:٢٦]، ونحو ذلك من الأمثلة وما سبق أن ذكرت لك.

⇦ **والإيمان الشرعي** المنقول عن أصله اللغوي الذي يراد به العمل والقول والاعتقاد هٰذا يُعدى كثيرا بالباء ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ**﴾[البقرة:٢٨٥]، إلى آخر الآية قال: ﴿**فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوا**﴾[البقرة:١٣٧]، ونحو ذلك من الآيات وكقوله: ﴿**وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا**﴾[النساء:١٣٦].

هٰذا الإيمان قول وعمل واعتقاد، ويراد به تارة الاعتقادات الباطنة، وهو الذي يناسب المرتبة الثانية، لأن المرتبة الأولى هي الإسلام، وهي ما يشمل العمل الظاهر كما جاء في حديث جبريل، فقد جاء في بعض طرقه أنه ذكر عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ لجبريل أن من الإسلام بعد الحج الغُسل من الجنابة، ومنه الذكر، ونحو ذلك مما هو من جنس الأعمال الظاهرة. وأما الإيمان: فهو العقائد الباطنة؛ الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر.

الشيخ رحمه الله تعالى هنا قال: (**الإيمانُ، [وهو] بضعٌ وسبعونَ شعبَة**) وهٰذا يعني به اسم الإيمان العام الذي يدخل فيه الإسلام؛ لأن الإيمان أوسع من الإسلام، والإسلام بعض الإيمان، وأهل الإيمان أخصّ مرتبة من أهل الإسلام، لهٰذا الإيمان يشمل الإسلام وزيادة، بهٰذا المعنى ولهٰذا المعنى قال الشيخ رحمه الله: (**وهو بضعٌ وسبعونَ شعبَة، فأعلاها قولُ لا إله إلاّ الله**) ومن المعلوم أن قول (لا إله إلا الله) أنه أول أركان الإسلام؛ شهادة لله بالتوحيد بقول (لا إله إلا الله) مع توابع ذلك، هٰذا الركن الأول، فهنا عدَّ قول (لا إله إلا الله) أعلى شعب الإيمان، وهٰذا لأن الإيمان يشمل الإسلام وزيادة، وهٰذا قد جاء مبينا في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما أن النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ قال: «**الإيمان بضع وستون –أو قال: بضع وسبعون شعبة– أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء**

شعبة من الإيمان»[1] فذكر أن أعلى شُعب الإيمان لا إله إلا الله، وقوله (شُعب) هٰذا تمثيل للإيمان بالشجرة التي لها شعب ولها فروع، وقد مثل عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ بأعلى الشعب وبأدنى الشعب، ومثّل بشعبة من الشعب، وهٰذه الثلاث التي ذكرها عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ متنوعة:

- فالأول وهو أعلاها **قول**: قول لا إله إلا الله.
- وأدناها إماطة الأذى عن الطريق هٰذا **عمل**.
- والحياء شعبة من الإيمان، الحياء **عمل القلب**.

فذكر في هٰذا قول (لا إله إلا الله) ، وهٰذا قول باللسان، ولا شك أنّه يتبعه اعتقاد بالجنان، وذكر الحياء أيضا وهو عمل بالقلب، وذكر إماطة الأذى عن الطريق وهو عمل الجوارح، فتمثيله عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ لذلك لأجل أن يُستدل لكل واحد من هٰذه الثلاثة؛ لكل شعبة من هٰذه الشعب على نظائرها:

فيُستدل بكلمة التوحيد بقول (لا إله إلا الله) على الشعب القولية.

فيُستدل بإماطة الأذى عن الطريق بالشعب العملية؛ عمل الجوارح.

ويُستدل بذكره الحياء على الشعب القلبية.

وهٰذا من أبلغ ما يكون من التشبيه والتمثيل، وذلك لأنّ التنويع -كما نوع عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- يجعل الناظر يُعدّي هٰذا الذي ذكر إلى أمثال تماثلها كثيرة، ولهٰذا العلماء اختلفوا في شعب الإيمان بعَدِّها، عَدَّها جماعة وصنفوا فيها مصنفات كما صنف الحَليمي كتابه-شيخ البيهقي- كتاب الإيمان؛ المنهاج في شعب الإيمان وهو مطبوع، وتلاه على ترتيبه وعلى نسقه البيهقي موسعا داعما بالأدلة في كتابه شعب الإيمان، ونحو ذلك.

عدُّوها على اجتهاد منهم، وهٰذا الاجتهاد يختلف فيه العلماء، فمنهم من يعد خصالا من شعب الإيمان، ومنهم من يعد أخرى، وسبب ذلك اجتهادهم في قياس ما لم يذكر على ما ذكر، فيجعل بعضا منها قولية، ويجعلون بعضا منها عملية، ويجعلون بعضا منها لعبادات القلب، وهم يقسمونها في الغالب أثلاثا: فيجعلون للقوليات نحوًا من خمس وعشرين شعبة، ويجعلون للعمليات نحوًا من خمس وعشرين شعبة، ويجعلون لأعمال القلوب نحوًا من سبع وعشرين أو خمس وعشرين شعبة، يزيدون ويَنْقُصون.

المقصود أن هٰذا اجتهاد، اجتهاد من العلماء؛ لكن هٰذا التمثيل يدلّ على ما ذكرت لك من استيعابه للأقوال وأعمال الجوارح وأعمال القلوب.

إذن فيدخل في هٰذه الشعب، شعب الإسلام: إقام الصلاة، إيتاء الزكاة، صوم رمضان، الحج، الجهاد، الغسل، الطهارة، ونحو ذلك.

يدخل فيها الأعمال الاجتماعية التي أُمر بها؛ صلة الأرحام، بر الوالدين إلى آخره.

يدخل فيها أعمال القلوب من الخشية والإنابة والحياء والمحبة والرجاء والخوف والرهب والرغب إلى آخر هٰذه الأمثلة.

---

(١) **مسلم**: كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان، حديث رقم (٣٥).

فكل هٰذه من الإيمان ودليل ذلك الحديث الصحيح الذي جاء في الصحيحين.

بعد أن ذكر ذلك قال رحمه الله تعالى: (**وأركانُهُ ستَّة: أنْ تؤمنَ بالله، وملائكَته، وكتبه، ورُسُلِه، واليومِ الآخرِ، وبالقَدَرِ خيرِه وشرِّه**) أوضحت لكم في شرح الأربعين النووية تفصيل شرح هٰذه الأركان، لكن أذكر ذلك باقتضاب، ليكمل الشرح لهٰذا الكتاب.

الإيمان بالله يشمل: الإيمان بوجود الله؛ بأن الله واحد في ربوبيته، وأنه واحد في إلهيته لاستحقاقه العبادة، أنه واحد في أسمائه وصفاته، يعني ليس كمثله شيء في أسمائه، وليس كمثله شيء في صفاته كما قال تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ**﴾[الشورى:١١]، فبيان قوله أن تؤمن بالله هو شرح التوحيد كلِّه.

قال: (**وملائكَته**) الملائكة جمع مَلَك، وهو المرسل لأن أصلها (مَأْلَكَ) من (أَلَكَ) يعني أرسل رسالة خاصة، أَلَكَ يَأْلَكُ أُلُوكَةً، والمرسل مألك أو مَلأَك، وأصلها مألك؛ لأنها من أَلَكَ، خُففت الهمزة كما تخفف كثيرا فصارت ملَك، وجمعها ملائكة، لهٰذا ظهر في الجمع الهمز؛ لأن أصله في المفرد موجود، الملك جمعه ملائكة ظهر الهمز، ومفرد الملائكة ملأك إلى آخره. يعني المرسلون الموكَّلون بما وكلهم الله جل وعلا به.

هٰذا الرُّكن من أركان الإيمان تحقيقه يكون بأنْ يؤمن المسلم بأن لله جل وعلا ملائكة، خلْق من خلقه جل وعلا، جعلهم موكلين بتصريف هٰذا العالم، يأمرهم فينفّذون ﴿**عِبَادٌ مُكْرَمُونَ**﴾[الأنبياء:٢٦]، ﴿**لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾[التحريم:٦]، فمن أيقن أن هٰذا الجنس من خلق الله موجود، وآمن بذلك، وأن منهم من يترل بالوحي إلى الرسل، يبلِّغهم رسالات الله فقد حقّقّ هٰذا الركن من أركان الإيمان.

ثم بعد ذلك يكون الإيمان التفصيلي على نحو ما فصلت لكم في شرح الأربعين، يكون الإيمان التفصيلي، وهٰذا يختلف فيه الناس بحسَب العلم، لكن المقصود هنا أن تحقيق هٰذا الرّكن من أركان الإيمان يكون بتحقيق ما ذكرنا، وبعد ذلك الإيمان بكل ما جاء في الكتاب والسنة من أوصاف الملائكة ومن أحوالهم؛ صفة خلقهم ومقامهم عند رهم، وأنواع أعمالهم وأنواع ما وكِّلوا به، فهذا كله من الإيمان التفصيلي، من علم شيئا من النصوص في ذلك وجب عليه الإيمان، لكن تحقيق الركن يكون بالمعنى الأول.

كذلك الإيمان بالرسل، إذا آمن المسلم بأن الله جل وعلا أرسل رسلا؛ بعثهم بالتوحيد، يدعون أقوامهم إلى التوحيد، وأنهم بلغوا ما أمروا به، وأيدهم الله بالمعجزات، بالبراهين والآيات الدالة على صدقهم، وأنهم كانوا أتقياء بررة، بلّغوا الأمانة وأدوا الرسالة. بهٰذا يكون آمن بالرسل جميعا، ثم يؤمن إيمانا خاصا بمحمد ﷺ بأنه خاتم الرسل، وأن الله جل وعلا بَعَثَهُ بالحنيفية السمحة، بعثه بدين الإسلام الذي جعله خاتم الأديان وآخر الرسالات.

القسم الثاني الإيمان التفصيلي بالرسل –على نحو ما أوضحت لكم–، فيه مقامات كثيرة في ذلك، يتبع العلم التفصيلي بأحوال الرسل وأسمائهم وأحوالهم مع أقوامهم وما دعوا إليه وكتبهم ونحو ذلك.

قال بعدها: (**وكتبِه**) الكتب قبل الرسل (**وكتبِه، ورُسُلِه**) الإيمان بالكتب أيضا إيمان إجمالي، يتحقق الإيمان بهٰذا الركن بأن يؤمن العبد أن الله جل وعلا أنزل كتبا مع رسله إلى خلقه، جعل في هٰذه الكتب الهدى والنور والبينات وما به يُصلح العباد، وأن هٰذه الكتب التي أُنزلت مع الرسل أن كلها حق؛ لأنها من عند الله جل وعلا، والله جل وعلا هو الحق المبين،

وما كان من جهة الحق فهو حق، ويوقن بذلك يقينا تاما، ثم يوقن ويؤمن إيمانا خاصا بآخر هٰذه الكتب ألا وهو القرآن، فكما أنه يؤمن بالكتب السابقة التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وصحف موسى ونحو ذلك، يؤمن بها إيمانا عاما على ما أنزله الله جل وعلا على أنبيائه ورسله، فإنه يؤمن به إيمانا خاصا بهٰذا القرآن، وأنه كلام الله منه بدأ وإليه يعود، وأنه حجة الله على الناس إلى قيام الساعة، وأنه به نُسخت جميع الرسالات وجميع الكتب من قبل، وأنه حجة الله الباقية على الناس، وأن هٰذا الكتاب مهيمن على جميع الكتب وما فيه مهيمن على جميع ما سبق، كما قال جل وعلا في وصف كتابه: ﴿**وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**﴾[المائدة:٤٨]، وأن ما فيه من الأخبار يجب تصديقها، وما فيه من الأحكام يجب امتثالها، وأن من حكم بغيره فقد حكم بهواه، و لم يحكم بما أنزل الله. هٰذا كله من الإيمان الخاص بالقرآن.

قال بعد ذلك: (**واليومِ الآخِرِ**) هٰذا هو الركن الخامس؛ الإيمان باليوم الآخر يعني الإيمان بيوم القيامة، وتحقيق هٰذا الركن يكون بأن يوقن هٰذا العبد يؤمن بغير شك بأن ثَم يوم يعود الناس إليه، يُبعثون فيه وإليه، يحاسبون فيه، وأن كل إنسان مَجْزِيٌّ بما فعل، لأن الأمر ليس منتهيا بالموت، بل ثَم يوم يجتمع فيه الناس فيقتص من الظالم إلى المظلوم ويحاسب الناس على أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿**وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ**﴾[الزمر:٧٠]، إذا آمن بهٰذا القدر، وأن هناك يومٌ سيكون، وأنه سيبعث من جديد، فإنه قد حقق هٰذا الركن.

بعد ذلك الإيمان التفصيلي باليوم الآخر هٰذا يتبع العلم بما جاء في الكتاب والسنة من أحوال يوم القيامة، من أحوال القبور، أحوال ما يكون يوم القيامة، الإيمان بالحوض، بالميزان، الإيمان بالصحف، الإيمان بالصراط، الإيمان بأحوال الناس في العرصات، أحوال الناس بعد أن يجوزوا الصراط يعني المؤمنين الذين يدخلون الجنة، وما يكون بعد أن يجوزوا الصراط، ومن يدخل الجنة أولا، وأحوال الناس في النار ونحو ذلك، أحوال الظُّلمة، أحوال الجسر، هٰذه كلها أمور تفصيلية لا يجب الإيمان بها على كل أحد، إلا من سمعها في النصوص فإنه يجب عليه الإيمان بما سمع، لكن لو قال قائل: أنا لا أعلم هل ثَمَّ حوض أم لا؟ لا أدري هل ثم ميزان أم لا؟ ونحو ذلك، يُعرف بالنصوص فإن عرف فأنكر وكذَّب فيكون مُكذِّبا بالقرآن وبالسنة.

أما تحقيق هٰذا المقام الذي هو اليوم الآخر، يؤمن بأن ثم يوم يعود فيه الناس، فيجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

فلو سألت أحدا قلت له: هل ثَم يوم آخر يعود فيه الناس؟ قال: بلا شك هناك يوم القيامة يُبعث فيه ويحاسب الناس فيه، فيه أهوال. وسكت، بهٰذا حقق الركن وهو الإيمان باليوم الآخر.

إذا سألته هل تؤمن بالحوض؟ قال: أُوشْ الحوض؟ أنا ما أعرف هٰذا الحوض. هل تؤمن بالميزان؟ أنا ما أعرف. يُعرَّف النصوص الدالة على ذلك، لأن هٰذا من العلم التفصيلي الذي إنما يجب العلم به بعد إخباره بما جاء في النصوص عليه.

السادس قال: (**وبالقَدَرِ خيرِه وشرِّه**) الإيمان بالقدر، تحقيق هٰذا الركن أن يعلم ويعتقد؛ يؤمن بأن كل شيء يحدُث في هٰذا الملكوت بخلق الله، قد سبق به قَدَر، وأن الله جل وعلا عالم بهٰذه الأحوال وتفصيلاتها بخلقه قبل أن يخلقهم، وكتب ذلك، وإذا آمن أن كل شيء قد سبق به قدر الله فيكون حقق هٰذا الركن، والإيمان بالقدر؛ الإيمان الواجب يكون على مرتبتين:

⇦ المرتبة الأولى الإيمان بالقدر السابق لوقوع المقدر: وهٰذا يشمل درجتين:

الأولى العلم السابق: فإنّ الله جل وعلا يعلم ما كان وما سيكون وما يكون وما هو كائن وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، علم الله السابق بكل شيء بالكليات وبالجزئيات، بجلائل الأمور وبتفصيلات الأمور، هٰذا العلم السابق، كما قال جل وعلا في آخر سورة الحج: ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ**(١) **أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**﴾[الحج:٧٠]، وقال جل وعلا: ﴿**وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾[الأنعام:٥٩]، فبيَّن جل وعلا أن علمه بالأشياء سابق، وأنه يعلم كل شيء؛ الكليات والجزئيات، الأمور الجلية وتفاصيل الأمور، هٰذا العلم الأول، وهٰذا العلم لم يزل الله جل وعلا عالما بــه، علمه جل وعلا بهٰذه الأشياء بجميع تفاصيل خلقه، عِلْمُه بها أَوَّل يعني ليس له بداية.

الدرجة الثانية الكتابة: أن يؤمن العبد أنّ الله جل وعلا كتب ما الخلق عاملون، كتب أحوال الخلق وتفصيلات ذلك قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة، وذلك عنده في كتاب جعله في اللوح المحفوظ، كما قال جل وعــلا: ﴿**وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾ فأثبت أنه في كتاب وقال جل وعلا: ﴿**وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ**﴾[القمر:٥٣]، يعني قد سُطِّر وكُتِب في اللوح المحفوظ، وقال جل وعلا: ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَــمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾[الحج:٧٠]، بيّن أن كل شيء إنما هو في كتاب، وهٰذا قد جاء أيضا في صحيح الإمام مسلم من حديث عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ قال: «**قدّر الله مقادير الخلائــق** – يعني بالكتابة– **قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة**»(٢).

هاتان الدرجتان في المرتبة الأولى؛ المرتبة الأولى تسبق وقوع المقدر، هٰذه المرتبة الأولى تحوي درجتين.

⇦ المرتبة الثانية أيضا تحوي درجتين وهي تواكب أو تقارن وقوع المقدر:

أولى الدرجتين الإيمان بأن مشيئة الله جل وعلا نافذة: وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لا يكون، فليس ثَــم شــيء يحدث ويحصل في ملكوت الله جل وعلا إلا وقد شاءه الله جل وعلا، وقد أراده الله جل وعلا كونا، ســواء في ذلــك طاعات المطيعين أو عصيان العاصين، سواء في ذلك إيمان المؤمنين أو كفر الكافرين، فكلّ شيء يحصل في ملكوت الله إنما هو بإذنه ومشيئته وإرادته الكونية؛ لأن المشيئة ما تنقسم، التي تنقسم الإرادة، بإذنه ومشيئته وإرادته الكونية، ومشيئة الله إذا أطلقت يُعنى بها الإرادة الكونية، الإرادة تنقسم إلى إرادة كونية وإرادة شرعية، فأما المشيئة فهي مشيئة الله جل وعــلا في كونه، هٰذه الدرجة الأولى، هٰذه تواكب وقوع المقدر، فلا يمكن أن يعمل العبد شيئا يكون مقدرا من الله جل وعــلا إلا وهٰذا الشيء قد شاءَهُ الله جل وعلا.

الدرجة الثانية أن يؤمن بأن الله جل وعلا خالق كل شيء: كل شيء مخلوق الله جل وعلا خالقه؛ أعمــال العبــاد، أحوال العباد، السمٰوات والأرض، من في السمٰوات ومن في الأرض، ما في السمٰوات وما في الأرض، الجميع الذي خلقه هو الله جل وعلا، فإذا أراد العبد أن يعمل شيئا فإنه لا يكون إلا إذا شاءه الله جل وعلا، وخلق الله جل وعــلا ذلــك

---

(١) الشيخ حفظه الله قال: ألم تر.

(٢) مسلم: كتاب القدر ، باب حجاج آدم موسىٰ عليهما السلام، حديث رقم (٢٦٥٣).

الشيء، طاعات المطيعين خلقها الله جل وعلا، عصيان العاصين خلقه الله جل وعلا، إذا توجّه العبد بإرادته إلى أن يفعل شيء إذا شاءه الله كونا وقع بعد خلقه له، إذا لم يشأْه ولو أراده العبد لم يقع، كما قال جل وعلا: ﴿**وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾[التكوير:٢٩]، قال: ﴿**وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾[الإنسان:٣٠]، مَرْتبة الخلق عامة.

إذن هٰذا الإيمان الواجب يصح أن نقول أنه إيمان تفصيلي، مرتبة قبل وقوع المقدر، العلم الأزلي؛ العلم الأول، والكتابة التي هي قبل خلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة، ثم ما يواكب وقوع المقدر وهو أنّ العبد عنده إرادة وعنده قدرة؛ إذا اجتمعت الإرادة الجازمة والقدرة التامة حصل منك الفعل، توجّهت إلى الفعل حصل منك الفعل؛ لكن لا يحصل منك إلا بعد أن يشاء الله جل وعلا ذلك منك، وإلا بعد أن يَخلق الله جل وعلا ذلك الفعل منك، الفعل فعل العبد حقيقة، لكن الخالق لهٰذا الفعل هو الله جل وعلا، لم؟ لأن من العبد لا يكون إلا بإرادة جازمة وبقدرة تامة، والإرادة والقدرة قد خلقها الله جل وعلا، الله جل وعلا خلق ما به يكون الفعل ويخلق الفعل نفسه إذا توجه إليه العبد.

فحصل بهٰذا الإيمان التفصيلي الواجب بالقدَر.

وبهٰذا البيان تتضح لك أركان الإيمان الستة؛ الإيمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.

قال الشيخ بعد ذلك رحمه الله: (**والدليلُ على هٰذه الأركانِ الستَّة قولُه تعالى:** ﴿**لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ**﴾)–يعني الذي يُمدح أصحابُه– (﴿**مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ**﴾) النبيين يعني الرسل، وهنا ذكر الخمسة هٰذه، آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، فهٰذه الآية دليل على خمسة من أركان الإيمان، وكثيرا ما تأتي هٰذه الخمسة مقترنة كقوله جل وعلا في آخر سورة البقرة: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ**﴾[البقرة:٢٨٥]، ذكر الأربعة ﴿**لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ**﴾[البقرة:٢٨٥]، وكقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا**﴾[النساء:١٣٦]، وكقوله جل وعلا: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ [وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا]**[1] **بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ حَقًّا**﴾[النساء:١٥٠-١٥١]، ونحو ذلك من الآيات، وقد جاءت أيضا في حديث جبريل المشهور.

بقي القدر، القدر أدلته في القرآن أدلة عامة بذكر القدر، وأدلة مفصلة لكل مرتبة من مراتب القدر، فمن الأدلة العامة ما ذكره الشيخ رحمه الله تعالى وهو قوله تَعَالىٰ: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ وجه الاستدلال: مجيء ﴿**كُلَّ شَيْءٍ**﴾ يعني ليس ثم مخلوق من مخلوقات الله إلا وقد خلق بقدر سابق من الله جل وعلا، لا يخرج شيء عن هٰذه الكلية ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ و﴿**كُلَّ**﴾ من ألفاظ الظهور في العموم، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا**﴾[الفرقان:٢]، وكل دليل فيه ذكر مرتبة من المراتب التي ذكرت يصلح دليلا على القدر لأنه دليل لبعضه.

---

[1] الشيخ حفظه الله قال: ويفرّقون.

هٰذا ما ذكره الشيخ رحمه الله تعالى في بيان المرتبة الثانية من مراتب الدين ألا وهي مرتبة الإيمان.

[المتن]

المرتبةُ الثالثةُ: الإحسانُ، ركنٌ واحدٌ، وهو أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّك تَراهُ فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنَّه يَراكَ، والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ**﴾[النحل:١٢٨]، **وقولُهُ تعالى:** ﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾[الشعراء:٢١٧-٢٢٠]، **وقولُهُ تعالى:** ﴿**وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ**﴾[يونس:٦١] الآية.

[الشرح]

المرتبة الثالثة الإحسان قال: (**المرتبةُ الثالثةُ: الإحسانُ، ركنٌ واحدٌ، وهو أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّك تَراهُ فإنْ لم تكنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ، والدليلُ قولُهُ تعالى:** ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ**﴾[النحل:١٢٨]، **وقوله تعالى:** ﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾[الشعراء:٢١٧-٢٢٠]، **وقوله تعالى:** ﴿**وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾[يونس:٦١]).

الإحسان الذي هو مرتبة من المراتب؛ إحسان العابد أثناء عبادته؛ وهو مقام المراقبة؛ مراقبة العابد لله جل وعلا؛ لربه جل وعلا أثناء عباداته لربه جل وعلا، بل في أحواله كلها، لأنه إذا راقب ربه، بأنه قد علم أن الله جل وعلا مطّلع عليه، كأنه يرى الله جل وعلا، فإن هٰذا يدعوه إلى إحسان العمل، وأن يجعل عمله أحسن ما يكون، وأن يجعل حاله في إقبال قلبه، وإنابته، وخُضوعه، وخشوعه، ومراقبته لأحوال قلبه، وتصرفات نفسه، يجعل ذلك أكمل ما يكون لحُسنه وبَهائه، لأنه يعلم أن الله جل وعلا مطّلع عليه.

هٰذا المقام –مقام المراقبة– (**ركنٌ واحدٌ، وهو أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّك تَراهُ فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنَّه يَراكَ**) أن تكون عابدا لله على النحو الذي أمر اللهُ جل وعلا به وأمر به رسولُه، وحالتك أثناء تلك العبادة التي تكون فيها مخلصا موافقا للسنة حالتك أن تكون كأنك ترى الله جل وعلا، فإن لم تكن تراه، فلتعلم أنّه جل وعلا مطّلع عليك، عالمٌ بحالك، يرى ويُبصر ما تعمل، يعلم ظاهرَ عملك وخفيَّه، يعلم خلجات صدرك، ويعلم تحركات أركانك وجوارحك ويعلم[1]... وبضعفه تضعف المراقبة لله جل وعلا.

---

[1] انتهى الوجه الأول من الشريط الخامس.

إذن فمقام الإحسان -مرتبة الإحسان- تعظم بعظم مراقبة الله جل وعلا، وتضعف بضعف مراقبة الله جل وعلا، فالعبد المؤمن أثناء عبادته إذا كان يعبد الله جل وعلا مخلصا على وَفق السّنّة، وحاله كأنه يرى الله، عالِم بأنه مطّلع عليه يراه، هٰذه تجعله يُحسن عمله، بل يجعل عمله وحاله أثناء العمل أحسنَ ما يكون.

(**والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾[النحل:١٢٨]**) وجه الاستدلال أن الله جل وعلا ذكر ها هنا معيته للذين اتقوا ولمن هم محسنون قال: **﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾** وهٰذه المعية تقتضي في هٰذا الموضع شيئين:

الأول: أنه جل وعلا مطلع عليهم، عالم بهم، محيط بأحوالهم، لا يفوته شيء من كلامهم، ولا من أحوالهم، ولا من تقلباتهم.

والثاني: أنه جل وعلا معهم ناصر لهم بتأييده، ونصره وتوفيقه، المعية ها هنا معية خاصة بالمؤمنين، ومعلوم أن المعية الخاصة للمؤمنين تُفسر بما تقتضيه، وهو أنها معية نصر وتأييد وتوفيق وإلهام ونحو ذلك، وهٰذا متضمن للمعية العامة، وهي معية الإحاطة والعلم ونحو ذلك.

إذن وجه الاستدلال:

أولا: أنه ذكر المعية.

الثاني: أنه ذكر معيته للمحسنين فقال: **﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾** والمحسنون هٰهنا جمع المحسن، والمحسن اسم فاعل الإحسان، ففاعل الإحسان اسمه محسن، والإحسان هو الذي نتكلم عليه؛ المرتبة الثالثة.

فإذن وجه الاستدلال من جهتين: أولا ذكر المعية، الثانية ذكر المحسنين.

(**وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾**) وجه الاستدلال من هٰذه الآية أنه ذكر رؤية الله جل وعلا لنبيه حال عبادة نبيه، وأنه يراه في جميع أحواله حين يقوم وتقلّبَه في الساجدين من صحابته أثناء صلاته بهم عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ؛ قال واصفا نفسه جل وعلا: **﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾**، وهٰذا دليل الشق الثاني من ركن الإحسان وهو قوله: (**فإنْ لم تكنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ**)، دليل الرؤية هٰهنا قوله: **﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾** يعني في المصلين.

قال أيضا: (**وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾**[يونس:٦١]) وجه الاستدلال قوله تعالى هنا: **﴿إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾** وشهود الله جل وعلا بما يعمله العباد من معانيه رؤيته جل وعلا لهم وإبصاره جل وعلا بهم، رؤيته جل وعلا من معانيه كونه جل وعلا شهيدا، قال جل وعلا هنا: **﴿إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾** وهٰذا الاستدلال ظاهر؛ لأن الإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تراه فإنه يراك.

قال جل وعلا هنا: **﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾** أي شأن تكون فيه **﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾** أنواع تلاوتك للقرآن، وأحوال ذلك في الصلاة، خارج الصلاة، وأنت على جنبك، وأنت قائم، أحوال ذلك **﴿وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾** أحوال

عملكم، كل ذلك منكم الله جل وعلا شهيد عليه، يرى أحوالكم فيه على تفصيلاتها، شاهد وشهيد عليكم، يرى أعمالكم، يسمع كلامكم، ويُبصر أعمالكم جل وعلا، وهٰذا دليل أيضا ظاهر الاستدلال.

[المتن]

والدليلُ مِنَ السُّنَّة حديثُ جبريل المشهور عن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: بينما نحن جُلوسٌ عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذا طلع علينا رجلٌ شديدٌ بياضِ الثياب، شديد سوادِ الشَّعر، لا يُرى عليه أثرُ السَّفر، ولا يعرفه منَّا أحد، حتّى جلس إلى النبي ﷺ، فاسند رُكبَتَيْه إلى رُكبَتَيْه، ووضع كَفَّيْه على فخذيه، وقال: يا مُحَمَّدُ؛ اَخبِرْني عَنِ الإسلام. فقال رسولُ الله ﷺ: «الإِسْلاَمُ أن تَشْهَدَ أَن لا إِلَهَ إلاَّ الله، وَأَنَّ مُحَمَدًا رَسُولُ الله، وتُقِيمَ الصَلاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِن اسْتَطَعْتَ إِلَيْه سَبِيلا»، قال: صَدَقْتَ. فعجبنا له: يسأله ويُصَدِّقُه! قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: «أنْ تُؤْمِنَ بالله وَمَلاَئكَته وَكُتُبه وَرُسُله وَاليَوْمِ الآخرْ،وَتُؤْمنَ بالْقَدَرِ خَيْرِه وَشَرِّه»، قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: «أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّك تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهْ فَإِنَّهُ يَرَاكْ». قال: فَأَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعة؟ قال: «مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائلِ». قال: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا؟ قال: «أَنْ تَلِدَ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَان ». ثُمّ انْطَلَق. فَلَبِثتُ مَلِيا، ثمّ قال:«يَا عُمَرُ، أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قلت: الله ورسوله أعلَم، قال: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ، أَتَاكُمُ يُعَلِمُكُمْ دِينَكُمْ».[1]

[الشرح]

ثم ذكر رحمه الله الدليل من السنة، وهو حديث جبريل المشهور عن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وهو الذي شرحناه في الأربعين النووية، وهو ثاني الأحاديث النووية الأربعين، وبهٰذا يتم ذكر الأصل الثاني من أصول دين الإسلام، ألا وهو معرفة دين الإسلام بالأدلة.

ملخص ذلك: ذكر الشيخ أن الأصل؛ الأصل الثاني معرفة دين الإسلام بالأدلة، عرّف الإسلام، وذكر أركانه، وذكر معنى الشهادتين، معنى شهادة أن لا إله إلا الله، فسّر التوحيد وأدلة ذلك شهادة أن محمدا رسول الله، وبيّن معنى الشهادة بأن محمدا رسول الله، ثم بين أدلة أركان الإسلام الباقية، ثم ذكر المرتبة الثانية وهي الإيمان -كما ذكرنا لكم هٰذا اليوم-، ثم ذكر المرتبة الثالثة وهي الإحسان، ودلائل ذلك كلِّه على نسق ووضوح يسهل معه الفهم ويسهل معه الإفهام.

ولهٰذا ينبغي لنا أن نحرص على هٰذه الرسالة؛ تعليما لها للعوام، وللنساء في البيوت، وللأولاد ونحو ذلك، على حسَب مستوى من يخاطب في ذلك، وقد كان علماؤنا رحمهم الله تعالى يعتنون بثلاثة الأصول هٰذه تعليما وتعلُّما، بل كانوا يلزمون عددا من الناس بعد كل صلاة فجر أن يتعلموها، أن يحفظوا هٰذه الأصول ويتعلّموها، وذلك هو الغاية في رغبة الخير، ومحبة الخير لعباد الله المؤمنين، إذْ أعظم ما تُسدي للمؤمنين من الخير، أن تُسدي لهم الخير الذي

[1] مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان.. حديث رقم (٠٨).

ينجيهم حين سؤال الملكين للعبد في قبره، لأنه إذا أجاب جوابا حسنا –جوابا صحيحا– عاش بعد ذلك سعيدا، وإن لم يكن جوابه مستقيما ولا صحيحا عاش بعد ذلك، والعياذ بالله على التوعد بالشقاء والعذاب.

أسأل الله جل وعلا أن يُنَوِّر بصائرنا، وأن يقينا الزّلل والخطل، وأن يلهمنا رشدنا، وأن يقينا شر أنفسنا، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.



بسم الله الرحمن الرحيم

[المتن]

الأصلُ الثالثُ: معرفةُ نبيكُمْ محمدٍ ﷺ: وهو محمدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ المطلبِ بنِ هاشمٍ، وهاشمُ مِنْ قريشٍ، وقريشٌ مِنَ العربِ، والعربُ مِنْ ذرّيّةِ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ الخليلِ، عليْهِ وعلى نبيّنا أفضلُ الصَّلاةِ والسّلامِ، وله مِنَ العُمْرِ: ثلاثٌ وستُّونَ سنةً، منها أربعون قبل النُّبوَّة، وثلاثُ وعشرون نبيّا رسولا، نُبِّئَ بـ (اقرأ) وأُرْسِلَ بـ(المدّثر)، وبلدُهُ مكّةَ، [و]بعثَهُ اللهُ بالنّذَارَةِ عنِ الشِّركِ، ويدعُو إلى التَّوحيد، والدليلُ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾[المدثر:١-٧] ومعنى ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ يُنْذِرُ عنِ الشِّركِ ويدعُو إلى التَّوحيد، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: عَظِّمْهُ بالتَّوحيدِ، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: طَهِّرْ أعمالَكَ منِ الشِّركِ، ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ الرُّجْزُ: الأصنامُ، وهجرُها تَرْكُها وأهلِها، والبراءَة منها وأهلِها.

أخذَ على هٰذا عشْرَ سنِينَ يدعُو إلى التوحيدِ، وبعدَ العشْرِ عُرِجَ به إلى السماءِ وفُرِضَتْ عليه الصلواتُ الخمسُ، وصلَّى في مكّةَ ثلاثَ سنِينَ، وبعدَها أُمِرَ بالهجرةِ إلى المدينةِ.

[الشرح]

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله حق الحمد وأعلاه، وأشهد أن لا إلٰـه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فبقي من هٰذه الرسالة ما يحتاج شرحه إلى أكثر من مجلس، ولهٰذا رغبة في إتمامها قبل انقضاء هٰذه الدروس، فإننا غدا إن شاء الله تعالى سيكون هناك درس فيها فقط لمدة ساعة إلا ربع تقريبا، وكذلك إن لم نُتمَّها غدا سيكون أيضا يوم الخميس بعد العصر مباشرة في قريب من تلك المدة، لأن إنهاء مثل هٰذه الرسالة، وعدم إرجاء الإنهاء إلى وقت آخر من المهمّات، ولهٰذا قد يكون الكلام فيه بعض الاختصار، ليس على نسق أوَّله للرغبة في إنهاء ما تبقّى إن شاء الله تعالى ويَسَّرَ وأَعانَ.

قال رحمه الله تعالى: (**الأصلُ الثالثُ: معرفةُ نبيكُمْ محمدٍ** ﷺ) الأصل الأول: معرفة العبد ربّه يعني معبوده، والأصل الثاني: معرفة دين الإسلام بالأدلة، والأصل الثالث: معرفة النبي محمد ﷺ.

والمراد هٰهنا بالمعرفة العلم به على نحو ما أوضحت لكم في الكلام على الأصل الأول، فمعرفة نبيكم محمد ﷺ معناه العلم به وبحاله؛ العلم بنسبه، وأنه من العرب، بل من أشرف العرب قبيلةً، وأنه كان في عمره له كذا وكذا، نُبئ وأُرسل، قام داعيا يدعو إلى التوحيد، وينذر عن الشرك، وما يتصل بذلك من المباحث.

فحقيقة هٰذا الأصل العلم ببعض سيرة النبي ﷺ، وهٰذا العلم متعلّق لتكون الشهادة بأن محمدا رسول الله على علم ومعرفة، فإنه إذا قال: أشهد أن محمدا رسول الله، فإذا قيل له: من محمد هٰذا؟ فلم يعرفه، كانت شهادته مدخولة، ولهٰذا فإن معرفة هٰذا الأصل يكون به الجواب بتوفيق الله على سؤال القبر الثالث؛ ألا وهو: من نبيك؟ يشهد المسلم أنّ محمدا رسول الله، لكن هٰذه الشهادة يتبعها أنْ يكون عالما وعارفا بمحمد هٰذا من هو عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ.

فقال رحمه الله تعالى مُوضِحًا هٰذا الأمر: (**وهو محمدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ المطلبِ بنِ هاشمٍ**) تسميته عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ بمحمد:

- قال طائفة من أهل العلم: لم يُسمّ قبله عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ في العرب أحد بهٰذا الاسم، وإنما كانت العرب تسمي أحمد، وتسمي حَمْد، وكل ذلك مشتق من الحمْد؛ يعني رغبة في أن يكون هٰذا الولد من ذوي الحمد، يعني ممن يحمده الناس على خصاله.
- وقال آخرون: لا؛ بل العرب تَسَمَّت بمحمد، لكن قليل، إمّا اثنان أو ثلاثة، وهٰذا الثاني صحيح، إن صح النقل عن أهل التاريخ بتسمية أولئك النفر بمحمد، ممن هم في عصره عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، أو قبل ذلك بقليل.

(محمد) معناه كثير الخصال التي يستحق عليها الحمد،

.... **فَذو العَرشِ مَحمودٌ وَهَذا مُحَمَّدُ** [1]

ذو العرش الله جل وعلا صفاته وأفعاله وأسمائه كلها يُحمد عليها؛ يُثنى عليه بها، وتسمية المولود بمحمد تسمية جد النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ له بمحمد على رجاء أن يكون من أهل خصال الخير التي يكثر من أجلها حمد الناس له عليها، وهٰذا كان وصار ظاهرا، فإنه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ خصاله كلها وصفاته كلها يُحمد عليها؛ لأن خصاله عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ خير، حتى ما كان منه قبل البعثة قبل النبوءة وقبل الرسالة. وقد كان كثير صفات الخير.

فإذن التسمية بمحمد تسمية من قبيل التفاؤل، كانت العرب تعرف ذلك، كانوا يسمون خالدا تفاؤلا بأن يكون من أهل المكث الطويل في الدنيا؛ يعني من أهل الأعمار الطويلة، كانوا يسمون عاصيا تفاؤلا بأن يكون على أعدائهم من ذوي العصيان، كانوا يسمون صخرا ليكون شديدا كالصخر على أعدائهم... وهكذا.

فكثير من العرب إذا سموا رأوا المعنى، وتسمية النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ لوحظ فيها ذلك، على رجاء أن يكون عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ كثير الصفات التي يُحمد عليها، وكان ما أمّله جده في تسميته بمحمد، أمّل ما أمّله، فأعظم ذلك أنه كان عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ رسولا منزّلا من عند الله جل وعلا.

---

[1] وهو لأبي طالب وعم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتكملته:

وَشَقَّ لَهُ مِن اِسمِهِ لِيُجِلَّهُ   فَذو العَرشِ مَحمودٌ وَهَذا مُحَمَّدُ

وأيضا لبجير بن أبي سلمى وهٰذا تكملته:

وشقَّ لَهُ من اسمِهِ لجلالِهِ   فَذُو العرشِ محمُودٌ وهذا مُحَمَّدُ

وأيضا لحسّان بن ثابت وهٰذا تكملته:

شَقَّ لَهُ مِن اِسمِهِ كَي يُجِلَّهُ   فَذو العَرشِ مَحمودٌ وَهَذا مُحَمَّدُ

محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي، وقريش أفضل العرب وصفوقم، فأفضل قبائل العرب قريشا، وهذا كما جاء في الحديث: «**إن الله اصطفى قريشا من كنانة**»،[(١)] وأفضل قريش بنو هاشم، وأفضل بني هاشم محمد عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، كما جاء في الحديث الصحيح، قال بعد ذلك: «**فأنا خيار من خيار من خيار**».[(٢)]

قريش من العرب، والمراد بالعرب العرب المستعربة، لأن العرب قسمان عند أهل النسب:

عرب عاربة: وهؤلاء انقرضوا إلاّ قحطان في اليمن.

وعرب مستعربة: وهم الذين لم يكونوا أصلا من العرب، لكنهم دخلوا وصاروا عربا بانفتاق لسانهم عن العربية، وبتكلمهم بالعربية.

وأكثر قبائل العرب من هذا الجنس؛ العرب المستعربة وهم العرب، وقد جاء في الحديث الصحيح أن النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ قال: «**أول من فُتِق لسانُه بالعربية الفصحى إسماعيل عليه السلام**»[(٣)] وذلك -كما هو معلوم- أن إسماعيل لما أتى به أبوه إبراهيم، وأتى بأمه وجعله في مكة، ناسب العرب فصار مُلْهَما من عند الله جل وعلا بالانفتاق؛ بانفتاق اللسان عن العربية الفصحى، وهذا كما جاء في الحديث على أن كثير من أهل النسب ينازعون في هذا الأخير.

قال: (**والعربُ منْ ذرّيّةِ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ الخليلِ**) يعني أن قبائل العرب، القبائل المعروفة؛ قريش، وهذيل، بنو تميم، بنو دوس إلى آخره، أن هؤلاء جميعا من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، النسَّابون يصلون بالنسب تارات بأنساب القبائل إلى إسماعيل، ولكن المعروف عند العرب في عهد النبي ﷺ وقبله، أهم يمكنهم وصل أنسابهم إلى عدنان، وأما بعد ذلك إلى إسماعيل فإنه لا يثبت ولا يمكن التصديق به.

العرب كثيرون، فالنبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ بعث من العرب كما قال جل وعلا: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ**﴾[التوبة:١٢٨] ﴿**مِنْ أَنفُسِكُمْ**﴾ يعني من جنسكم، من قبائلكم من جنسكم العربي، ﴿**عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ**﴾[التوبة:١٢٨]، وقال جل وعلا: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ**﴾[آل عمران:١٦٤]، ونحو ذلك من الآيات.

فإذن النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ ابنٌ لعبد الله، وهو والده الأدنى، وابن لإسماعيل بن إبراهيم، وهو والده الأعلى، وهذان وهما عبد الله وإسماعيل هما الذبيحان، فقد جاء في حديثٍ ضعيف السند لكنه صحيح المعنى، أنه قال: «**أنا ابن الذبيحين**» المراد بالذبيحين عبد الله لأنه كما تعلمون قصة أبيه لما استقصم فنذر أن يذبح إن خرج....[(٤)] فنذر أن يذبح ولده، ثم حصل قصة ما هو معروف فصار ذبيحا، يعني قد كاد أن يذبح.

---

(١) مسلم: كتاب الفضائل، باب فضل نسب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، حديث رقم (٢٢٧٦).

وتمامه: ((**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**)).

(٢) وردت هذه الزيادة خارج الصحيحين وقد ضعف الشيخ الألباني الحديث بهذه الزيادة وغيرها في ضعيف الجامع برقم (١٥٣٤).

(٣) صححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٥٨١).

(١) كلمة غير واضحة.

إسماعيل كذلك، فهو الذي جاء فيه قول الله جل وعلا: ﴿**يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى**﴾[الصافات:١٠٢] وهذا هو الصحيح، فإن الابن الذي استسلم لأبيه، صابرا، محتسبا، مطيعا، لأبيه ومطيعا لربه جل وعلا، هو إسماعيل أبو العرب.

واليهود تزعم أن الذبيح هو إسحاق، وهذا باطل، ذلك لأن الله جل وعلا قال في سورة الصافات هذه: ﴿**فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ** (١٠١) **فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى**﴾[الصافات:١٠١-١٠٢]، فوصف هذا الابن بأنه حليم، وهذا الوصف بالحلم في القرآن لإسماعيل عليه السلام، وأما إسحاق فإنه يوصف بأنه عليم؛ قال: ﴿**فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ**﴾ هذا من صفة إسماعيل، ولهذا في هذه الآيات بعدها قال: ﴿**وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ**﴾[الصافات:١١٣] فذكر إسحاق بعد ذلك، فالصحيح أن النبي ﷺ هو ابن الذبيح عبد الله والده الأدنى، وهو ابن الذبيح إسماعيل والده الأعلى.

وأما القول بأن الذبيح إسحاق، فإن هذا باطل، وإنما دسّه اليهود في المسلمين، حتى كثُر في كتب التفسير، حتى يأخذوا هذا الفخر وهو أن إسحاق عليه السلام هو الذي صبر، واحتسب واستسلم وابتُلي بهذا البلاء العظيم.

قال: (**والعربُ منْ ذرّيّةِ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ الخليلِ، عليْهِ وعلى نبيّنا أفضلُ الصّلاةِ والسّلامِ**) الخليل هو إبراهيم كما قال جل وعلا: ﴿**وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً**﴾[النساء:١٢٥]، ووُصف بالخُلّة إبراهيم ونبينا محمد ﷺ، فإبراهيم هو خليل الله، وموسى كليم الله، وأمّا محمد عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ نبيُّنا فإنه اجتمع فيه الوصفان اللذان خُصَّ بهما إبراهيم وموسى، فهو خليل الله كما أن إبراهيم خليل الله، وهو كليم الله كما أن موسى كليم الله، كلّمه الله جل وعلا ليلة المعراج.

قال هنا: (**وله منَ العُمُرِ: ثلاثٌ وستُّونَ سنةً**) يعني من مبدأ ميلاده إلى وفاته عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عمره ثلاث وستون سنة، وُلد عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عام الفيل، العام المعروف، وعاش أربعين سنة، ثم بعد ذلك نُبئ وبعدها أُرسل، ولما مضى عليه بعد ذلك عشر سنين عرج به كما ذكر، وبعد ذلك بثلاث سنين ترك مكة إلى المدينة مهاجرا، فصار عمره إذن حين الهجرة ثلاثا وخمسين سنة، ومكث في المدينة عشرة أعوام وأشهر، وصار عمره ثلاثا وستين سنة عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ.

فصَّل ذلك فقال: (**منها أربعون قبل النُّبُوَّة**) النبوّة تسبق الرسالة، (**أربعون قبل النُّبُوَّة، وثلاثُ وعشرون نبيّا رسولا**) قال بعض أهل العلم: أنه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ مكث ثلاث سنين نبيا، ثم عشرون سنة نبيا رسولا، لأنه كما قال الشيخ هنا: (**نُبِّئَ بـ (اقرأ) وأُرْسِلَ بـ(المدّثر)**)، قال: (**أربعون قبل النُّبُوَّة**) ثم قال: (**نُبِّئَ**) وهذان لفظان مختلفان **الأول النبوة، والثاني**: قال: (**نُبِّئَ**)، نبئ من النبوءة بالهمز، ونُبِّيَ من النبوة، وفرق بين النبوة والنبوءة، وفرق بين النبي والنبيء لغة، أما من حيث الشرع فالنبي والنبيء واحد، وهما قراءتان مشهورتان سبعيتان متواترتان في القرآن كله ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ**﴾[التحريم:٠١]، القراءة الأخرى ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيءُ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ**﴾[التحريم:٠١]، والنبيين، والقراءة الأخرى والنبيئين ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ**﴾[الأحزاب:٠١]، ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيءُ اتَّقِ اللَّهَ**﴾[الأحزاب:٠١]، قراءتان مشهورتان، أشهر من يقرأ بالنبي عاصم وأشهر من يقرأ بالنبيء نافع، النبوة من الارتفاع، كأنه صار في نَبْوَة من المكان، يعني في مرتفع منه، وسبب هذا الارتفاع الإنباء، والنبوءة من الإنباء أنبأه فصار نبيئا، يعني منبئا قال: (**نُبِّئَ بـ (اقرأ)**) هذا

من الإنباء، (نُبِّي بـ (اقرأ)) لا يصلح؛ لأن نبي من الارتفاع، ليس من الإنباء والإخبار والإيحاء، نبي من الارتفاع فيقال: نبوة فإذا أردت الفعل تقول نبئ، أنبئ لأنه من الإنباء.

فإذن نقول يأيها النبي، السلام على النبي ورحمة الله وبركاته، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، لأنه صار مرتفعا عن غيره من أهل الأرض بما أوحى الله جل وعلا إليه، أو النبوءة وهي التي هنا قال: (نُبِّئَ) بمعنى أوحي إليه منبئا به، نبئ بإقرأ، قبل ذلك قال: **(ثلاثٌ وعشرون نبيّا رسولا)** يعني يريد بعضا منها نبيا، وبعضا منها نبيا رسولا.

مرّ معنا الفرق بين النبي والرسول، وأن النبي هو من أوحي إليه بشرع و لم يؤمر بتبليغه، أو أمر بتبليغه لقوم موافقين، معلوم أنه إذا قلنا لم يؤمر بتبليغه، أن هٰذا على سبيل الوجوب؛ لكن قد يبلغ ولا يكون التبليغ واجبا عليه، فالنبي هو من أوحي إليه بشرع، يعني بدين، وأمر بتبليغه أو لم يؤمر بتبليغه. إذا قلنا لم يؤمر بتبليغه يعني وجوبا، وقد يبلغ ذلك استحبابا، فالنبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ قبل أن يرسل بالمدثر بلّغ ما أوحى الله جل وعلا إليه، بلغه خاصته كأبي بكر، وكخديجة، ونحو ذلك. وهٰذا التبليغ على التعريف ليس على سبيل الوجوب، بل هٰذا من جهة الاستحباب، لأن هٰذه فترة النبوة، فإذا كان تعريف النبي هو من أوحي إليه بشرع و لم يؤمر بتبليغه، يعني وجوبا، أو أمر بتبليغه لقوم موافقين فإنه يكون تبليغه فيما لو بلغ يكون على وجه الاستحباب، ليس على وجه المطالبة من الله جل وعلا له بذلك، وقد يطالَب؛ يؤمر بتبليغه، فإذا أمر بتبليغه لقوم يخالفونه، لقوم مشركين، فإنه يكون ذلك الأمر إرسالا، ولهٰذا قال: **(نُبِّئَ بـ(اقرأ))** قال جل وعلا: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾[العلق:٠١] كما هو معروف في حديث عائشة المشهور أنها قالت –وهٰذا في أول الصحيح[1]–: **أول ما بُعث به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤية إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حُبِّبَ إليه الخلاء فكان يتحنث؛ أي يتعبد الليالي ذوات العدد**. وساقت خبر إتيانه بالوحي، ورجوعه إلى خديجة، وما حصل في ذلك. فـ**(نُبِّئَ بـ(اقرأ))** جاءه الوحي، فقال: «**ما أنا بقارئ**»، قال: اقرأ، قال: «**ما أنا بقارئ**» ظنّ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ أن جبريل يريد أن يقرأ شيئا مكتوبا، فقال: «**ما أنا بقارئ**»، يعني لست من أهل القراءة، خلافا لما قد يظن، أو ما حمل عليه بعضهم أن قوله: «**ما أنا بقارئ**»، لست بقارئ يعني لن أقرأ، و لم يرفض هٰذا الطلب عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، لكن قال: «**ما أنا بقارئ**»، يعني لست بقارئ، لست من أهل القراءة، لأنه لا يقرأ ولا يكتب عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، فقال له مرة أخرى: اقرأ. قال: «**ما أنا بقارئ**»، ثم جاءه في الأخيرة ككل مرة غطّه، ثم قال: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣)الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ**﴾[العلق:١-٤]، فنزل بها رسول الله ﷺ من غار حراء الذي كان يتحنث فيه يرجف بها فؤادُه، حتى أتى خديجة، فقصّ عليها الخبر، فقالت له: **كلا والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتحمل الكَلّ، وتعين على نوائب الدهر، وتصل الرحم**. أو كما قالت، ثم قالت لورقة بن نوفل ما قاله لها عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، وقص عليه –عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ– الخبر، فقال: هٰذا والله هو الناموس الذي كان يأتي موسى. **الناموس** يعني ملك الوحي الذي كان يأتي موسى ليتني كنت فيها –يعني في مكة– حيا، إذ يخرجك قومُك، فقال: «**أوَ مخرجي هم؟**» قال: لم يأتِ أحد بمثل ما جئت به إلا عُودي.

(١) البخاري: بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، حديث رقم (٠٣).

فما لبث ورقة أن توفي وفتر الوحي. أو كما جاء في الحديث، حديث عائشة المعروف المخرج في الصحيحين، وهو في أوائل صحيح البخاري.

(**نُبِّئَ بـ (اقرأ)**) فمكث فيها مدة، وهذه المدة فتر فيها الوحي، ثم بعد ذلك أرسل بالمدثر، أنزل الله جل وعلا عليه ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ**﴾[المدثر:١-٢]، فصار الواجب هنا الإنذار، والإنذار يكون كما سيأتي، يكون لقوم وقعوا في شيء ينذرون عنه، فصار هذا علامة على الرسالة، ﴿**قُمْ فَأَنذِرْ**﴾ أنذر من؟ جاء مبيّنا في الآية الأخرى حيث قال: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ**﴾[الشعراء:٢١٤]، هذه كانت بداية الإرسال وبداية الإنذار عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ.

(**وأُرْسِلَ بـ(المدّثر)**)؛ أرسل يعني صار رسولا بنزول أول سورة المدثر عليه.

(**وبلدُهُ مكّةَ**) هو من أهل مكة عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ؛ فقد كان يقول في مكة: «**إنك لأحب بلاد الله إلي ولولا أن قومك أخرجوني ما خرجت منك**»[1] بلده مكة، وكان عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ يحبها، وذكر لما هاجر إلى المدينة أو قبل ذلك -وَهْمٌ مني الآن- قال: «**إني لأعرف حجرا بمكة ما لقيته إلا سلَّم علي**»[2] كانت أحجار مكة تحبه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، وهذا الحجر بخصوصه أنطقه الله للسلام عليه، عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ قال: «**إني لأعرف حجرا بمكة ما مررت عليه إلا سلم علي**» يعني بصريح السلام: السلام عليك يا رسول الله.

(**وبلدُهُ مكّةَ**) وهذه البلد هي التي نبئ فيها، وهي التي أرسل فيها، وهي التي بها عشيرته وقومه وأهله وقرابته، وبعثه الله جل وعلا ينذر ويبشر ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ** (١) **قُمْ فَأَنذِرْ**﴾[المدثر:١-٢]، أوضح الشيخ هنا قال: (**وبعثَهُ اللهُ بالنَّذَارَةِ عنِ الشِّركِ، ويدعُو إلى التَّوحيدِ**)، ﴿**قُمْ فَأَنذِرْ**﴾ ينذر عن أي شيء؟ ينذر عن الشرك ، يخوّف، الإنذار إعلامٌ فيه تخويف عن شيء يمكن تداركه، لكن وقت تداركه يطول بخلاف الإشعار، هناك عندنا ثلاثة ألفاظ: إعلام، إنذار، إشعار:

الإعلام: مجرد إيصال العلم؛ خبر.

الإنذار: إعلام فيه تخويف، وهناك فترة يمكن تصحيحها.

الإشعار: إعلام فيه تخويف، لكن مدة استدراكه قليلة كما قال الشاعر:

أنذرتَ عمرا وهو في مَهَل قبل الصباح فقد عصى عمرُو

فدل على أن الإنذار يكون بعده مدة يمكن الاستدراك بها، **ينذر عن الشرك** أيضا يخوف من النار، يخوف من عذاب الله، يخوف من سخط الله كما قال جل وعلا: ﴿**فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ**﴾[فصلت:١٣] فإذا الإنذار يكون عن الشرك، وعما يكون عقابا لأهل الشرك من أنواع العقوبات، في الدنيا بالهلاك والاستئصال، وفي الآخرة بالعذاب والنكال، (**وبعثَهُ اللهُ بالنَّذَارَةِ عنِ الشِّركِ، ويدعُو إلى التَّوحيدِ**) الإنذار والنهي عن الشرك مقدم هنا، قدمه على الدعوة إلى التوحيد، وهذا التقديم هو المفهوم من كلمة التوحيد لا إله إلا الله، وهو

(١) مستدرك الحاكم: أول كتاب المناسك، حديث رقم (١٨٢٣)، قال الحاكم: حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، ووافقه الذهبي في التلخيص.

(٢)مسلم: كتاب الفضائل، باب فضل نسب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، حديث رقم (٢٢٧٦). بنحوه.

المفهوم من قوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾، ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ يعني أنذر عن الشرك، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ كما سيأتي معناه، أن معناه عظمه بالتوحيد، فإذن قال: (**بالنَّذَارَةِ عنِ الشِّركِ، ويدعُو إلى التَّوحيدِ**) هو معنى (لا إله إلا الله) ، ذكر العلماء أن ثمَّ مناسبة ها هنا وهي أن الإنذار عن الشرك هٰذا فيه تخلية، والدعوة إلى التوحيد تحلية، **ومن القواعد المقررة أن التَّخْلِيَة تسبق التَّحْلِيَة**، لهٰذا النهي عن الشرك والإنذار عن الشرك إخراج لكل ما يتعلق به القلب؛ لأنه قال لا يتعلق القلب بأي أحد من هٰذه الآلهة، ثم إذا خلا القلب من التعلق بأحد، أمره بأن يتعلق بالله جل وعلا وحده دون ما سواه.

قال هنا: (**والدليلُ قوله تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾) **الْمُدَّثِّرُ** هو المتغطي؛ المتدثر بأغطيته وأكسيته وملابسه أو نحو ذلك. قال: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ هٰذا للوجوب، قال الشيخ رحمه الله (**ومعنى** ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ **يُنْذِرُ عنِ الشِّركِ ويدعُو إلى التَّوحيدِ،** ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ **أي: عَظِّمْهُ بالتَّوحيدِ**) يعني أن قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ معناه خُصَّ[1] ربك بالتكبير، لأنه قدم المفعول؛ أصل الكلام: كبِّر ربك. فقدَّم المفعول على العامل فيه وهو الفعل، فدل على الاختصاص، فقال: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ قال الشيخ معنى ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي عظّمه بالتوحيد، وهٰذه لاشك من الشيخ رحمه الله تعالى من العلم الغزير العظيم الذي يحتاج إلى إيضاح وبسط.

ذلك أن التكبير جاء في القرآن وله خمسة موارد:

١- فتكبير الله جل وعلا يكون في ربوبيته، يعني اعتقاد أنه أكبر من كل شيء يُرى أو يُتوهم أو يُتصور أنه موجود، هو أكبر من كل شيء في ربوبيته، في ملكه، في تصريفه لأمره، في خلقه، في رَزقه، في إحيائه، في إماتته، إلى آخر معاني الربوبية هٰذا الأول، قال جل وعلا: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾[الإسراء:١١١]، الله أكبر يشمل هٰذا المعنى، ويشمل غيره من معاني التكبير التي ستأتي.

إذن قوله هنا ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ يدخل فيه أولا اعتقاد أن الله جل وعلا أكبر من كل شيء في مقتضيات ربوبيته.

٢- الثاني أن الله جل وعلا أكبر من كل شيء في استحقاقه الإلهية والعبادة وحده دونما سواه، فإن العبادة صُرفت لغير الله، وهو جل وعلا أكبر وأعظم وأجل من كلِّ هٰذه الآلهة التي صُرفت لها أنواع من العبادة، فالتكبير يرجع إلى الربوبية وهو الأول، وهٰذا التكبير يرجع إلى استحقاقه للإلهية.

٣- وتكبير وهو الثالث اعتقاد -كما قال: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾- أنَّ ربك أكبر من كل شيء في أسمائه وصفاته، فإنه في أسمائه أكبر من كل ذوي الأسماء، الأشياء لها أسماء، لكن أسماء الله جل وعلا أكبر من ذلك، **أكبر** يرجع الكبر هنا لأي شيء؟ لما فيها من الحسن، والبهاء، والعظمة، والجلال، والجمال ونحو ذلك، وكذلك في الصفات، فصفاته عُلا، كما قال جل وعلا ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[الروم:٢٧]، وقال جل وعلا: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾[النحل:٦٠] يعني له الاسم الأعلى، وله النعت الأعلى، وقال جل وعلا ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[الإخلاص:٤]، وقال جل وعلا: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[مريم:٦٥]، ونحو ذلك، فهو جلّ وعلا أكبر من كل شيء في أسمائه وصفاته.

---

(١) انتهى الشريط الخامس.

٤- كذلك قوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ يعني في قضائه وقَدَره الكوني، فالله جل وعلا في قضائه وقَدَره الكوني أكبر؛ يعني أن قضاءه وقدره له فيه الحكمة البالغة، وأما ما يقضيه ويُقَدِّره العباد لأنفسهم، يقدر الأمر بنفسه، ويفعل الأمر لنفسه، فإن هٰذا يناسب نقص العبد، والله جل وعلا في قضائه وقدره بما يحدثه في كونه فهو أكبر.

٥- الأخير تكبير الله جل وعلا في شرعه وأمره.

قال: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ تدخل فيها هٰذه الخمسة، الأخير يعني اعتقاد الله جل وعلا أكبر فيما أمر به ونهى، وفيما أنزله من هٰذا القرآن العظيم، أكبر وأعظم من كلّ ما يشرعه العباد، أو يحكم به العباد، أو يأمر العباد به و ينهون عنه، ولهٰذا صارت هٰذه الكلمة (**الله أكبر**) من شعارات المسلمين العظيمة، يدخلون في الصلاة بها، ويردّدونها في الصلاة، وهي من الأوامر الأولى التي جاءت للنبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، قال تعالى له: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾.

إذا لَحَظْتَ هٰذه المعاني الخمسة، وكل واحدة منها لها أدلة كثيرة من القرآن، تدبّر وأنتَ تقرأ القرآنَ، الآيات التي فيها ذكر تكبير الله تجد أن بعضها فيه ذكر الربوبية، وبعض الآيات فيه ذكر الألوهية، وبعضها فيه ذكر الأسماء والصفات، وبعضها فيه ذكر قضاء الله الكوني؛ أفعال الله جل وعلا، وبعضها فيه شرع الله جل وعلا، إذا اجتمعت هٰذه الخمس رأيت أن هٰذا التفسير من أحسن وأعظم ما يكون.

قال: (﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ **أي: عَظِّمْهُ بالتَّوحيدِ**) إذا اجتمعت هٰذه الخمس في الفهم، قال: (﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ **أي: عَظِّمْهُ بالتَّوحيدِ**) لأن معاني التكبير هي معاني التعظيم، وتلك المتعلقات هي التوحيد بأنواعه، فصار تفسير الشيخ هنا بقوله: (﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ **أي: عَظِّمْهُ بالتَّوحيدِ**) وهو من التفاسير المنقولة عن السلف، أنه صار هٰهنا اختيارا مناسبا ملائما واضح الدلالة.

قال بعدها: (﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ **أي: طَهِّرْ أعمالَكَ عنِ الشِّركِ**)، فسّر الثياب بالعمل، الثوب أصله في اللغة ما يَثُوبُ إلى صاحبه، يعني ما يرجع إلى صاحبه، سمي اللباس -سواء كان قميصا أو إزارا أو كان سراويلا، أو نحو ذلك، أو كانت عمامة-، يسمى ثوبا، لأنه يرجع إلى صاحبه في التباسه به حال لُبْسِهِ، هٰذا أصل الثوب، ولهٰذا يقال للعمل أيضا ثوب، وتجمع على ثياب، باعتبار أنه يرجع إلى صاحبه، لهٰذا فَسَّرَ قوله تعالى هنا: (﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ **أي: طَهِّرْ أعمالَكَ**) فسر الثياب بالأعمال، لأنها راجعة إلى صاحبها باعتبار أصلها اللغوي، أو يقال: إنّ العمل مشبه بالثوب لملازمته لصاحبه، فالثوب يلازم لابسه، والعمل كذلك يلازم عامله، كما قال جل وعلا: ﴿**وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ**﴾[الإسراء:١٣]، الطائر هو ما يطير منه من العمل من خير أو شر، أُلزم به، صار ملازما له كملازمة ثوبه له.

هنا اختار الشيخ أحد التفسيرين المنقولين عن السلف، وهو أن معنى (﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ **أي: طَهِّرْ أعمالَكَ عنِ الشِّركِ**)، وفُسِّرت بـ:طهّر ثيابك من النجاسات، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ هٰذا التفسير الأعم أنسب ها هنا، لأنه يناسب ما قبله وما بعده، فإن ما قبله فيه الإنذار وتعظيم الله بالتوحيد، وما بعده فيه تركٌ للرُّجْزِ وهجر للأصنام والبراءة منها، بقي قوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ فاتساق الكلام وكونه جميعا جاء بمعنى مترابط يقضي بأن يختار تفسير الثياب بالأعمال، لأن ما قبله ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ لينذر عن الشرك ويدعو إلى التوحيد، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ يعني وعظمه بالتوحيد، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾، ثم قال: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ التي هي الأصنام والأوثان، أتركها وتبرأ منها، صار الجميعُ في البراءة من الشرك، والبعد عن

الشرك، والنهي عنه، والدعوة والالتزام بالتوحيد، بقي قوله: ﴿**وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ**﴾ لها تفسيران؛ تفسير للثياب بالثياب المعروفة؛ ثيابك تطهرها من النجاسة، أو ثيابك التي هي الأعمال، طهرها من الشرك، فصار الأنسب للسياق أن يُفسر ﴿**وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ**﴾ بطهر أعمالك من الشرك.

وهٰذا مما يعتني به المحققون من المفسرين، أنهم يختارون في التفسيرِ التفسيرَ الذي يناسب السياق، يناسب ما بعده وما قبله، واللغة لها محامل كثيرة، ولهٰذا اختلف السلف في تفسيراتهم.

قال: (﴿**وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ**﴾ **الرُّجْزُ: الأصنامُ، وهجرُها تَرْكُها وأهلِها، والبراءَة منها وأهلِها**) يعني ترك الأصنام، وترك أهلها، والبراءة من الأصنام، والبراءة من أهلها، قال: ﴿**وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ**﴾ الرّجز: اسم عام لما يعبد من دون الله، قد يكون صنما، وقد يكون وثنا، قال هٰهنا: (**الرُّجْزُ: الأصنامُ**) يعني قوله: ﴿**وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ**﴾ أي الأصنام أُتْرك، ويلزم من ذلك أن يترك أهلها ويتبرأ منها ومن أهلها، (**الرُّجْزُ: الأصنامُ**) الأصنام: جمع صنم، والصنم اسم لما عُبِد من دون الله، مما كان على هيئة صورة، عند كثير من العلماء، يعني الصنم يكون مصور على هيئة صورة؛ صورة كوكب، أو صورة جني، أو صورة شجرة، أو صورة آدمي، أو صورة نبي، أو صورة صالح، أو طالح، أو صورة حيوان، أن يكون على هيئة صورة، فإذا كان هناك شيء مصنوع على هيئة صورة –إما صورة كوكب، أو صورة مما هو على الأرض مما يعبد من دون الله– صار صنما، فإن كان ما يعبد من دون الله ليس على هيئة صورة صار اسمه الوثن لهٰذا قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد**»[1] لا يصلح صنما يُعبد، لأن القبر لا يكون على هيئة مصورة، قال: ((**وثنا يعبد**)) لأن الوثن اسم لما يعبد من دون الله على هيئة صورة، أو على غير هيئة صورة، الوثن: اسم لما يعبد من دون الله إذا لم يكن مصورا على هيئة صورة.

قال بعض أهل العلم: الوثن قد يكون أيضا على هيئة صورة، فيكون الصنم ما له صورة، والوثن: يشمل ما كان له صورة وما لم يكن له صورة. وهٰذا هو القول الثاني، فيكون كل صنم وثنا، وليس كل وثن صنما، وأخذوا هٰذا من قوله تعالى في سورة العنكبوت، قال جل وعلا مخبرا عن قول إبراهيم لقومه: ﴿**إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا**﴾[العنكبوت:١٧]، فحصر فقال: ﴿**إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا**﴾ قد بين الله جل وعلا في آيات أخر أنّ إبراهيم سألهم عن عبادتهم قال: ﴿**مَا تَعْبُدُونَ**﴾[الشعراء:٧٠]، قالوا: ﴿**قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ**﴾[الشعراء:٧١]، صار الوثن يشمل الصنم وغير الصنم.

فهٰذا القول أدق وهو الذي أَختاره أن الوثن يشمل الصنم وغير الصنم، يعني ما له صورة مما عُبد من دون الله وما ليس له صورة، وأما الصنم فهو في الغالب ما كان على هيئة صورة.

قال: (**والرُّجْزُ: الأصنامُ**) ومعلوم أنه إذا نهاهم عن عبادة الأصنام، فإنه بذلك ينهاهم عن عبادة الأوثان، لأن العلة فيهما واحدة، وهي عبادة غير الله جل وعلا، وهجرها تركها وأهلها، والبراءة منها وأهلها.

---

(١) الموطأ: كتاب قصر الصلاة في السفر، باب جامع الصلاة، حديث رقم (٤١٦)، وهو مرسل.

مسند أحمد (تحقيق أحمد شاكر) حديث رقم (٧٣٥٢)، قال أحمد شاكر: إسناده حسن.

قال: (**أخذَ على هٰذا عشْرَ سنِينَ يدعُو إلى التوحيدِ**) يعني بذلك أنّه مكث عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عشر سنين يدعو قومه، ويدعو عشيرته الأقربين وجوبا لقوله تعالى: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ**﴾[الشعراء:٢١٤]، يدعو إلى التوحيد قبل أن تنزل الفرائض، لم تنزل فريضة الصلاة على هٰذا النحو، ولا فريضة الزكاة على هٰذا النحو، ولا سائر التشريعات على هٰذا النحو، لم تُحَرَّم الخمر، و لم يُحرَّم الزنا، و لم يُحَرَّم الربا في تلك المدة، وهٰذا معنى قوله: (**أخذَ على هٰذا**) يعني على الدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك، (**أخذَ على هٰذا**) على الإنذار عن الشرك، والدعوة إلى التوحيد، أخذ عشر سنين يدعو إلى التوحيد، ما كان يدعو فيها إلى الأعمال، لا إلى الصلاة ولا إلى الزكاة مع أنه كان له صلاة في ذلك.

قال كثير من أهل العلم: كانت الصلاة المفروضة في العشر سنين تلك صلاتين في اليوم والليلة، أحدها في إقبال النهار، والأخرى في إقبال الليل، يعني أحدها الفجر، والثاني المغرب، وحملوا عليه قوله تعالى في سورة طه: ﴿**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا**﴾[طه:١٣٠]، كذلك قوله في سورة ق ﴿**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ**﴾[ق:٣٩]، ونحو ذلك من الآيات، أما الصلوات الخمس فلم تُفرض إلا بعد ذلك.

قال: (**وبعدَ العشْرِ عُرِجَ به إلى السماءِ**)كانت الصلاة ركعتين، أول النهار وآخره، على قول كثير من العلماء، قال: (**وبعدَ العشْرِ عُرِجَ به إلى السماءِ**) المعراج معناه الصعود، (**عُرِجَ به إلى السماءِ**) يعني صُعد به إلى السماء، ومن أسماء السُّلم والمرقاة التي يُرتقى عليها: المعراج، فمعنى المعراج السلم الذي يُصعد عليه، (**عُرِجَ به**) أي صُعد به، (ليلة المعراج) يعني الليلة التي صُعد بالنبي ﷺ فيها على المعراج يعني على السلم، تسمية الليلة بوسيلة الصعود وهو المعراج، عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ أسري به تلك الليلة من مكة إلى بيت المقدس، وبعد ذلك (**عُرِجَ به**)، الدابة رُبطت عند بيت المقدس، ثم أخذه جبريل وعَرج به بالمعراج –يعني بالسلم الخاص الذي يصعد عليه– إلى السماء، (**إلى السماء**) المقصود به جنس السماء، يعني السمٰوات– حتى ارتفع في مستوى يسمع فيه [صريف الأقلام][(١)] عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، حتى إنه قرُب من ربه جل وعلا، وكلّمه ربه جل وعلا بدون واسطة، رأى عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ تلك الليلة نور الله جل وعلا، ورأى الحجاب الذي احتجب الله جل وعلا به عن خلقه فلا يرونه، كما جاء في الحديث الصحيح أنّ النبي ﷺ سئل هل رأيت ربك؟ –يعني ليلة المعراج– فقال: «**رأيت نورا**». وفي رواية أخرى قال: «**نورٌ أنّى أراه**»[(٢)]. يعني ثَم نور فكيف أراه؟

وهٰذا من الفضل العظيم له عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ؛ أنه ارتفع من الأرض إلى ما بعد السّماء السابعة، ورأى الجنة، ورأى النار، في ليلة واحدة، ورجع، والسماء الواحدة لا يقطعها القاطع إلا بمسيرة خمسمائة سنة، وما بين السماء والسماء لا يقطعها القاطع إلا بمسيرة خمسمائة سنة، وهكذا حتى تصل إلى السماء السابعة، ثم بعد ذلك الماء، وبعد ذلك الكرسي إلى

---

(١) لعله قال كما أُثبت والله أعلم.

(٢) مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله عليه السلام: ((**نور أنى أراه**))، وفي قوله: ((**رأيت نورا**)). حديث رقم (١٧٨).

آخره[1]، وهو عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ لا شك أن المعراج له عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ مما يدل على عظم قدره عند ربه جل وعلا، لهٰذا قال تعالى في الإسراء وهو من العجب بما كان ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا**﴾[الإسراء:١]، يعني في بعض الليل من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم رجع، هٰذا من مكة إلى بيت المقدس محل عجب عند العرب ولا شك أنه محل عجب، حيث ما كان عندهم من المركوبات، فكيف من بيت المقدس إلى ما بعد السماء السابعة، ثم يرجع إلى بيت المقدس، ثم يرجع من بيت المقدس إلى مكة، وفراشه لم يبرد بعد، هٰذا لاشك أنه مما أكرم الله جل وعلا به نبيه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ.

قال: (**وفُرِضَتْ عليه الصلواتُ الخمسُ**) يعني على هٰذا النحو، بعد أن فرضت عليه خمس صلوات وأصبح صباحه في مكة، نزل عليه جبريل يعلمه أوقات الصلوات وأنواعها.

قال: (**وصلَّى في مكّةَ ثلاثَ سنينَ، وبعدَها أُمِرَ بالهجرةِ إلى المدينةِ**) يعني صلّى السنة العاشرة، الحادية عشر، الثانية عشر، من البعثة، ثم بعد ذلك أُمر بالهجرة إلى المدينة.

وعلى هٰذا نقف، أسأل الله أن ينفعني وإياكم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.



---

[1] لعله سبق لسان لأنه قال في شرح الباب الأخير من كتاب التوحيد: فالأرض التي أنت فيها، وأنت فيها في نقطة صغيرة صغيرة، هي بالنسبة إلى السماء هٰذا وصفها، والأرض والسموات بالنسبة للكرسي هٰذا وصفه، والكرسي أيضا فوقه ماء، وفوق ذلك العرش؛ عرش الرحمٰن جل وعلا.

بسم الله الرحمن الرحيم

[المتن]

وصلَّى في مكّةَ ثلاثَ سنينَ، وبعدَها أُمِرَ بالهجرةِ إلى المدينة.

والهجرةُ: الانتقالُ مِنْ بلدِ الشِّركِ إلى بلدِ الإسلامِ، والهجرةُ فَرِيضةٌ على هٰذه الأمّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّركِ إلى بلدِ الإسلام، وهي باقيةٌ إلى أنْ تقومَ الساعةُ، والدليلُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾[النساء:٩٧-٩٩]، وقوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾[العنكبوت:٥٦]، قالَ البَغَوِيُّ رحمهُ الله: سببُ نزولِ هٰذه الآيةِ في المسلمين الذين بمكّةَ لم يهاجِرُوا؛ ناداهُم اللهُ باسمِ الإيمانِ.

والدليلُ على الهجرةِ من السُّنَّةِ قولُهُ ﷺ: «لا تَنْقَطِعُ الهجرَةُ حتَّى تَنْقَطِعَ التَّوبةُ ولا تنقطعُ التّوبةُ حتّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»[1].

[الشرح]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم إنا نسألك علما نافعا وعملا صالحا، ودعاء مسموعا، وقلبا خاشعا.

أما بعد:

قال الإمام رحمه الله تعالى: (**وصلَّى في مكّةَ ثلاثَ سنينَ، وبعدَها أُمِرَ بالهجرةِ إلى المدينةِ.**) صلى في مكة عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ ثلاث سنين، يعني بعد أن فرضت عليه الصلاة، صلى الصلوات الخمس على هٰذا النحو الذي نصليه، قد حُدّت صفاتها، أركانها، واجباتها، وأوقات الصلوات بيِّنت، جاء إلى النبي جبريلُ وبيّن له أوقات الصلوات.

بعد ثلاث سنين من فرض الصلاة هاجر النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ إلى المدينة، بعد أن أُمر بذلك وبعد هجرته عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ إلى المدينة ابتدأ التاريخ الهجري كما هو معروف، لما أتى إلى هٰذا الموضع، فسّر الهجرة فقال: (**والهجرةُ: الانتقالُ مِنْ بلدِ الشِّركِ إلى بلدِ الإسلامِ**) هٰذا تعريفها الاصطلاحي.

والهجرة في اللغة: التّرك.

وفي الشرع ترك ما لا يحبه الله ويرضاه إلى ما يحبه ويرضاه، ويدخل في هٰذا المعنى الشرعي هجر الشِّرك، يدخل فيه ترك محبة غير الله ورسوله، يدخل فيه ترك بلد الكفر، لأنّ المُقام فيها لا يرضاه الله جل وعلا ولا يحبه.

---

(١) سنن أبي داوود: كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت، حديث رقم (٢٤٧٩). قال الشيخ الألباني: صحيح.

أما في الاصطلاح قال: (**الهجرةُ: الانتقالُ مِنْ بلدِ الشِّركِ إلى بلدِ الإسلامِ**)؛ الانتقال يعني ترك بلد الشرك والذهاب إلى بلد الإسلام، وسبب الهجرة يعني سبب إيجاب الهجرة، أو سبب مشروعية الهجرة أنّ المؤمن يجب عليه أن يُظهر دينَه، معتزًّا بذلك، مبيِّنا للناس، مخبرا أنه يشهد شهادة الحق؛ لأنّ الشهادة لله بالتوحيد ولنبيه بالرسالة فيها إخبار الغير، وهٰذا الإخبار يكون بالقول والعمل، وإظهار الدين به يكون إخبار الغير عن مضمون الشهادة ومعنى الشهادة، فلهٰذا كانت الهجرة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام واجبة إذا لم يستطع المسلم إظهارَ دينه، لأنّ إظهار الدين واجب في الأرض، وواجب على المسلم أن يُظهر دينه، وأن لا يستخفي بدينه، فإذا كان إظهارُه لدينه غير ممكن في دارٍ وجب عليه أن يتركها، يعني وجب عليه أن يهاجر.

قال: (**الانتقالُ مِنْ بلدِ الشِّركِ إلى بلدِ الإسلامِ**).

بلد الشرك: هي كلُّ بلد يظهر فيها الشرك ويكون غالبا؛ إذا ظهر الشرك في بلد وصار غالبا كثيرا أكثر من غيره، صارت تسمى بلد شرك، سواء كان هٰذا الشرك في الربوبية، أو كان في الإلهية، أو كان في مقتضيات الإلهية من الطاعة والتحكيم ونحوها.

بلد الشرك هي البلد التي يظهر فيه الشرك ويكون غالبا.[1]

هٰذا معنى ما قرره الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله حينما سئل عن دار الكفر ما هي؟ قال: دار الكفر هي الدّار التي يظهر فيها الكفر ويكون غالبا.

---

(١) جاء في الدرر السنية في الأجوبة النجدية جمع ابن القاسم (٢٥٤/٩-٢٥٥) ما نصه:

سئل الشيخ عبد الرحمن بن حسن: إذا كان في البلدة وثن يدعى من دون الله، و لم ينكر، هل يقال: هذه بلدة كفر؟ أو بلدة إسلام؟

فأجاب: لا ينبغي الجزم بأحد الأمرين، لاحتمال أن يكون في البلد جماعة على الإسلام مظهرين ذلك، فإن هذه الدعوة التي ظهرت بنجد، ومكنها الله بالجزيرة، قد قبلها أناس، كما بلغنا عن الأفغان، والصومال، أن في كل منهما طائفة تدين بالتوحيد، وتظهره، وقد يكون غيرهم كذلك، لأن هذه الدعوة قد شاعت في كل بلاد، وقرؤوا مصنفات شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى، فيما أجاب من عارضه، وقد بلغنا من ذلك عن بعض أهل الأقاليم، ما يوجب التوقف.

وأجاب الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين، رحمه الله: البلدة التي فيها شيء من مشاهد الشرك، والشرك فيها ظاهر، مع كونهم يشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، مع عدم القيام بحقيقتها، ويؤذنون، ويصلون الجمعة والجماعة، مع التقصير في ذلك، هل تسمى دار كفر، أو دار إسلام؟

فهذه المسألة: يؤخذ جوابها مما ذكره الفقهاء، في بلدة كل أهلها يهود، أو نصارى، أنهم إذا بذلوا الجزية، صارت بلادهم بلاد إسلام؛ وتسمى دار إسلام، فإذا كان أهل بلدة نصارى، يقولون في المسيح أنه الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، أنهم إذا بذلوا الجزية سميت بلادهم بلاد إسلام، فبالأولى فيما أرى: أن البلاد التي سألتم عنها، وذكرتم حال أهلها، أولى بهذا الاسم، ومع هذا يقاتلون لإزالة مشاهد الشرك، والإقرار بالتوحيد والعمل به.

بل لو أن طائفة امتنعت من شريعة من شرائع الإسلام، قوتلوا وإن لم يكونوا كفارا ولا مشركين، ودارهم دار إسلام؛ قال الشيخ تقي الدين: أجمع العلماء على أن كل طائفة امتنعت من شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة، تقاتل حتى يكون الدين كله لله، كالمحاربين، وأولى؛ انتهى. وما ذكرناه عن العلماء من أنهم يسمون البلدة التي أهلها يهود، أو نصارى، دار إسلام، يذكرون ذلك في باب اللقيط وغيره.

إذن إذا ظهر الشرك في بلدة وصار ظهوره غالبا، معنى ذلك أن يكون منتشرا ظاهرا بيّنا غالبا الخير، فإن هٰـذه الـدّار تسمى بلد شرك، هٰذا باعتبار ما وقع وهو الشِّرك.

أما باعتبار أهل الدار فهٰذه مسألة فيها خلاف بين أهل العلم أن يُنظر في تسمية الدار بدار إسلام ودار شرك إلى أهلها؟

وقد سئل شيخ الإسلام رحمه الله عن بلد تظهر فيها أحكام الكفر، وتظهر فيها أحكام الإسلام، فقال هٰـذه الـدار لا يحكم عليها أنها دار كفر، ولا أنها دار إسلام، بل يعامل المسلم فيها بحسبه، ويعامل فيها الكافر بحسبه.

وقال بعض العلماء: الدار إذا ظهر فيها الأذان وسُمع [وقت من] أوقات الصلوات فإنها دار إسلام، لأنّ الـنبي عَلَيْـهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ كان إذا أراد أن يغزو قوما أن يصبّحهم، قال لمن معه: «**انتظروا**» فإن سمع أذانا كـفّ، وإن لم يسـمع أذانا قاتل.

وهٰذا فيه نظر، لأنّ الحديث على أصله، وهو أن العرب حينما يُعلون الأذان، معنى ذلك أنهم يقرون ويشهدون شهادة الحق لأنهم يعلمون معنى ذلك، فهم يؤدون حقوق التوحيد الذي اشتمل عليه الأذان، فإذا شهدوا أن لا إلـه إلا الله وأن محمدا رسول الله ورفعوا الأذان بالصلاة، معنى ذلك أنهم انسلخوا من الشرك وتبرؤوا منه، وأقاموا الصلاة، وقد قال جـل وعلا: ﴿**فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ**﴾[التوبة:١١]، ﴿**فَـإِنْ تَـابُوا**﴾ مـن الشـرك، ﴿**وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ**﴾، ذلك لأنّ العرب كانوا يعلمون معنى التوحيد، فـإذا دخلـوا في الإسلام وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، دلّ ذلك على أنهم يعملون بمقتضى ذلك، أما في هٰذه الأزمنـة المتأخرة فإن كثيرين من المسلمين، يقولون: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. ولا يعلمون معناها، ولا يعملون بمقتضاها؛ بل تجد الشرك فاشيا فيهم.

ولهٰذا نقول: إن هٰذا القيد أو هٰذا التعريف وهو أن دار الإسلام هي الدار التي يظهر فيها الأذان بالصلوات، أنه في هٰذه الأزمنة المتأخرة أنه لا يصح أن يكون قيدا، والدليل على أصله؛ وهو أن العرب كانوا ينسلخون من الشرك، ويتبرؤون منه ومن أهله، ويقبلون على التوحيد، ويعملون بمقتضى الشهادتين، بخلاف أهل هٰذه الأزمان المتأخرة.

والأظهر هو الأول في تسمية الدار، ولا يلزم من كون دارٍ ما دار شرك أو دار إسلام أنْ يكون هٰذا حكم على الأفراد الذين في داخل الدار، بل قلنا: إن الحكم عليها بأنها دار كفر، أو دار شرك هٰذا في الأغلب بظهور الشرك والكفر، ومـن فيها يعامل كلٌّ بحسبه، خاصة في هٰذا الزمن، لأن ظهور الكفر، وظهور الشرك بكثير من الديار، ليس من واقع اختيـار أهل تلك الديار؛ بل هو ربما كان عن طريق تسلط إما الطرق الصوفية مثلا، أو عن تسلط الحكومات، أو نحو ذلك، كما هو مشاهد معروف.

لهٰذا نقول: إن اسم الدار على نحو ما بينت، أما أهلها فيختلف الحال.

قال: (**والهجرةُ: الانتقالُ مِنْ بلدِ الشِّركِ إلى بلدِ الإسلامِ**) الهجرة من حيثُ مكانُها تنقسم: إلى هجرة عامة وهجـرة خاصة.

الهجرة العامة: هي التي عرّفها الشيخ هنا ترك بلد الشرك إلى بلد الإسلام، الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، بلد الشرك أيَّ بلد إلى أن تطلع الشمس من مغربها، أيَّ بلد ظهر فيها الشرك، وظهر فيها أحكام الشرك، وكان ذلك غالبا، فإن الهجرة منها تسمى هجرة، وهٰذه الهجرة عامة، من حيث المكان يمكن أن تكون متعلقة بأي بلد.

أما **الهجرة الخاصة:** فهي الهجرة من مكة إلى المدينة، ومكة لما تركها النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ تركها وهي دار شرك، وذهب إلى المدينة، لأنه فشا فيها الإسلام فصار كل بيت من بيوت المدينة دخل فيه الإسلام، فصارت دار إسلام، فانتقل من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، هاجر هجرة خاصة، وهٰذه الهجرة الخاصة هي التي جاء فيها قوله عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**لا هجرة بعد الفتح؛ بل جهاد ونية**»[1] كما ثبت في الصحيح، فقوله: ((**لا هجرة بعد الفتح**)) يعني لا هجرة من مكة، الهجرة الخاصة هٰذه من مكة إلى المدينة.

أما الهجرة العامة –الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام– فهي باقية إلى طلوع الشّمس من مغربها؛ إلى قيام الساعة، إذا وجد بلد شرك، ووجد بلد إسلام، توجب الهجرة، هٰذا من حيث المكان.

ومن حيث الحكم، فإن الهجرة تارة تكون واجبة، وتارة تكون مستحبة؛ تكون الهجرة واجبة، يعني من بلد الشرك إلى بلد الإسلام:

تكون **واجبة:** إذا لم يمكن للمسلم المقيم بدار الشرك أن يظهر دينه، إذا ما استطاع أن يظهر التوحيد، ويظهر مقتضيات دينه، والصلاة وإتباع السنة، كل بلد بحسبه؛ بحسب ما فيه من الشرك، يظهر ما يخالف فيه هٰذا البلد، ويكون متميزا فيهم، إذا لم يستطع ذلك، فإن الهجرة تكون واجبة عليه، وعليه حُمل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ**﴾[النساء:٩٧]، يعني لم نستطع إظهار الدين، الاستضعاف هنا بمعنى عدم استطاعة إظهار الدّين ﴿**قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾[النساء:٩٧]، فدلّ هٰذا على أنها واجبة، لأنه توعّدها عليهم بجهنّم، فمعنى هٰذا أنّ ترك الهجرة إذْ لم يستطع إظهار الدّين أنّه محرم، وأن الهجرة واجبة.

القسم الثاني **المستحب:** وتكون الهجرة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام مستحبّة، إذا كان المؤمن في دار الشرك يستطيع أن يظهر دينه، تكون مستحبة، وذلك لأنّ الأصل الأول من الهجرة أن يتمثّل المؤمن من إظهار دينه، وأن يعبد الله جل وعلا على عزّة، قد قال جل وعلا: ﴿**يَا عِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ**﴾[العنكبوت:٥٦]، نزلت في من ترك الهجرة، وناداهم باسم الإيمان.

هٰذه الأحكام متعلقة بالهجرة من دار الكفر والشرك إلى دار الإسلام.

وهناك هجرة أخرى من دار يكثر فيها المعاصي والبدع إلى دار ليس فيها معاصٍ وبدع أو تقل فيها المعاصي والبدع، وهٰذه ذكر الفقهاء –فقهاء الحنابلة رحمهم الله– ذكروا أنها مستحبة، وأن البلد إذا كثُر فيها الكبائر والمعاصي، فإنه

(١) مسلم: كتاب الإمارة، باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير وبيان معنى ((لا هجرة بعد الفتح))، حديث رقم (١٨٦٤).

يستحب له أن يتركها إلى دار يقل فيها ذلك أو ليس فيها شيء من ذلك، لأن بقاءه على تلك الحال مع أولئك، يكـــون مع المتوعّدين بنوع من العذاب الذي يحيط بأهل القرى الذين ظلموا.

وقد هاجر جمع من أهل العلم من بغداد لما علا فيها صوت المعتزلة وصوت أهل البدع، وكثرت فيها المعاصي والزنـــا وشرب الخمر، تركوها إلى بلد أخرى، وبعض أهل العلم بقي لكي يكون قائما بحق الله؛ بالدعوة وببيان العلم وبالإنكار وبنحو ذلك.

أيضا كثير من العلماء تركوا مصر لما تولت عليها الدولة العبيدية، وخرجوا إلى غيرها، وهٰذا قد يُحمل على أنها مـــن الهجرة المستحبة، أو من الهجرة الواجبة، بحسب الحال في ذلك الزمان.

قال هنا رحمه الله: (**والهجرةُ فَرِيضةٌ على هٰذه الأمّة مِنْ بَلَدِ الشِّركِ إلى بلدِ الإسلامِ**) فرض بقيد أن لا يستطيع إظهار دينه، فإن كان يستطيع كما ذكرت لك فإن الهجرة في حقه مستحبة.

قال: (**وهي باقيةٌ إلى أنْ تقومَ الساعةُ**) يريد إلى قرب قيام الساعة وهو طلوع الشمس من مغربهـــا، كمـــا جـــاء في الحديث «**لا تَنْقَطِعُ الهجرَةُ حتَّى تَنْقَطِعَ التَّوبةُ ولا تنقطعُ التّوبةُ حتّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**».

قال رحمه الله مستدلاّ: (**والدليلُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾**) ظلـــم الـــنفس بتـــرك الهجرة، لأنهم عصوا الله جل وعلا في ترك الهجرة، ومكة لم يَعُدْ في إمكان المؤمنين أن يظهروا دينهم فيها، فقـــد تســـلَّط الكفارُ على أهلها، فلم يستطيعوا -أعْني المؤمنين- أن يظهروا دينهم، وهٰذا هو قائم من أول الدعوة، تسلطوا فترة وكان إظهار الدين في أول الدعوة ليس واجبا، ثم أُمروا بذلك بقوله تعالى: ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ**﴾[الحجر:٩٤-٩٥]، فابتُلي من ابتلي من المؤمنين فلم يستطيعوا إظهار دينهم، فاستأذنوا النبي ﷺ بالهجرة إلى الحبشة، فأذن بالهجرة إلى الحبشة؛ الهجرة الأولى ثم الثانية وقيل ثَمّ هجرة ثالثة.

ثم لما لم يعد في الإمكان أن يظهر الدين في مكة، وقد قامت بلد الإسلام في المدينة صارت الهجرة متعينة وفرضا مـــن مكة إلى المدينة، لهٰذا قال جل وعلا هنا: ﴿**ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا**﴾ يعني الملائكة مخاطبين لهؤلاء الذين توفّتهم الملائكة وقد تركوا الهجرة ﴿**فِيمَ كُنتُمْ**﴾ يعني على أي حال كنتم ﴿**قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ**﴾ فأجابت الملائكة ﴿**قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا**﴾ وهٰذا إنكار عليهم - ﴿**أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَـــاجِرُوا فِيهَـــا**﴾ - لأن الاستفهام هنا في ﴿**أَلَمْ**﴾ استفهام للإنكار وضابطه أن يكون ما بعده باطلا، إذا أَزَلْتَ الهمزة وقرأت ما بعده فإذا كان ما بعده غير صحيح صارت الهمزة إذن للإنكار، إذا أزلت الهمزة صار الكلام: **لم تكن أرض الله واسعة** هل هٰذا صـــحيح؟ ليس بصحيح، فأرض الله جل وعلا واسعة، ولما أتى الاستفهام في الهمزة بعدها كلام يكون بدون الهمزة باطلا، يصـــير الهمزة للإنكار، كما هو مقرر في موضعه في كتب شروح المعاني في اللغة.

قال: ﴿**فَتُهَاجِرُوا فِيهَا**﴾ فدل على أنهم تركوا الهجرة [يظنون أنهم معذورون لأنهم مستضعفون قـــال جـــل وعـــلا: ﴿**فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾ لأن فعلهم هٰذا كبيرة من الكبائر، هل خرجوا من الـــدين؛ كفـــروا؟ لـــيس

كذلك، بيّن الشيخ عبد اللطيف رحمه الله تعالى في أحد رسائله رداً على بعض الجهال الذين احتجوا بهذه][1] الآية على أن من ترك الهجرة مع القدرة على ذلك أنه مشرك وكافر من دين من أقام معهم، وهذا ليس بصحيح، قال: إن هذه الآية في المؤمنين لأنه قال في أولها ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ**﴾[2] فهؤلاء ظلموا أنفسهم، ليس الظلم الأكبر، ولكن الظلم الأصغر بترك الهجرة.

قال جل وعلا بعدها: ﴿**إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً**﴾ رجال مستضعفون، لا يمكنهم أن يعرفوا الطريق، لا يهتدون سبيلا إلى البلد الآخر ولا يستطيعون حيلة، ليس عندهم ما يركبون، وليس عندهم مال ينقلهم، فهم مستضعفين يريدون الهجرة، ولكنهم مستضعفون من جهة عدم القدرة على الهجرة من المال، والمركب، والدليل ونحو ذلك، فقال جل وعلا في هؤلاء ﴿**فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا**﴾ ويلحق بهؤلاء من لم يستطع الهجرة في هذا الزمن بالمعوّقات القائمة من أنواع التأشيرات وأشباهها، تلحق بهؤلاء؛ لأن هذا لا يستطيع حيلة، هو يرغب أن يترك بلد الشرك إلى بلد الإسلام، لكن لا يمكنه ذلك لوجود المعوّقات لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلا، وطريقا إلى بلد الإسلام فهؤلاء قال جل وعلا في حقهم ﴿**فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا**﴾.

ثم ساق دليلا آخر وهو: (**قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾[العنكبوت:٥٦]، قالَ البَغَوِيُّ رحمهُ اللهُ: سببُ نزولِ هذه الآيةِ في المسلمين الذين بمكّةَ لم يهاجرُوا؛ ناداهُم اللهُ باسمِ الإيمانِ.**) تركوا الهجرة فناداهم الله باسم الإيمان، فدلّ على أن ترك الهجرة لا يسلب الإيمان، فمعنى ذلك أن ترك الهجرة ليس شركا أكبر، وليس كفرا أكبر، وإنما هو معصية من المعاصي، لأنه نادى من ترك الهجرة باسم الإيمان، (**﴿يَا عِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾[العنكبوت:٥٦]، قالَ البَغَوِيُّ رحمهُ اللهُ: سببُ نزولِ هذه الآيةِ في المسلمين الذين بمكّةَ لم يهاجرُوا؛ ناداهُم اللهُ باسمِ الإيمانِ.**)، دل أن من ترك الهجرة من مكة ليس كفرا ولا شركا، وأن قوله في الآية التي قبلها ﴿**مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾ أن هذا لأجل أنهم تركوا واجبا من الوجبات، وارتكبوا كبيرة من الكبائر، لكن لا يسلب منهم الإيمان بترك الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام.

قال: (**والدليلُ على الهجرةِ من السُّنَّة قولُهُ ﷺ: «لا تَنْقَطِعُ الهجرَةُ حتَّى تَنْقَطِعَ التَّوبةُ ولا تنقطعُ التّوبةُ حتّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»**) من الواضح أن التوبة لا تنقطع إلا إذا طلعت الشمس من مغربها، وطُلوع الشمس من مغربها هو المراد بقوله تعالى في آخر سورة الأنعام: ﴿**أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا**﴾[الأنعام:١٥٨]، قال المفسرون: إنّ معنى قوله: ﴿**أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ**﴾ أنه طلوع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ﴿**لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا**﴾، فلا تنفع التوبة بعد طلوع الشمس من مغربها، كما قال هنا: «**ولا تنقطعُ التّوبةُ حتّى**

---

[1] استدركه أحد الإخوة من نسخة أخرى.

[2] انتهى الوجه الأول من الشريط السادس.

تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا». فالهجرة لا تنقطع حتى تنقطع التوبة، والتوبة لا تنقطع حتى تطلع الشمس من مغربها، وذلك لأنّ تارك الهجرة حتى طلعت الشمس من مغربها قد ترك فرضا عليه، إذا طلعت الشمس من مغربها ليس ثم عمل ينفع العبد قال: ﴿**لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا**﴾[الأنعام:١٥٨]، والعمل بعض الإيمان.

[المتن]

فلمَّا استقرَّ بالمدينةِ أُمِرَ ببقيَّةِ شرائعِ الإسلامِ مثلُ الزكاةِ، والصّومِ، والحجِّ، والأذانِ، والجهادِ، والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ وغيرِ ذلكَ مِنْ شرائعِ الإسلامِ.

أخذَ على هٰذا عَشَرَ سنينَ وبعدَهَا تُوُفِّيَ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ ودينُهُ باقٍ. وهٰذا دينُه، لا خيرَ إلاَّ دَلَّ الأمَّةَ عليهِ، ولا شرَّ إلاَّ حَذَّرَهَا منْه، والخيُر الذي دلَّهَا عليْه: التَّوحيدُ، وجميعُ ما يُحبُّهُ اللهُ ويرضاهُ. والشَّرُّ الذي حَذَّرَهَا منه: الشِّركُ وجميعُ ما يكرَهُهُ اللهُ ويأباهُ. بعثَهُ اللهُ إلى الناسِ كافَّة، وافترضَ طاعَتَه على جميعِ الثّقلينِ: الجنِّ والإنسِ، والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[الأعراف:١٥٨]، وكمَّلَ اللهُ بهِ الدينَ والدليلُ قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[المائدة:٠٣]. والدليلُ على موتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾[الزمر:٣٠-٣١].

والناسُ إذَا ماتُوا يُبْعَثُونَ، والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾[طه:٥٥]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا(١٧)ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾[نوح:١٧-١٨]، وبعدَ البَعْثِ محاسبُونَ ومَجزيُّونَ بأعْمالِهِمْ والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾[النجم:٣١]، ومَنْ كَذَّبَ بالبعثِ كَفَرَ، والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[التغابن:٠٧].

[الشرح]

قال: (**فلمَّا استقرَّ بالمدينةِ أُمِرَ ببقيَّةِ شرائعِ الإسلامِ مثلُ الزكاةِ**) الزكاة فرضت في السنة الثانية من الهجرة، أريد بالزكاة التي فرضت في السنة الثانية من الهجرة هٰذه الزكاة على هٰذا النحو المقدر؛ زكاة بشروطها، وبأنصبائها، وقدر المخرَج، وأوعية الزكاة ونحو ذلك، هٰذا فُرض في السنة الثانية من الهجرة.

أما جنس الزكاة فقد فرض في مكة، جنس الزكاة غير مقدَّر، مثل الصلاة التي كانت في مكة، وهٰذا جاء في آخر سورة المزّمّل، قال جل وعلا في آخرها وهي مكية: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[المزمل:٢٠]، فأمر بإيتاء الزكاة قال: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ**﴾.

والصواب من أقوال أهل العلم أن الزكاة أوجبت في مكة، ومنها بذل الماعون الذي جاء النهي عنه، في قوله: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾[الماعون:٧]، ومنها الصدقة، منها إعطاء الفقير، ونحو ذلك، وهذه الزكاة غير محدودة، لا بقدر، ولا بصفة، وإنما يصدق عليها اسم الزكاة، أما الزكاة على هذا النحو المقدَّر الذي استقر فهذا فُرض في السنة الثانية من الهجرة.

قال: (**والصّومِ**) الصوم كذلك، هاجر النبي ﷺ فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فقال لهم: «**لِمَ تصومون هذا اليوم؟**» قالوا: يوم نجى الله فيه موسى، فصامه موسى شكرا، فنحن نصومه كما صام موسى. فقال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**نحن أحق بموسى منكم**»(١) فصامه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، **وأَمَر** بصيامه، يعني كان صوم يوم عاشوراء فرضا.

ثم لما فرض صوم رمضان في السنة الثانية من الهجرة، وهي السنة التي كان فيها وقعة بدر، صار صيام عاشوراء على الصحيح مستحبا، والفرض هو صيام شهر رمضان، كما قال جل وعلا في سورة البقرة: ﴿**فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ**﴾[البقرة:١٨٥] وبها كان صيام رمضان واجبا.

قال: (**والحجِّ**) من أهل العلم من يقول: إنه فُرِضَ في السنة السادسة، وهي السنة التي نزل فيها قول الله تعالى: ﴿**وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ**﴾[البقرة:١٩٦]، ومنهم من قال أنه لم يفرض إلا في السنة التاسعة، وهذا هو الصحيح، فإن الحج فُرض متأخرا وذلك بعد فتح مكة، فأُمر النبي ﷺ بالحج في سورة آل عمران، وهي إنما نزلت في سنة الوفود أو في عام الوفود، وهي السنة التاسعة، والنبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ ترك الحج تلك السنة، وأمر أبا بكر أن يحج بالناس، وبعث معه عليا رَضِيَ اللهُ عَنْهُم أجمعين، ثم حج عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ بعد ذلك في السنة العاشرة حجة يتيمة لم يحج بعدها.

قال: (**والأذانِ**) كذلك فُرض الأذان في أول العهد المدني.

(**والجهادِ**) كان هناك تدرج في فرضه.

(**والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ وغيرِ ذلكَ مِنْ شرائعِ الإسلامِ**)، يعني أن شرائع الإسلام الظاهرة إنما فُرضت في المدينة، وأما في مكة فمكث عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، يدعو إلى التوحيد، وينهى عن الشرك عشر سنين، ثم فرضت الصلاة في السنة العاشرة، وأما بقية الشعائر؛ شعائر الإسلام الظاهرة، فإنما كانت في المدينة، حتى تحريم المحرمات من الزنا والخمر والربا ونحو ذلك، فإنما كان في المدينة.

وهذا يدلك على عظم شأن التوحيد في هذا الدين، وأنّ هذه الرسالة رسالة النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، حيث بلّغها للناس، مكث يدعو إلى التوحيد في عشر سنين، والتوحيد من حيث هو، أمْرٌ واحد؛ الدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك أمر واحد، وتلك الأوامر التي فرضت فيما بعد، والمناهي التي نهي عنها فيما بعد، كثيرة جدا، عددها كثير مئات من أمور الإسلام الظاهرة، وأمور المعاملات، والصلات الاجتماعية، والنكاح، وتلك الأحوال، تلك بالمئات، فكان العهد المدني وهو عشْرُ سنين متَّسعا لتلك الأمور جميعا، وأما التوحيد فمع أنه أمر واحد، وهو الدعوة إلى توحيد الله والنهي

(١) البخاري: كتاب الصوم، باب صيام يوم عاشوراء، حديث رقم (٢٠٠٤).
مسلم: كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء، حديث رقم (١١٣٠).

والنذارة عن الشرك، فقد مكث فيه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عشر سنين، وهٰذا من أعظم الأدلة على أن شأن التوحيد في هٰذا الدين هو أعظم شيء، وأن غيره من أمور الإسلام الظاهرة، أنه يليه بكثير في الاهتمام به في هٰذا الشرع، فالدعوة إنما تكون لتوحيد الله؛ لأن القلب إذا وحد الله جل وعلا أحب الله وأحب رسوله، أطاع الله بعد ذلك وأطاع رسوله فرضا، ترك الشرك، أبغض الشرك، ويُبغض كل ما لا يحبه الله جل وعلا ولا يرضاه، وهٰذا من مقتضيات التوحيد.

قال: (**أخذَ على هٰذا عَشَرَ سنينَ**) يعني مكث في المدينة عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عشر سنين يدعو إلى التوحيد وإلى أمور الإسلام الظاهرة.

قال: (**أخذَ على هٰذا عَشَرَ سنينَ [وبعدَها] تُوُفِّيَ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ ودينُهُ باقٍ. وهٰذا دينُه**)، (**صلاة الله**) الصلاة من الله جل وعلا على نبيه، أو على المؤمنين هي ثناؤه عليهم في الملأ الأعلى، هٰذا هو الصحيح أن الصلاة من الله جل وعلا هي الثناء؛ لأن حقيقة الصلاة في اللغة الدعاء والثناء، وأما من قال أن الصلاة بمعنى الرحمة هٰذا ليس بصحيح، قال جل وعلا: ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ**﴾[الأحزاب:٥٦]، الملائكة لا يمكنهم أن يرحموه، لكن يمكن أن يُثنوا عليه أو أن يدعوا له، والله جل وعلا في حقه الثناء، فمعنى صلاة الله جل وعلا على نبيه هو ثناؤه عليه في الملأ الأعلى، لهٰذا جاء في الحديث الصحيح «**من صلَّى علي صلاة واحدة صلَّى الله عليه بها عشرا**»[1] يعني من أثنى عليّ، من قال: اللهم صلي على محمد. سأل الله جل وعلا أن يثني على نبيه في الملأ الأعلى، فإن الله جل وعلا يجزيه من جنس دعائه، وهو أنه يثني عليه بذلك عشر مرات في ملئه الأعلى، أسأل الله الكريم من فضله، وصلِّ الله على نبينا محمد، اللهم صلِّ وسلم على نبينا محمد.

قال: (**ودينُهُ باقٍ**)، عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ تُوفي ودُفن في حجرة عائشة، ودينه باق إلى قيام الساعة، لا يقبل الله جل وعلا من أحد دينا إلا هٰذا الدين، (**وهٰذا دينُه**) الضّمير يرجع إلى أي شيء؟ إلى ما سبق إيضاحه في هٰذه الرسالة، هٰذا الذي وُصف لك فيما قبل هو دينه؛ معرفة العبد ربه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة، ومعرفة العبد نبيه ﷺ.

(**وهٰذا دينُه**) عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، (**لا خيْرَ** -هٰذا من صفاته عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- أنه (**لا خيرَ إلاَّ دَلَّ الأمَّةَ عليه، ولا شَرَّ إلاَّ حَذَّرَهَا منْه، والخيُر الذي دلَّها عليْه: التَّوحيدُ، وجميعُ ما يُحِبُّهُ اللهُ ويرضاهُ. والشَّرُّ الذي حَذَّرَهَا منه: الشِّركُ وجميعُ ما يكرَهُهُ اللهُ ويأباهُ**) وعَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ بالمؤمنين رؤوف رحيم، ومن رأفته بالمؤمنين ورحمته بهم أنه اجتهد أن يؤدي الأمانة كاملة، لا خير يقرب إلى الله ويكون محبوبا إلى الله إلا بينه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ لهٰذه الأمة، وأعلى ذلك التوحيد، ويتبع ذلك جميع الأمور من الفرائض والواجبات والمستحبّات، ومن المناهي التي اجتنابها فرْض ونحو ذلك، المسنونات، حتى قال رجل لسلمان: لقد علَّمكم رسولُكم كل شيء حتى الخراءة، قال: نعم. يعني حتى هيئة الجلوس أثناء قضاء الحاجة، فإنه علّمنا عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ كيف يكون ذلك؛ إقبال واستدبار، وما ينبغي أن يكون إذا ذهب المرء، أين يذهب، كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داوود وغيره، كان عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ إذا ذهب المذهب أبعد، يعني لقضاء حاجته ونحو ذلك.

---

(١) مسلم: كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد التشهد، حديث رقم (٤٠٨).

علّمنا عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ كل شيء، من أعلى أمر وهو التوحيد؛ بيّنه بيانا شافيا مفصلا، إلى أقل الأمور، كلها بينها عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، فالحجّة قائمة على أمته، وأنه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ سيكون شهيدا على هٰذه الأمة، وأنه بلّغهم الرسالة، ودلّهم على كل خير، يحبه الله ويرضاه، كذلك لا شر إلا حذرها منه، لا شر كان أو لا شر سيكون في هٰذه الأمة إلا وحذّرها منه، فحذر النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ أمته من الشرور التي كانت في وقته؛ من الشرك بالله بأنواعه، ومن أنواع المعاصي وأنواع الآثام، وأنواع المعاملات الباطلة، وكذلك ما سيحدث في المستقبل، فإنّ الله جل وعلا أطْلَع نبيه على ما سيكون، فحذَّر النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ أمته من ذلك، مثلا كما جاء في الحديث «**لتتبعن سَنَن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جُحْرَ ضبٍّ لدخلتموه**» قالوا: يا رسول الله فارس والروم؟ قال: «**فمن الناسُ إلا أولئك**»[1] أو كما جاء في غير هٰذه الرواية، لها ألفاظ كثيرة، فحذّرها من تقليد فارس والروم، حذّر النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ أمته من الفتن التي ستظهر بأنواعها، ومنها فتنة الخوارج الذين خرجوا على الصحابة وخرجوا على وُلاة أمر المسلمين، حذّر من البدع بأنواعها، كما جاء في تفسير قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ**﴾[الأنعام:١٥٩]، وكما قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**وإنّ هٰذه الأمة ستفترق إلى ثلاثٍ وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة**»[2] ونحو ذلك من أنواع ما أخبر به النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ أمته محذرا، فهو عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ لهٰذه الأمة رحيم رءوف، لا خير إلا دلّها عليه وأرشد، ولا شر إلا حذر منه ونهى، سواء في ذلك ما حدث في وقته، أو ما سيحدث بعد موته عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ بقليل، أو ما سيكون إلى قيام الساعة، حتى إنه حذّر أمته وشدد، حذّرها وشدد التحذير في أمر المسيح الدجال، حتى إنه قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**إن خرج فيكم وأنا حيّ فأنا حجيجه دونكم وإنْ خرج عليكم بعدي**» -يعني بعد وفاته عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- «**فامرُؤ حجيج نفسه**»[3] وهٰذا يدل على عظم ما دل النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ هٰذه الأمة عليه.

قال رحمه الله بعد ذلك: (**وافترضَ طاعَتَه على جميعِ الثّقلينِ: الجنِّ والإنسِ، والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[الأعراف:١٥٨]**) طاعة الرسول ﷺ فرض على الجن والإنس، لأنّ النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ بُعث إلى الناس جميعا، وقال جل وعلا: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا**﴾، وقال جل وعلا: ﴿**وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ**﴾[الأحقاف:٢٩]، لأنهم اتبعوا هٰذا الرسول، بعد أن سمعوا هٰذا القرآن.

---

(١) **البخاري**: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ((لتتبعن سنن من كان قبلكم))، حديث رقم (٧٣٢٠).

مسلم: كتاب العلم، باب سنن اليهود والنصارى، حديث رقم (٢٦٦٩).

(٢) **سنن الترمذي**: كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هٰذه الأمة، حديث رقم (٢٦٤١)، وقال: حديث مفسَّر حسن غريب لا نعرفه مثل هٰذا إلا من هٰذا الوجه. قال الشيخ الألباني: حسن.

(٣) مسلم: كتاب الفتن واشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه، حديث رقم (٢٩٣٧).

(**وكمَّلَ اللهُ به الدينَ**)، الدين كَمُلَ، والدين هو ما يدين به المرء، يعني ما يكون عادة له في عبادته، يألفه ويعتاده، لأن أصل الدين هو العادة، كما قال الشاعر[1]:

تَقُولُ وَقَدْ دَرَأْتُ لَهَا وَضِينِي أَهٰذا دِينُهُ أَبَدًا وَدِينِي

هٰذه عادتها وهٰذه عادتي.

وسُمِّيَ الدِّين دِينا لأنه يلتزمه الإنسان، وما كان من الاعتقادات، وما كان من العبادات يفعله بتكرر، حتى يصبح له عادة، نعم الدين ليس عادة، لكن أصل تسمية الدين سمي به لأنه له شبه بالعادة، حيث لزومها وكثرة فعلها وترداد صاحبها لها.

(**كمَّلَ اللهُ به الدينَ**) إذن فليس في الدين نقصان، ليس فيه مجال للزيادة، فمن أراد التقرب إلى الله جل وعلا، فإنما يكون ذلك بالتقرب عن طريق رسوله ﷺ، يعني أن يكون متّبعا لسنته عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، لأن الدين كَمُل فلا سبيل إلا هٰذا السبيل، كما قال ابن القيم:

فَلِوَاحِدٍ كُنْ وَاحِداً فِي وَاحِدٍ أعنِي سَبِيلَ الحَقِّ وَالإِيمَانِ

والهجرة من الهجرة: الهجرة إلى الرسول ﷺ بطاعته واتباع سنته وامتثال أمره والانتهاء عن نهيه والاهتداء بهديه، وألا يُعبد الله إلا بما شرع، ينسلخ القلب ويترك كل ما سوى الله جل وعلا، وسوى رسوله من الذين يطاعون، ويتجه بطاعته إلى الله جل وعلا ورسوله، قال: (**والدليلُ قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلامَ دِينًا﴾[المائدة:٣]. والدليلُ على موتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قولُـهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾[الزمر:٣٠-٣١]**) مات عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، الذين يدّعون أنه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ حي لم يمت، وأنه يحضر، رُوحه تحضر، وهو يحضر، وينتقل، ونحو ذلك، هؤلاء مكذّبون للقرآن، كفرة بالله جل وعلا؛ لأن الله جل وعلا قال لنبيه: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ**﴾ يعني ستموت ﴿**وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ**﴾ وإنهم سيموتون، ﴿**ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ إنكم جميعا أنت وهم ﴿**عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ**﴾، وقال جل وعلا في الآية الأخرى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ**﴾[آل عمران:١٤٤]، ومن المعلوم ما حصل من قيام أبي بكر في الناس، بعد موت الرسول ﷺ خطيبا، قائلا فيما يروى: من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال تعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ**﴾. قال عمر: كأني لم أسمع الآية إلا حين تلاها أبو بكر رضي الله عنه.

لكن هو بعد موته؛ في حياة برزخية، هي أكمل أنواع الحياة البرزخية، فهو حي، حياته أكمل من حياة الشهداء، وهو قد مات، توفاه الله جل وعلا، انقطع عن هٰذه الدنيا، حياته أكمل من حياة الشهداء، فهو عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ قد توفّي وانقضى أجله، وهو بالرفيق الأعلى بالجنة، وعند الله جل وعلا بأعلى المقامات عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ.

---

(١) وهو الشاعر الجاهلي المُثَقِّب العبْديّ يذكر ناقته. ويقال أيضا:

تَقُولُ إِذَا دَرَأْتُ لَهَا وَضِينِي أَهٰذا دَأْبُهُ أَبَدًا وَدِينِي

قال لما ذكر موته عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: (**والناسُ إذَا ماتُوا يُبْعَثُونَ**) خصّ هنا البعث بذكر، مع أن مناسبته هي في ذكر اليوم الآخر؛ المرتبة الثانية من الأصل الثاني، اليوم الآخر معناه أنه يبعث الناس بعد الموت، هنا قال: (**والناسُ إذَا ماتُوا يُبْعَثُونَ**) وذلك لسبب وهو أنه في وقت الشيخ رحمه الله تعالى كان يكثر في البادية إنكار البعث بعد الموت، قد جاء في رسائل للشيخ من العلماء، رسائل كثيرة فيها بيان أن البعث بعد الموت حق، وأن من كفر بالبعث وأنكر البعث فهو كافر بالله العظيم، ليس بمؤمن ولا مسلم، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم، نصّ هنا على هذا لأجل الاهتمام بالمسألة وَوَضْعُها في هذا الموضع مناسب، لأنه ذكر وفاة النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، وذكر قوله: ﴿**ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ**﴾ فناسب أن يقرر البعث بعد الموت لجميع الناس، قال: (**والناسُ إذَا ماتُوا يُبْعَثُونَ، والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾[طه:٥٥]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾[نوح:١٧-١٨]، وبعدَ البَعْثِ محاسَبُونَ ومَجزيُّونَ بأعْمالِهِمْ والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾[النجم:٣١]**).

قال: (**ومَنْ كَذَّبَ بالبعثِ كَفَرَ**) مثل أولئك الأعراب في البادية، الذين كانوا في وقت الشيخ رحمه الله، ويكثر إلى الآن في بوادي بعض البلاد العربية أنهم يكذّبون بالبعث، يعتقدون أن التزام الدين، أنه إنما يحصل له الإنسان السعادة في دنياه، وأن روحه تكون في نعيم أو في جحيم، لكن بعث بعد الموت، يكذبون بذلك، قال هنا: (**ومَنْ كَذَّبَ بالبعثِ كفَرَ، والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[التغابن:٠٧]**.) وجه الاستدلال أنه قال: ﴿**زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ فوصف الذين يزعمون أنهم لن يبعثوا بأنهم من الذين كفروا.

ﮋﮋ ◊ ﮊﮊ

[المتن]

وأرسلَ اللهُ جميعَ الرُّسلِ مبشّرينَ ومُنذرينَ، والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[النساء:١٦٥]، وأولُهُمْ نوحٌ عليه السلامُ، وآخرُهُم محمدٌ ﷺ وهو خاتمُ النّبيينَ والدليلُ على أنَّ أوَّلَهُم نوح قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾[النساء:١٦٣]، وكلُّ أمَّةٍ بعثَ اللهُ إليها رسولاً مِنْ نوحٍ إلى محمد، يأمُرُهُمْ بعبادةِ اللهِ وحدَهُ، ويَنْهَاهُمْ عنْ عبادَةِ الطاغوت، والدّليلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل:٣٦]، وافترضَ اللهُ على جميعِ العبادِ الكفرَ بالطاغوتِ والإيمانَ باللهِ، قال ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالى: معنى الطاغوت ما تجاوزَ بِهِ العبدُ حدَّهُ مِنْ معبودٍ، أو متبوعٍ، أو مطاعٍ.

والطواغيتُ كثيرونَ ورؤوسُهُمْ خمسةٌ: إبليسُ لعنَهُ اللهُ، ومَنْ عُبِدَ وهو راضٍ، ومَنْ دعا الناسَ إلى عبادَةِ نفسِهِ، ومَنِ ادَّعى شيئًا مِنْ علمِ الغيْبِ، ومَنْ حكمَ بغيرِ مَا أنزلَ اللهُ، والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ

عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٥٦]، وهٰذا هو معنى لا إله إلا الله، وفي الحديث «رأسُ الأمْرِ الإسلامُ وعمودُهُ الصَّلاةُ وذروةُ سنَامه الجهادُ في سبيلِ الله».(١)

والله أعلمُ تَمَّتْ هٰذه الرسالة.

[الشرح]

قال: (وأرسلَ اللهُ جميعَ الرُّسلِ مبشِّرينَ ومُنذرينَ، والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[النساء:١٦٥]، وأولُهُمْ نوحٌ عليهِ السلامُ، وآخرُهُم محمدٌ ﷺ) من كذّب برسول من الرسل فقد كذب بالرسل أجمعين، ومحمد عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ خاتم النبيين وخاتم المرسلين، كل دعوة لنبوة أو دعوة للرسالة بعده فهي ضلال وهي كفر بالله جل وعلا، فمن ادعى في وقت الصحابة وبعدهم إلى يومنا هٰذا لم يزل يظهر من يدّعي النبوة، والنبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ خاتم المرسلين وخاتم النبيين وخاتمهم؛ خاتَمهم و خاتِمهم (والدليلُ على أنَّ أوَّلُهُم نوح قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾[النساء:١٦٣]) هٰذا وحي خاص وحي الرسالة، والمراد بالنبيين هنا المرسلين.

قال: (وكلُّ أمَّة بعثَ اللهُ إليها رسولاً منْ نوحٍ إلى محمد، يأمُرُهُمْ بعبادةِ الله وحدَهُ، وينْهَاهُمْ عنْ عبادَةِ الطاغوت، والدّليلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل:٣٦])، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ﴾ ما يأتي بعدها هو مضمون البعث، بعثهم لأي شيء؟ لما يأتي بعد ﴿أَنْ﴾ وهو ﴿اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ عبادة الله سبق تفسيرها مفصّلا في الأصل الأول وهو معرفة العبد ربه، هنا لمّا ذكر الطاغوت كان مناسبا لأهميته، أن يذكر معنى الطاغوت.

قال هنا: (وافترضَ اللهُ على جميعِ العبادِ –بهٰذا الدّليل– الكفرَ بالطاغوتِ والإيمانَ باللهِ) ما معنى الطاغوت إذن؟ (قال ابنُ القيِّمِ رحمَهُ اللهُ تعالى: معنى الطاغوت ما تجاوزَ بِهِ العبدُ حدَّهُ منْ معبودٍ، أو متبوعٍ، أو مطاع.) الطاغوت صيغة مبنية للكثرة والسَّعة، لأنها من طغى يطغى طغيانا، ومعنى ذلك التجاوز تجاوز الحد، يقال: طغى الماء إذا تجاوز الحد، طغى الرجل إذا تجاوز حدّه، والطاغوت مبني من الطغيان، لكنه للكثرة مثل ملكوت، رحموت ونحو ذلك.

ما هو الطاغوت؟ إذن الطاغوت اسم لكل ما تجاوز به العبد حدّه، كل ما تجاوز به العبد حدّه؛ أي حد هٰذا؟ الحد الشرعي له، معلوم أن الشرع حدّ للأشياء حدودا، وبيّن علاقة المسلم بها، فإذا تجاوز العبدُ بشيء ما حدَّه، فذلك الشيء طاغوت، قال: (ما تجاوزَ بِهِ العبدُ حدَّهُ منْ معبودٍ) إذا عبد أحدٌ غير الله جل وعلا فذلك الغير طاغوت هٰذا العابد، متى يكون طاغوتا؟ إذا كان راضيا بهٰذه العبادة، أمّا إذا كان يكرهها فإنه لا يُسمّى طاغوتا، لأنه يتبرأ منه والمتبرّئ من الشيء ليس من أهله، كما قال جل وعلا: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ

---

(١) سنن الترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، حديث رقم (٢٦١٦) قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

سنن ابن ماجه: كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، حديث رقم (٣٩٧٣).

قال الشيخ الألباني: صحيح.

هَؤُلاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا﴾[الأنبياء:٩٨-٩٩]، فلما نزلت هذه الآية فرح المشركون، قالوا سنكون وعيسى وعزير- وعدّوا آلهة- سنكون جميعا في جهنم فنعم الصحبة، أنزل الله جل وعلا بعده: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لا يَحْزُنُهُم الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمْ الْمَلائِكَةُ هَذا يَوْمُكُم الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ**﴾[الأنبياء:١٠١-١٠٣]، فدلّ على أن الذي لا يرضى بعبادته فإنه ليس بمذموم، لهذا عُبدت الأنبياء والرسل، وعُبد الصالحون، وكلهم يتبرّؤون، عيسى عليه السلام أُلِّه بعد رفعه، وقال له ربه جل وعلا: ﴿**وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي**﴾[المائدة:١١٦-١١٧]، ﴿**تَوَفَّيْتَنِي**﴾ يعني قبضتني؛ قبضت بدني ورفعتني عنهم، واستوفيت مدتي على الأرض؛ المدة الأولى، كنت أنت الرقيب عليهم، ﴿**فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ**﴾[المائدة:١١٧-١١٨] إلى آخر الآيات.

(**معنى الطاغوت ما تجاوزَ بِهِ العبدُ حدَّهُ مِنْ معبودٍ، أو متبوعٍ**) من يُتبع، يُقلّد، يُمشى وراءه، يهتدى بهديه (**أو مطاعٍ**) إذا كان اتبع أحد فجاوز العبد بهذا المتبع حده الذي أذن به شرعا، فقد صار ذلك طاغوتا له إذا كان راضيا بذلك، وإن كان لا يرضى فهذا هو الذي اتخذه طاغوتا، وذاك ليس بطاغوت أو مطاع.

بيّن ذلك بقوله: (**والطواغيتُ كثيرونَ ورؤوسُهُمْ خَمسةٌ: إبليسُ لعنَهُ اللهُ، ومَنْ عُبِدَ وهو راضٍ، ومَنْ دعا الناسَ إلى عبادَةِ نفسِه**).

إبليس لعنه الله هو رأس الطواغيت، لم؟ لأنه عُبد، ولأنه متبوع، ولأنه مطاع وهو راض بذلك، أطيع أو لم يُطع؟ أطيع في معصية الله وهذه مأذون بها، أو غير مأذون بها؟ ويعتبر عند من أطاعه أنه مقدّم، وأن طاعته هَنِيَّة، ولهذا قال جل وعلا في سورة إبراهيم: ﴿**وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي**﴾[إبراهيم:٢٢]، الاستجابة هنا في المتابعة والطاعة، وقال جل وعلا في آية سورة يس: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**﴾[يس:٦٠]، ﴿**أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ**﴾ يعني بالطاعة كما هو تفسيرها.

(**ومَنْ عُبِدَ وهو راضٍ**) هذا القيد مهم، من عُبد من دون الله، ورضي بهذه العبادة فهو من الطواغيت، من رؤوس الطواغيت.

(**ومَنْ دعا الناسَ إلى عبادَةِ نفسِه**) هذا أعظم، الأول يُعبد وهو ساكت لم يدعُ إلى عبادة نفسه، يُطاع وتكون طاعته دينا، في غير طاعة الله جل وعلا وطاعة رسوله، ويرضى بذلك، فهذا طاغوت، الأعظم منه أن يدعو، ذاك ساكت- الأول-يكون فُعل به ذاك وهو راض، الأعظم أن يدعو إلى نفسه، مثل ما يفعل مشايخ الطّرق الصوفية، يعني بعض من

مشايخ الطرق الصوفية، ورؤوس الضلال. ورؤوس الرافضة، ورؤوس الإسماعيلية، ونحو ذلك. كل هؤلاء يعظّمهم أتباعهم فوق الحد الشرعي، فيتخذونهم مطاعين، فيتخذونهم متابَعين من دون رسول الله ﷺ.

قال: (**وَمَنِ ادَّعى شيئًا مِنْ عِلمِ الغيْبِ، وَمَنْ حكمَ بغيرِ مَا أنزلَ اللهُ**) من ادعى شيئا من علم الغيب فهو من جنس الشياطين، فهو كاهن من الكهنة، أو ساحر من السحرة، أو مدعي لعلم الغيب، هٰذا من الطواغيت.

قال: (**وَمَنْ حكمَ بغيرِ مَا أنزلَ اللهُ**) الحاكم بغير ما أنزل الله فيه تفصيل:

- إذا حكم بغير ما أنزل الله معتقدا أنّ حكمه جائز، وأن له أن يحكم، وحكمه قرين لحكم الله أو مساوٍ لحكم الله، أو أفضل من حكم الله أو نحو ذلك. فإن هٰذا يعدّ طاغوتا.

- أما إن حكم بغير ما أنزل الله وهو يعلم أنه عاص في حكمه، وأن حكم الله جل وعلا أفضل، وأن حكم الله جل وعلا هو المتعيِّن، ولكن غلبته نفسه وشهوته بأن حكم بغير ما أنزل الله في بعض المسائل، كما يحصل لبعض المفتونين من القضاة، أنهم يحكمون في مسائل بشهوتهم، كما كان يحدث في نجد من قرون قبل الدعوة، أنه كان يُرشى القاضي -يُرشى بمال- فيحكم لأحد الخصمين يغيِّر حكم الله جل وعلا، ويحكم بغير حكم الله، وهٰذا هو الذي جاء فيه الحديث الذي رواه أبو داوود وغيره بإسناد قوي، أنه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ قال: «**القضاة ثلاثة قاضيان في النار، وقاضٍ في الجنة، فرجل قضى بغير الحق وهو يعلم الحق فذاك في النار**»(١) والعياذ بالله، هٰذا النوع يحكم لأجل مال، يحكم لأجل رِشوة بغير ما أنزل الله، هٰذه معصية من المعاصي، ولا شك أن معصية سمّاها الله جل وعلا كفرا، أعظم من معصية لم يسمِّها الله جل وعلا كفرا، كما يقول الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله تعالى في رسالته تحكيم القوانين، فإذن هٰذا الصنف من الناس فعلهم معصية.

- هناك نوع آخر حدث في هٰذا الزمن، وهو تحكيم القوانين؛ أن يُستبدل الشرع بقوانين وضعية، يُستبدل الشرع استبدالا بقوانين، يأتي بها الحُكّام من عند غير الله ورسوله، يُترك الدين، ويؤتى بتلك القوانين.

فهٰذه كما يقول الشيخ رحمه الله تعالى محمد بن إبراهيم في أول رسالته تحكيم القوانين يقول ما نصه: إن من الكفر الأكبر المستبين، تنزيل القانون اللعين، منزلة ما نَزَل به الوحي الأمين، على قلب سيد المرسلين، للحكم به بين العالمين، وللرد إليه عند تنازع المتخاصمين، معاندة ومكابرة، لقول الله جل وعلا: ﴿**فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾[النساء:٥٩].(٢)

---

(١) **الترمذي**: كتاب الأحكام ، باب ما جاء عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في القاضي، حديث رقم (١٣٢٢).

قال الشيخ الألباني: صحيح.

(٢) قال الشيخ صالح آل الشيخ في تعليقه على فتح المجيد بعد إيراده لهٰذا الكلام للشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله: لأنه من نزّل القانون منزلة الشرع معتقدا أن الحكم به مثل الحكم بالشرع، أو لا بأس ما فيه شيء، أو نحّى الشرع تماما عن الحكم وبعّد الدين وأتى بشريعة أخرى فإن هذا كفر أكبر مخرج من الملة؛ ولأنه اتخذه ربا واتخذه إلها من دون الله جل وعلا.

=

رسالته هٰذه بسَط فيها القول، وهي رسالة دقيقة مهمّة في هٰذا الباب.

إذن فصار تحكيم القوانين كفرا أكبر بالله، لأنه استبدال شريعة مكان شريعة، بدَّل شريعة الإسلام يأتون بشريعة فرنسا، أو شريعة أوروبا، أو شريعة إنجلترا، شريعة أمريكا، هٰذا استبدال.

فإذا كان الحكم به غالبا صار تحكيما، يعني صار الحكم في أكثر أمور الشريعة بهٰذه الأحكام القانونية صار استبدالا، فمتى يكون كفرا؟ إذا كان استبدالا، ومتى يكون استبدالا؟ إذا كان تحكيم القوانين غالبا، كما ذكر الشيخ رحمه الله تعالى في فتاويه –الشيخ محمد بن إبراهيم– أيضا مقيِّدا يقول: متى يكون الحكم بالقانون كفرا؟ قال: إذا كان غالبا فاشيا. لم؟ لأنه استبدل شريعة مكان شريعة، فإذا غلب ذلك صار استبدالا.

وهٰذا قيد مهم، وهٰذه المسألة يكثر فيها الكلام في هٰذا العصر، بين كلام المتعلمين وعلى سبيل تعلُّم، وبين كلام جهال، وقلّ من يحرر الكلام فيها على نحو ما بينه العلماء بدقة وتفصيل.

قال هنا: (**والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٥٦]**).

قال بعد ذلك: (**وهٰذا هو معنى لا إله إلا الله**) ما معنى (لا إله إلا الله) ؟ هو قوله: ﴿**فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ**﴾ لأن الكفر بالطاغوت هو معنى النفي بـ(**لا إلـٰه**) والإثبات وهو قوله: ﴿**وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ**﴾ هو المستفاد من قوله: (**إلا الله**).

قال بعد ذلك: (**وفي الحديث «رأسُ الأمْرِ الإسلامُ وعمودُهُ الصَّلاةُ وذِروةُ سَنَامِهِ الجهادُ في سبيلِ الله» واللهُ أعلمُ. تمت هٰذه الرسالة**). وأسأل الله جل وعلا أن ينفعني وإياكم لما سمعنا، وأن يهيئ لنا من أمرنا رشدا، وأن يجعلنا من المتعلمين حق التعلم، العاملين بما نعلم.

نسأله اللهم أن يجعلنا من أهل التوحيد؛ الذين يُعلون رايته، وينافحون عنه، ويُدافعون عنه وعن أهله، وأسأله لي ولكم العفو والغفران من جميع الزلل والسيئات، وأستغفر الله لذنبي ولذنوب جميع المسلمين، وأسأله أن يعفو عني ما حصل مني، في هٰذا الشرح الموجز من غلط لسان، أو سهو جَنان، أو انتقال للذهن، وقد اختصرنا في الأخير، وكان حقها أن تبسط أكثر من ذلك بكثير، لكن لأجل انتهاء هٰذه الدروس.

وهٰذا هو يوم الأربعاء الثامن من ربيع الأول لعام أربعة عشر وأربعمائة وألف [١٤١٤/٠٣/٠٨هـ]

اللهم اجعل بقية أعمالنا خيرًا مما سلف منها، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

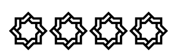
۞۞۞۞

=

أما لو فعل ذلك وهو يقول: إني عاصٍ أطاعهم في الحكم تحاكم، أو أطاع في مثل هذه الأمور في تحليل الحرام وتحريم الحلال، وهو يقول: أنا عاصي وهو يقول: أنا عاصي أنا عارف أن الحكم حكم الله لكن أطعتهم ظاهرا. هذا عاصٍ مرتكب كبيرة وكافر الكفر الأصغر الذي هو أعظم من الزنا وشرب الخمر والسرقة –نسأل الله جل وعلا العافية والسلامة–.

وعلى هذا ينبني الكلام في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[المائدة:٤٤].

فهرس الأحاديث



المحتويات

